رفع الملام عن شيخ الإسلام

الرد الفصيح على المدعو محمود صبيح



للدكتور
عطية عدلان



المقدمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين

وبعـــــــد

فلقد اطلعت على كتابين، الأول مكتوب على واجهته:

(أخطاء ابن تيمية في حق رسول الله صلى الله عليه وسلم وأهل بيته).

وتحت هذا العنوان الشاذ وضع هذا الاسم:

(السيد الشريف الدكتور محمود السيد صبيح).

والثاني لنفس المؤلف، معنون بهذا العنوان الركيك:

(خصوصية وبشرية النبي صلى الله عليه وسلم عند قتلة الحسين)

وراعني ما في الكتابين من تجن على شيخ الإسلام، ومن انحراف عن المنهج العلمي في تناول القضايا والحكم على الناس؛ لذلك اعتزمت إعداد هذا الردِّ؛ إحقاقا للحق وإنصافا لأهل العلم.

والحقيقة أنني تعبت كثيرا بسبب سوء ترتيب المسائل في الكتابين، وكثرة ما اشتملا عليه من مغالطات وشبهات وترهات، لكنني مع ذلك وفقت -بحمد الله- إلى طريقة تجمع بين الإيجاز والإنجاز، فجعلت الرد يدور حول موضوعات لم ترد في الكتابين منظمة أو مرتبة، ولكنها مع ذلك ظاهرة، وزاوجت بين تصحيح القضايا وبين الدفاع عن ابن تيمية رحمه الله، مع نفض ما لا يستحق الالتفات من سقط الآراء والأقاويل.

والموضوعات التي دار حولها الحديث وشكلت مباحث هذا البحث البسيط هي:

1- آل بيت النبي وموقف ابن تيمية منهم.

2- الحقيقة المحمدية.

3- الوسيلة.

4- الاستغاثة والاستعانة وطلب المدد.

5- الزيارة.

6- الموقف من الصوفية.

7- ابن تيمية في سطور.

هذا بخلاف التمهيد الذي بينت فيه بإيجاز منهج المؤلف في كتابيه، والخاتمة التي أجملت فيها ثمرات البحث ونتائجه.

وإنني إذ أقدم هذا العمل المتواضع للقراء أدعو الله عز وجل أن يتقبله مني وأن يجعله خالصا لوجهه الكريم، وأن يجعلنا والقراء الكرام على نهج النبي صلى الله عليه وسلم ومن تبعه من العلماء الربانيين.

كتبــه الدكتور

عطية عدلان

غرة جمادى الأولى 1427هـ

تمهيد

منهج المؤلف في كتابيه

بعد أن قطعت شوطًا مضنيًا في أدغال ذلك الكتاب المسمى بـــ (أخطاء ابن تيمية في حق رسول اللهصلى الله عليه وسلم وأهل بيته) وقعت على عبارة للمؤلف، أوفت على الغاية في الركاكة والإسفاف، يقول فيها: "وقد قال لي أحد الناس بعفوية شديدة: أين علماء المسلمين، وقال آخر بلغة عامية شديدة هل أصبح ابن تيمية (طرزان)؟ وكلمة عامية جدًا هي كلمة (دكر) وبقية علماء المسلمين قبل ابن تيمية وبعده (طراطير)؟[1]

هذه العبارة السيئة صورت (بعفوية شديدة!) الوسط الذي استفز (السيد الشريف) وأخذ يؤزه أزًا، لينطح الصخرة الشماء، ويعود من بعد طول النطح برأس دامية وساعد كليل، بينما الصخرة لم تزدد إلا شموخًا ورسوخًا، فكان بالفعل:

كناطح صخرة يومًـــا ليوهنـــها فلم يضرها وأوهى قرنه الوعـــل

كما ترجمت (بلغة عامية جدا !) بعضا من الأسباب التي كانت وراء ذلك التجني البالغ وتلك العدوانية الطافحة، وأجابت عن تساؤلات كثيرة، طالما حيرتني وأرهقت ذهني طوال تلك الرحلة الشاقة في مجاهل ذلك الكتاب الغريب.

شعرت وأنا أقرأ هذه العبارة بالاشمئزاز الشديد، وتساءلت في دهشة: أيمكن أن ينطوي مؤلف علمى -أو المفترض أن يكون علميًا- على مثل هذا الكلام الفارغ من المعنى، العاري من المبنى؟! وكيف ساغ للمؤلف وهو يتحدث في نقد علم من أعلام الأمة الإسلامية أن يسوق مثل هذه الكلمات الفجة ولو على سبيل الحكاية؟! وصدق القائل:

---

(1) كتاب (أخطاء ابن تيمية في حق رسول الله صلى الله عليه وسلم وأهل بيته) الدكتور محمود السيد صبيح ط أولى 2003 (ص329).

تكلم وسدد ما استطعت فإنما كلامك حي والسكوت جمادُ

فإن لم تجد قولاً سديدًا تقوله فصمتك عن غير السداد سداد

إن من يطالع كتاب الدكتور صبيح هذا، وكتابه الآخر الذي أسماه: (خصوصية وبشرية النبي صلى الله عليه وسلم عند قتلة الحسين)[1] سيجد الكثير من الكلام الذي لا يساوي ثمن المداد الذي كتب به، ولا الورق الذي سطر عليه، وسيصاب بدهشة شديدة من حجم المخالفات الصارخة لقواعد المنهج العلمي، سواء في معالجة القضايا، أو في نقد الرجال.

إن المنهج الذي اعتمده في ذينك الكتابين لا يمت إلى العلم بأدنى صلة، ولا يبدو عليه سمة واحدة من سمات المنهج العلمي، بل إن سماته كلها مزعجة، تشعر بالقلق على المنهج العلمي وعلى الأمانة العلمية، مع ركاكة في الأداء، وهشاشة في الأسلوب، وتخلف شديد في انتقاء الكلمات والعبارات؛ فلست أدري – في الحقيقة – لماذا أتعب نفسه بهذا الكلام في تسويد صفحات كان من الأنفع للبشرية أن تبقى بيضاء نقية.

السمة الأولى من سمات هذا المنهج هي التهجم –غير المبرر– على أصناف من عباد الله لا يجمعهم إلا أنهم ليسوا على رأي (السيد الشريف). فلقد أكثر الرجل من التهجم على الناس، وأسرف على نفسه في هذا بغير تحفظ، فلم يكتف بتهجمه على شيخ الإسلام ابن تيمية –موضع الدراسة– حتى نال من جميع تلاميذه، وعلى رأسهم الإمام العلامة ابن القيم رحمه الله والحافظ ابن عبد الهادي، وغيرهما، وحتى الذهبي وابن كثير لم يسلما من غمزه، وكأن مدرسة التجديد العظمى التي أثرت الفكر الإسلامي والفقه الإسلامي لم تكن في نظر فضيلة الدكتور سوى بركة من الفساد والإلحاد!.

ويبدو أن تهجمه على هؤلاء الأعلام الكبار لم يشبع نهمه للتجريح والنيل من القمم الشامخة؛ لذلك استل قلمه، وانطلق في غضب جامح يخمش أقوامًا هنا وهناك، لا يجمعهم زمان ولا مكان ولا مذهب، سوى أنهم لم يوافقوه في آرائه ومذاهبه الغريبة .

فمرة يرمى الحركة الوهابية بتهمه العمالة والتواطؤ مع الإنجليز وأعداء الأمة لإسقاط الخلافة

(1) ط: دار الركن والمقام سنة 2005.

العثمانية، والقوم من تهمته براء؛ كيف والحركة الوهابية قامت سنة 1811م بينما كان سقوط الخلافة العثمانية سنة 1924م، والتاريخ الذي لا يكذب "يذكر أن هؤلاء الإنجليز وقفوا ضد هذه الدعوة منذ قيامها خشية يقظة العالم الإسلامي"[1] وكيف يصدق عاقل أن يتحالف الإنجليز مع دعوة تجديدية تستهدف تصحيح العقيدة، ودفع البدعة والخرافة عن واقع الأمة؟!.

"ومما يدل على أن الإنجليز ضد الحركة الوهابية أنهم أرسلوا الكابتن "نوستر سادلير" ليهنئ إبراهيم باشا على النجاح الذي حققه ضد الوهابيين إبان حرب إبراهيم باشا للدرعية"[2].

ومرة يشنع على الجمعية الشرعية بمصر، ويعيب عليها أنها فتحت أبوابها لشباب لم يرض عنهم المؤلف؛ فيقول: "الشيخ خطاب السبكي مؤسس الجمعية الشرعية التي اخترقت بنسبة كبيرة من المتنطعين والمتشددين والمبتدعين" مع أن القاصي والداني من شعب مصر يعلم ويشهد أن الجمعية الشرعية تعيش عصرها الذهبي على يد أهل الصدق الذين اتهمهم بالتشدد والتنطع والابتداع، وتقوم بدورها العظيم في المجتمع المصري من كفالة للأيتام، ورعاية للفقراء والمساكين، وغير ذلك من مشاريع البر والإصلاح الاجتماعي.

وحتى شعب العراق الجريح لم يسلم من دخان قلمه الذي يتقلب على جمر الغضب الذي لا يعرف له سبب، يقول في شماتة ظاهرة: "انتقم الله في الدنيا من كل من قتل وشارك ورضي بمقتل ابن بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، بل ومن سكت، ولا زالت دماء الحسين تطالب بحقها من ورثة القتلة حتى قيام الساعة. ولعل ما يحدث في العراق عبر التاريخ هو استكمال وتتمة عدة المنتقم منهم.."[3].

إذن فليفرح المسلمون، ولتقم الأعياد في كل البلاد؛ فلقد انتقم الله عز وجل من قتلة الحسين وسلط عليهم الأمريكان (جنود الرحمن !) ليهدموا عليهم عراقهم وليستكملوا تتمة عدة المنتقم منهم !!!

---

(1) كتاب الشيخ محمد بن عبد الوهاب في مرآة علماء الشرق والغرب، تأليف: محمود مهدى الاستانبولي (ص62).

(2) دعاوي المناوئين لدعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب، لعبد العزيز بن محمد آل عبد اللطيف (ص240).

(3) خصوصية وبشرية النبي صلى الله عليه وسلم عند قتله الحسين (ص129).

وفي أحيان كثيرة يرمى السهام على الإبهام؛ لعلها تصيب رؤوسًا لا يهواها ولا يرتاح إليها، فعلى سبيل المثال: يقول "فكتابة اسم النبي صلى الله عليه وسلم على العرش حقيقة لا يماري فيها، ولا يجادل في ذلك إلا زنادقة آخر الزمان"[1].

تلك كانت السمة الأولى من سمات منهج الدكتور صبيح في كتابيه، أما السمة الثانية فهي: المبالغة والتهويل، والإثارة والتهييج، والتشنج البالغ واستعمال العبارات المشحونة بالحدة والرعونة.

تأمل -مثلاً- قوله عن يزيد بن معاوية: "مات معاوية، وتعرض الإسلام لأول مصيبة من نوعها، وهي توريث الخلافة قهرًا لفاسق مشهور بالفجور، يطلق عليه يزيد الخمر بن معاوية، فعل ما لم يفعله أبرهة ولا التتار، ولا الصليبيون ولا أمريكا ولا اليهود.."[2].

فهذا الحكم على يزيد -على ما فيه- لا يمكن أن يصدر عن دراسة علمية منصفة، ولا عن منهج علمي رصين، وإنما يصدر عن تهويل وتهييج وقلة إنصاف،

ولم تزل قلة الإنصاف قاطعة بين الأنام وإن كانوا ذوي رحم

وتأمل قوله عن ابن تيمية رحمه الله: "اعلم. أن أشد الناس إنكارًا لوجود الرأس الشريف في مصر هو ابن تيمية، ابن تيمية الذي أخطأ في حق رسول الله صلى الله عليه وسلم خطأ لم يخطأه أحد من الجن ولا من الإنس.".

وأنا أتحدى الجن والإنس أن يخرجوا من كتب ابن تيمية خطأ واحدًا صغيرًا في حق رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولا أدري أين هو الخطأ الذي ارتكبه ابن تيمية في حق رسول الله صلى الله عليه وسلم ففاق به ما ارتكبه أبو جهل وزعماء اليهود بل وإبليس عدو الله؟!.

إن المنصف يتورع أن يصدر مثل هذا الحكم الطائش على واحد من الروافض أو الجهمية أو حتى غلاة الصوفية كالحلاج وابن سبعين، فكيف يطلق حكما كهذا على علم من أعلام أهل السنة، ورمز من رموز التجديد والإصلاح في تاريخ الأمة الإسلامية؟!.

---

(1) السابق (ص143).

(2) خصوصية وبشرية النبي صلى الله عليه وسلم (ص189).

ثم تأمل هذا الافتيات والتزيد على شعب مصر، يقول في عبارة تفوح منها رائحة الوصاية المرفوضة: "وعامةً ابن تيمية يكره مصر والمصريين"[1].

ما هذا الافتيات؟ ومن أين علم أن ابن تيمية يكره مصر والمصريين؟! أم هو التهييج والإغراء؟!.

ومن المبالغات التي لا تمت إلى المنهج العلمي بأدنى صلة قوله: "يومًا ما وصلت الرأس الشريفة إلى مصر، ومن وقتها حلت البركات، وانتصر هذا البلد الطيب، المبارك، على الصليبيين والتتار، وهجمات الفرنجة المتواصلة، وحتى نصر أكتوبر المجيد، لم تنتصر مصر هذه الانتصارات إلا بعد دخول الرأس الشريفة، و لم تصبح مصر هي حامية الإسلام والمسلمين وقلعة العلماء إلا بعد دخول الرأس الشريف"[2].

وأشد من هذا مبالغة وتهويلاً ومجازفة" قوله: "أما وجود جسد مولانا الحسين في العراق في الأزمنة السابقة فمعناه وجود الخلافة بلا رأس؛ لذا اكتسحها التتار وطحنتها السنون"[3].

إن مثل هذه التهويلات لا قبول لها في مجال العلم والتحقيق، وإنما تروج في غير هذا المجال، وليست في حقيقة الأمر إلا ضربًا من الكلام الذي لا يستحق الالتفات.

السمة الثالثة: ضعف الأمانة العلمية، وهي سمة تبدت في مظاهر كثيرة، منها التحريف المتعمد للنص المنقول عن شيخ الإسلام ابن تيمية، وأذكر على سبيل المثال قوله: "ومن أخطاء ابن تيمية ما ادعاه في تبديع الصحابي الجليل عبد الله بن عمر بن الخطاب، وذلك لشدة اتباعه وتحريه للمواضع التي صلى فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقال في حق عبد الله بن عمر رضي الله عنهما -بالحرف الواحد-: "بل هو مما ابتد ع)"[4].

بينما النص الصحيح هو: "وتحرى هذا ليس من سنة الخلفاء الراشدين، بل هو مما ابتُدع"[5]

---

(1) السابق (ص216).
(2) السابق (ص9).
(3) السابق (ص280).
(4) أخطاء ابن تيمية (ص435).
(5) اقتضاء الصراط المستقيم (ص 390).

على البناء للمجهول.

ومن مظاهر ضعف الأمانة العلمية أيضًا: الاجتزاء الذي يغير معنى السياق، وذلك في مواضع كثيرة، أذكر منها على سبيل المثال أن ابن تيمية رحمه الله في صدد رده على (ابن المطهر الشيعي) بين أن ثناءه على فاطمة بهذه الطريقة يهينها ويلصق بها التهم والمناكر، فأخذ المؤلف كلام ابن تيمية وعرضه مقطعًا، وأوله للقارئ على أن ابن تيمية يلصق بفاطمة التهم والمناكر، ولكي لا يفطن القارئ إلى فساد هذا التأويل أسقط المؤلف (الشريف) من السياق قول ابن تيمية: "فقاتل الله الرافضة"، وانتصف لأهل البيت منهم، فإنهم ألصقوا بهم من العيوب والشين ما لا يخفي على كل ذي عين"[1].

وظل يبدي ويعيد، ويتهم شيخ الإسلام بالضغن على فاطمة، وبالتنقيص لها[2].

ومن أمثلة ذلك أيضًا أن ابن تيمية تحدث عن الحسن والحسين حديثًا معتدلاً فقال "ولا ريب أن الحسن والحسين ريحانتا رسول الله صلى الله عليه وسلم في الدنيا، وقد ثبت أنه صلى الله عليه وسلم أدخلهما مع أبويهما تحت الكساء وقال: "**اللَّهُمَّ هَؤُلاءِ أَهْلَ بَيْتِي، فَأَذْهِبْ عَنْهُمُ الرِّجْسَ وَطَهِّرْهُمْ تَطْهِيرًا**"[3]، وأنه دعاهما إلى المباهلة، وفضائلهما كثيرة، وهما من أجلاء سادات المؤمنين، وأما كونهما أزهد الناس وأعلمهم في زمانهم فهذا قول بلا دليل."[4]، قال هذا في صدد الرد على ابن المطهر الشيعي، فجاء المؤلف، واقتص من هذا السياق الذي يظهر تعظيم ابن تيمية للحسن والحسين هذه العبارة فقط: "وأما كونهما أزهد الناس وأعلمهم في زمانهم فهذا قول بلا دليل."[5] وأوردها في كتابه وراح يرد عليها.

السمة الرابعة: التضخيم وتحميل الكلام ما لا يحتمل، من ذلك أنه أورد كلامًا لابن تيمية في

(1) راجع النص بتمامه في منهاج السنة النبوية(246/4).

(2) انظر (ص62-63)، من كتاب أخطاء ابن تيمية.

(3) رواه الترمذي في السنن (3749)، والنسائي في الكبرى (8102)، وأحمد في المسند (25998)، والطبراني في الكبير (2599)، وابن أبي عاصم في السنة (1143)، وأبو يعلى في مسنده (6971)، والطحاوي في مشكل الآثار (658)، والآجري في الشريعة (1685)"صحيح".

(4) منهاج السنة النبوية(14/4).

(5) أخطاء (ص116).

منهاج السنة، هذا نصه: "وفي الصحيحين أنه قال لعائشة رضي الله عنها في قصة الإفك، قبل أن يعلم براءتها، وكان قد ارتاب في أمرها: **فَإِنْ كُنْتِ بَرِيئَةً فَسَيُبَرِّئُكِ اللَّهُ**."[1][2].

وإذا به يسلط الضوء على الجملة الاعتراضية (وكان قد ارتاب في أمرها) ويحملها ما لا تحمل من الأوهام والظنون السيئة، وأخذ يصول ويجول على مدى سبع صفحات[3] أو يزيد، ويقاتل في ميدان لا معركة فيه، ويصفع أوهامًا يظنها هامًا، مع أن الجملة في سياق الكلام ليس فيها أدنى ريبة، ولا تحمل أبدًا أدنى إهانة لرسول الله صلى الله عليه وسلم ولا لأم المؤمنين عائشة رضي الله عنها.

السمة الخامسة: الاعتماد في كثير من الأحيان على استدلالات غاية في السماجة والغرابة والشطط، من ذلك –مثلاً– أنه استدل على أن الحسين رضي الله عنه كان محقًا في عدم تنازله عن حقه في الخلافة بقول النبي صلى الله عليه وسلم لعلي رضي الله عنه "**يَا عَلِيُّ، إِنَّ لَكَ كَنزا، وَإِنَّكَ ذُو قَرْنَيْهَا**."[4].

فقال: "الحسن والحسين قرناها –أي: قرنا فاطمة– تنازل مولانا الحسن، فكان لابد ألا يتنازل مولانا الحسين، بتنازل مولانا الحسن علمت الأمة جواز التنازل وترك الحق، ولو تنازل سيدنا الحسين لوجب على كل إنسان من أهل البيت أو من أحبهم أن يتنازل، فلابد إذا عدم تنازل سيدنا الحسين"[5].

أما استدلالاته على أمور اعتقادية كبيرة بأحاديث واهية أو موضوعة فأمر يفوق الحصر، وكما قيل:

وإذا الدعاوى لم تقم بدليلها بالنص فهي على السفاه دليل

---

(1) رواه البخاري(2481)، ومسلم (4977)، والنسائي في الكبرى (8619)، وأحمد في المسند (25055)، وابن حبان في صحيحه (4300)، والطبراني في الكبير (18702)، وعبدالرزاق في المصنف (9534)، وأبويعلى في مسنده (4862)، والآجري في الشريعة (1902)، والبيهقى في الكبرى (18998)"صحيح".

(2) منهاج السنة النبوية(80/7).

(3) انظر: أخطاء (ص79-69).

(4) رواه أحمد في المسند (1322)، والحاكم في المستدرك (4574)، وابن حبان في صحيحه (5686)، والطبراني في الأوسط (690)، وابن أبي شيبة في المصنف (12852)، والبزار في المسند (837)، الطحاوي في مشكل الآثار (1617)، و الهيثمي في مجمع الزوائد (7458)"حسن".

(5) خصوصية بشرية النبي صلى الله عليه وسلم (ص190).

السمة السادسة: الركاكة والتخليط والضعف الظاهر في المعنى والمبني على السواء. وهي ظاهرة عامة في الكتابين، لم تسلم منها حتى عناوين الفصول التي جاءت كلها طويلة وركيكة كأنها موضوعات إنشاء. ومن أكبر مظاهر الركاكة والاضطراب في الكتابين ظاهرة الاعتراضات المزعجة التي يقطع بها السياق بكثرة ملفتة للنظر، وبشكل يشعر بالعجلة وغلبة الغضب، فعلى سبيل المثال تراه – على مدى صفحتين[1] يسوق كلام ابن تيمية عما جري بين أبي بكر وفاطمة رضي الله عنهما، وفي أثناء سرده لكلام ابن تيمية يقطع السياق مرات عديدة بجمل اعتراضية طويلة وركيكة ومحملة بالغضب المفتعل، وهذه بعضها: "لك الله يابضعة رسول الله صلى الله عليه وسلم أنت عند ابن تيمية في حال كونك ظلمت ظلما محضًا فإن غضبك للدنيا، فما بالك يا بضعة رسول الله صلى الله عليه وسلم . أنت عند ابن تيمية. "نقول لك الله يابضعة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، انظر إلى أدب ابن تيمية وألفاظه" "أقول لك الله يا بضعة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ليس والله ابنك الحسين هو فقط المقتول".

أما اضطراب المعنى واختلال المبني فأمر يفوق الوصف، تأمل على سبيل المثال: "وإن لم يكن ذلك اعتقادك، واعتقدت أن إبراهيم وموسى لهم إرادة ونصائح ورد سلام، وعلم بأن الأمة المحمدية لا تستطيع خمسين صلاة وخلافة وأن رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يعلم شيء فأنت بلا ريب والعياذ بالله زنديق"[2].

ويقول: "واعلم أن غالبية وعامة أهل الله يعتقدون أن النبي صلى الله عليه وسلم نور في جسد، والجسد مكون من ماء وتراب وهواء ونار، والجسد تحل فيه الروح التي لا تفارقه إلا عند الموت فالروح كنهها وسرها وعلمها عند ربي، لكنها ليست ماء ولا تراب ولا هواء ولا نار"[3].

وأخيرًا أقول: إن كل هذه المخالفات المنهجية القادحة –برغم كثرتها– لا تعدل شيئا بجانب الادعاءات الظالمة والأحكام الجائرة والأقوال التي تلقى على عواهنها بغير سند ولا دليل، والمحاولات المستميتة لإحياء الخرافة ونفخ الروح فيها.

(1) أخطاء (ص62-63).
(2) أخطاء (ص248).
(3) خصوصية وبشرية النبي صلى الله عليه وسلم (ص167).

الفصل الأول

موقف ابن تيمية من آل بيت النبي رضي الله عنه

لم يستطع أعداء هذه الأمة أن يقفوا في وجه المد الإسلامي المتواصل، ولا أن يوقفوا مسيرة الفتوح الإسلامية المتتابعة، و لم يستطيعوا كذلك أن يجدوا سبلاً إلى تحريف كتاب الله تعالى، ولا أن يحولوا بينه وبين قلوب العباد؛ فانثنوا يكيدون للجماعة وللسنة، يكيدون للجماعة ليقوضوا الأمة ويهدموا بنيانها من الداخل، ويكيدون للسنة ليبطلوا الدين ويحبطوا أثره في حياة الناس؛ وبذلك يكونون قد نجحوا في إيقاف زحف الإسلام على البلاد وغزو القرآن لقلوب العباد.

لذلك قاموا بإشعال الفتن، وفي جوها انطلقوا إلى ما يريدون من التشويش على هدايات القرآن الكريم بعد أن شغلوا الأمة عن جهاد الأعداء بقتال الأولياء.

وبدأت الفتن الكبرى تطحن الجماعة وتهدد السنة، وذلك عندما قتل أمير المؤمنين عثمان بن عفان مظلوماً شهيداً على أيدي الثوار الموتورين، الذين حركهم وخطط لهم عدو هذه الأمة عبد الله بن سبأ. ثم توالت قواصم الفتن على ظهر الأمة، فاقتتل المسلمون في (الجمل) ثم اقتتلوا في (صفين)، وتلا ذلك خروج الخوارج على أمير المؤمنين عليرضي الله عنه وقتلهم له، وظهور الشيعة الذين تشيعوا لعلي وأولاده من بعده.

وقد تداركت رحمة الله تبارك وتعالى هذه الأمة يوم أن قام أمير المؤمنين الحسن بن علي سبط رسول الله صلى الله عليه وسلم بعمله الجليل الذي حفظ الله به الجماعة، حيث تنازل عن الخلافة لمعاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه؛ ليحقق بذلك ما أخبر به النبي صلى الله عليه وسلم حين قال **"ابْنِي هَذَا سَيِّدٌ وَلَعَلَّ اللَّهَ أَنْ يُصْلِحَ بِهِ بَيْنَ فِئَتَيْنِ مِنَ الْمُسْلِمِينَ"**[1].

وبهذا التصرف السديد الرشيد سكنت الفتنة، واجتمعت كلمة الأمة، وفرح المسلمون بهذا

(1) رواه البخاري (3381)، وأبوداود في السنن (4046)، والنسائي في الكبرى (1708)، وأحمد في المسند (19912)، والحاكم في المستدرك (4770)، وابن حبان في صحيحه (7122)، والطبراني في الكبير (2525)، وابن أبي شيبة في المصنف (35620)، ومسند اسحاق بن راهويه (1707)، البزار في مسنده (3111)، الحميدي في مسنده (767)، وأبوداود الطيالسى في مسنده (907)، وابن الجعد في مسنده (2792)، وأبو نعيم في الحلية (1460)، والبيهقى في الكبرى (11070)، وابن السني في عمل اليوم و الليلة (385)"صحيح".

الاجتماع، وسمى العام الحادي والأربعون للهجرة عام الجماعة.وإن كانت خلافة النبوة قد انتهت وبدأت خلافة الملك؛ وذلك مصداق الحديث الذي رواه سفينه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم "**الْخِلافَةُ ثَلاثُونَ سَنَةً ثُمَّ تَكُونُ مُلْكًا**"[(1)].

إلا أن هذا الانحراف الطارئ في أسلوب الحكم لم يحمل الأمة على التضحية بمكاسب الجماعة في سبيل تقويمه، وهذا من فقه السلف الذين ينظرون إلي مآلات الأفعـــال، ويوازنون بدقة بين المصالح والمفاسد في ضوء النصوص الشرعية والمقاصد العامة للتشريع. و لم يكن هذا الاستقرار كاملاً، بل كان نسبياً. فالخوارج الذين قطع أمير المؤمنين علي رأسهم لم تزل ذيولهم وفلولهم تنبض بالحياة، وتتشعب لتكون جيوباً في جسد الدولة الإسلامية، ولقد كانت لهم جولات وصولات باءت جميعها بالفشل و لم تستطع أن تزعزع كيان الجماعة.

وكذلك كان لبعض سادات أهل البيت محاولات استهدفت تصحيح الانحراف الطارىء في اسلوب الحكم والخلافة، كالمحاولة التي قام بها الحسين بن علي رضي الله عنه، عندما نهض لمناجزة الدولة الأموية علي أثر استخلاف معاوية لولده يزيد وتولى الأخير الحكم.

وقد خالفه في هذا الاجتهاد جمهور الصحابة، وحاول ابن عباس وابن عمر وأبو سعيد وغيرهم ردّه؛ حفاظاً عليه وعلي الجماعة، وحقناً لدماء الأمة، ولكنه أصر علي اجتهاده حتى وقع المصاب الكبير الذي أصيبت به الأمة في أبناء رسول الله صلى الله عليه وسلم في كربلاء.

في هذا الجو المتوتر نشأت فرقة الشيعة في مقابلة فرقة الخوارج، وبقدر ما كان خطر الخوارج علي الجماعة شديداً كان خطر الشيعة علي السنة شديداً أيضاً. إلا أن خطر الخوارج كان في طريقه إلى الزوال، وأما خطر الشيعة فكان في طريقه إلي الاستفحال.

والذي أعطاهم هذا النفس الطويل هو الأسلوب النفاقي، مع التترس بعقيدة التقية و التستر بحب آل بيت النبي صلى الله عليه وسلم .

(1) رواه أحمد في المسند (21361)، وابن حبان في الثقات (39)، والطبراني في الكبير (13)، وعبدالله بن أحمد في السنة (1271)، وابن أبي عاصم في الآحاد والمثاني (111)، واسحاق بن راهويه في مسنده (1749)، الخطيب التبريزي في مشكاة المصابيح (5395) والطحاوي في مشكل الآثار (2845)، "إسناده حسن".

وانتشرت في تلك الأجواء الملبدة بالغيوم أقوال متعارضة فالخوارج يكفرون علياً رضي الله عنه، والنواصب المتعصبون للدولة الأموية الموالون لحكامها يتنقصون علياً وبنيه وذويه، ويناصبون آل بيت الرسول صلى الله عليه وسلم العداء. والروافض من الشيعة يتعصبون لآل البيت يغلون فيهم غلواً فاحشاً ويطعنون في الصحابة ويشككون في خلافة أبي بكر وعمر وعثمان رضي الله عنهم، ويعتقدون أن الخلافة منصوص عليها في اثني عشر إماماً من آل البيت.

وواكب هذا الخوض خوض في ما جرى بين الصحابة في الجمل وصفين، وفيما جرى في كربلاء، وتناثرت أقوال غير منضبطة فيها تجريح للسلف الصالح رضوان الله عليهم وعلى رأسهم الصحابة والقرابة.

وهنا جاء دور العلماء الربانيين، والذين ينفون عن دين الله تحريف الغالين وانتحال المبطلين وتأويل الجاهلين، فدعوا الناس إلى ترك الخوض فيما جرى بين الصحابة؛ إذ كانوا جميعاً أهل فضل وعدل، وقد اجتهدوا في جو الفتنة، فمن كان أصاب منهم فله أجران، ومن كان أخطأ فله أجر، والجميع في الموقف مرحومون. ودعوا كذلك إلى التمسك بالجماعة والسمع والطاعة للأئمة مالم يأمروا بمعصية، وعدم الخروج عليهم ما لم يروا منهم كفراً بواحاً عندهم فيه من الله برهان.

وكانوا لا يسألون عن الإسناد قبل وقوع الفتنة؛ إذ كان أمر الناس على السداد، فلما وقعت الفتنة قالوا سموا لنا رجالكم، فشهد عصر الفتنة ميلاد الإسناد قبل فقد الحلقة الأولى منه –ورب ضارة نافعة – واعتنوا عناية كبيرة بسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ إذ هي صنو الكتاب في الربانية والحجية والبلاغ، وهي الشارحة له المبينة لمبهمه المفصلة لمجمله.

ثم أخذوا يقررون عقيدة أهل السنة والجماعة في الصحابة على النحو التالي:

أولاً: الصحابة كلهم عدول، وهم خير الأمة وخير القرون، وهم حواريو رسول الله صلى الله عليه وسلم الذين كانوا حوله على هذه الحالة الشريفة التي وصفها القرآن الكريم: ﴿ **مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّـهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّـهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ**

أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَ اللَّـهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴾ [الفتح: ٢٩] وهذا الوصف لجميع الصحابة عند الجمهور[1]. وقد شهد القرآن الكريم لهم بالجنة، قال تعالى: ﴿ **وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّـهِ وَلِلَّـهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا يَسْتَوِي مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ أُولَـٰئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ الَّذِينَ أَنفَقُوا مِن بَعْدُ وَقَاتَلُوا وَكُلًّا وَعَدَ اللَّـهُ الْحُسْنَىٰ وَاللَّـهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ** ﴾ [الحديد:10].

وقوله تعالى: ﴿ **وَكُلًّا وَعَدَ اللَّـهُ الْحُسْنَىٰ** ﴾ شهادة بأنهم جميعاً في الجنة[2]. وكذلك شهد القرآن لهم برضوان الله وجنته، فقال:﴿ **وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُم بِإِحْسَانٍ رَّضِيَ اللَّـهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ** ﴾ [التوبة:100] وكذلك شهدت لهم السنة المطهرة بأنهم خير القرون، يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : "**خَيْرُ النَّاسِ قَرْنِي، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ**،.." الحديث[3].

ويقول – ناهياً عن سب الصحابة، مبيناً فضلهم على من بعدهم– :" **لاَ تَسُبُّوا أَصْحَابِي فَلَوْ أَنَّ أَحَدَكُمْ أَنْفَقَ مِثْلَ أُحُدٍ ذَهَبًا مَا بَلَغَ مُدَّ أَحَدِهِمْ وَلاَ نَصِيفَهُ**"[4].

فلا يجوز الطعن على صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم "فمن سبهم وأبغضهم وحمل ما

---

(1) زاد المسير لابن الجوزي (204/4).

(2) انظر الفصل في الملل والنحل لابن حزم(148/4-149).

(3) رواه البخاري(2802)، ومسلم (4554)، وأبو داود في السنن (2283)، والترمذي في السنن (3247)، والنسائي في الكبرى (8102)، أحمد في المسند (806)، والحاكم في المستدرك (7041)، وابن حبان في صحيحه (4903)، والطبراني في الأوسط (674)، وابن أبي شيبة في المصنف (30673)، وأبو يعلى فى مسنده (386)، الحميدي في مسنده (49)، و الطحاوي في مشكل الآثار (3815)، والآجري في اليعة (1479) والبيهقى في الكبرى (17019)"صحيح".

(4) رواه البخاري (3421)، ومسلم (4614)، وأبوداود في السنن (4042)، والترمذي في السنن (3826)، والنسائي في الكبرى (7997)، وابن ماجة في السنن (157)، وأحمد في المسند (10870)، وابن حبان في صحيحه (7410)، والطبراني في الأوسط (703)، وابن أبي شيبة في المصنف (30731)، وابن أبي عاصم في السنة (822)، وأبويعلى في مسنده (1185)، وأبوداود الطيالسي في مسنده (2284)، وابن الجعد في مسنده (654)، والآجري في الشريعة (1978)، والبيهقى في الكبرى (19322)"صحيح".

كان من تأويلهم وحروبهم على غير الجميل الحسن فهو العادل عن أمر الله تعالى وتأديبه ووصيته فيهم، ولا يبسط لسانه فيهم إلا من سوء طويته في النبي صلى الله عليه وسلم وصحابته والإسلام والمسلمين".

وقال ابن عباس رضي الله عنه "لا تسبوا أصحاب محمد فلمقام أحدهم ساعة خير من عمل أحدكم أربعين سنة"[(1)] ذلك لأن "فضيلة الصحبة ولو لحظه لا يوازيها عمل، ولا تنال درجتها بشيء والفضائل لا تؤخذ بالقياس، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء"[(2)].

ثانياً: أن أفضل الصحابة وأولاهم بالإمامة هم -علي الترتيب- أبو بكر ثم عمر ثم عثمان ثم على رضي الله عنهم.وأنَّ خلافتهم وإمامتهم حق، وأن آخرهم على رضي الله عنه، ومن قدمه على أبي بكر وعمر فقد أزرى على المهاجرين والأنصار واثنى عشر ألفاً من أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم -كما قال عمار بن ياسر رضي الله عنه-[(3)] ومن قدمه على عثمان فهو مبتدع صاحب قول سوء -كما قال الإمام أحمد رحمه الله، والآثار في ذلك عن السلف كثيرة.

ويليهم في الفضل باقي العشرة المبشرين بالجنة، ثم البدريون الذين قال فيهم رسول الله صلى الله عليه وسلم **"وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ اللَّهَ أَنْ يَكُونَ قَدِ اطَّلَعَ عَلَى أَهْلِ بَدْرٍ، فَقَالَ: اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ فَقَدْ غَفَرْتُ لَكُمْ "**[(4)].

ثم أهل بيعة الرضوان الذين قال الله تعالى فيهم:﴿ **لَّقَدْ رَضِيَ اللَّـهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ** ﴾[الفتح: 18] ثم سائر من أنفق من قبل الفتح وقاتل ثم من تلاهم.

ثالثاً: أهل بيت النبى صلى الله عليه وسلم من سادات الناس ولهم فضائل ومناقب سبقوا فيها كثيراً من الخلق، ولهم على الأمة واجب الحب والموالاة والمناصرة، والمراد بهم -فى القول الصحيح- من

(1) شرح أصول الإعتقاد أهل السنة للالكائى (380/1).

(2) المعجم الأوسط للطبرانى (823).

(3) السنة للخلال (380/2).

(4) رواه البخاري(2802)، والنسائي في الكبرى (8102)، وأحمد في المسند (586)، والحاكم في المستدرك (4610)، وابن حبان في صحيحه (6638)، وابن أبي شيبة في المصنف (30673)، وأبويعلى في مسنده (2236)، الحميدي في مسنده (49)، والطحاوي في مشكل الآثار (3818)"صحيح".

تحرم عليهم الصدقة وهم أزواجه وذريته وكل مسلم ومسلمة من نسل عبدالمطلب والدليل على دخول زوجاته في آله قول الله تعالى ﴿ **وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَىٰ وَأَقِمْنَ الصَّلَاةَ وَآتِينَ الزَّكَاةَ وَأَطِعْنَ اللَّـهَ وَرَسُولَهُ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّـهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا** ﴾[الأحزاب: 33] و يدل على ذلك أيضا أنهن يعطين من الخمس ولا يعطين من الصدقة وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "**إِنَّ الصَّدَقَةَ لا تَحِلُّ لِمُحَمَّدٍ وَلا لأَهْلِ بَيْتِهِ**"[(1)].

وقد روى ابن أبي شيبة عن ابن أبي مليكة: "أَنَّ خَالِداَ بْنَ سَعِيدٍ، بَعَثَ إِلَى عَائِشَةَ بِبَقَرَةٍ مِنْ الصَّدَقَةِ، فَرَدَّتْهَا، وَقَالَتْ: "**إِنَّا آلَ مُحَمَّدٍ** صلى الله عليه وسلم **لاَ تَحِلُّ لَنَا الصَّدَقَةُ**"[(2)].

ويدل لدخول أعمامه في أهل بيته ما أخرجه مسلم عن عبدالمطلب بن ربيعة بن الحارث بن عبدالمطلب أنه ذهب هو والفضل بن العباس إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم يطلبان أن يوليهما على الصدقة ليصيبان من مال ما يتزوجان به فقال لهما رسول الله صلى الله عليه وسلم :"**إِنَّ الصَّدَقَةَ لاَ تَنْبَغِي لآلِ مُحَمَّدٍ، إِنَّمَا هِيَ أَوْسَاخُ النَّاسِ" ثم أمر بتزويجهما وإصداقهما من الخمس**"[(3)].

وإن أخص من يدخل في أهل بيت النبي صلى الله عليه وسلم على وفاطمة والحسن والحسين؛ لما في صحيح مسلم عن عائشة رضي الله عنها قالت: "**خَرَجَ النَّبِيُّ** صلى الله عليه وسلم **غَدَاةً، وَعَلَيْهِ مِرْطٌ مُرَحَّلٌ مِنْ شَعْرٍ أَسْوَدَ، فَجَاءَ الْحَسَنُ بْنُ عَلِيٍّ، فَأَدْخَلَهُ، ثُمَّ جَاءَ الْحُسَيْنُ فَدَخَلَ مَعَهُ، ثُمَّ جَاءَتْ فَاطِمَةُ فَأَدْخَلَهَا، ثُمَّ جَاءَ عَلِيٌّ فَأَدْخَلَهُ، ثُمَّ قَالَ:﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّـهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ**

---

(1) رواه الحاكم في المستدرك (1381)، وابن حبان في صحيحه (6700)، والطبراني في الكبير (13597)، وابن أبي شيبة في المصنف (34891)، والبيهقى في الكبرى (6730)"إسناده ضعيف".

(2) رواه أحمد في المسند (1659)، والطبراني في الكبير (2644)، وابن أبي شيبة في المصنف (10336)، وابن خزيمه في صحيحه (2196)، وابن أبي عاصم في الآحاد والمثاني (434)، والبزار في مسنده (1216)، وأبوعوانة في مسنده (2088)، وأبوداود الطيالسى في مسنده (1261)، والطحاوي في شرح معانى الآثار (3499)، والبوصيري في إتحاف الخيرة المهره بزوائد المسانيد العشرة (2374) "صحيح".

(3) رواه مسلم (1788)، وأبوداود في السنن (2596)، وأحمد في المسند (17179)، وابن حبان في صحيحه (4624)، وابن خزيمه في صحيحه (2192)، وأبوعوانة في مسنده (2087)، والطحاوي في شرح معانىالآثار (1905)، والبيهقى في الكبرى (2632)"صحيح".

الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾[1].

وعن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه قال: "وَلَمَّا نـــزَلَتْ هَذِهِ الآيَةُ ﴿ **نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ** ﴾، دَعَا رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم عَلِيًّا، وَفَاطِمَةَ، وَحَسَنًا، وَحُسَيْنًا، فَقَالَ: "**اللَّهُمَّ هَؤُلاَءِ أَهْلِي**"[2].

فهؤلاء الأخيار قرابة النبي صلى الله عليه وسلم لهم فضل ومنـــزلة؛ لقول الله عز وجل : ﴿ **إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّـــهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا** ﴾[الأحزاب: 33] ولقول رسول الله صلى الله عليه وسلم "**إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى كِنَانَةَ مِنْ وَلَدِ إِسْمَاعِيلَ، وَاصْطَفَى قُرَيْشًا مِنْ كِنَانَةَ، وَاصْطَفَى مِنْ قُرَيْشٍ بَنِي هَاشِمٍ**"[3].

ويجب على الأمة حبهم ورعاية حقوقهم وفاءً لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، وعملاً بقوله يوم غدير خُم "**أُذَكِّرُكُمُ اللَّهَ فِي أَهْلِ بَيْتِي**"[4]، ولا يجوز لأحد أن يسبهم ولا أن يطعن فيهم ولا أن يستحل حرمتهم؛ لما رواه علي رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "**لَعَنْتُ سَبْعَةً فَلَعَنَهُمُ اللَّهُ تَعَالَى، وَكُلُّ نَبِيٍّ مُجَابُ الدَّعْوَةِ: "وفيهم "وَالْمُسْتَحِلُّ من عترتي مَا حَرَّمَ اللَّهُ**"[5].

وقد عرف السلف لهم هذا الفضل، فهذا أبو بكر رضي الله عنه يقول لعلي رضي الله عنه

---

(1) رواه مسلم (4454)، والحاكم في المستدرك (4664)، وابن أبي شيبة في المصنف (30431)، والبيهقي في الكبرى (2631)"صحيح".

(2) رواه مسلم (4424)، والترمذي في السنن (2945)، وأحمد في المسند (1544)، والحاكم في المستدرك (4676)، والبيهقي في الكبرى (12447)"صحيح".

(3) رواه مسلم (4225)، والترمذي في السنن (3569)، وابن حبان في صحيحه (6377)، والبيهقي في دلائل النبوة (90)"صحيح".

(4) رواه البخاري()، ومسلم (4429)، والنسائي في الكبرى (7869)، والدرامي في السنن (3221)، أحمد في المسند (18843)، والطبراني في الكبير (4883)، وابن خزيمه في صحيحه (2200)، وابن أبي عاصم في السنة (1330)، والبيهقي في الكبرى (2630)"صحيح".

(5) رواه ابن الجوزي في العلل المتناهية (215)، والألباني في السلسلة الضعيفة (3689)"ضعيف".

"**وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَقَرَابَةُ رَسُولِ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم أَحَبُّ إِلَيَّ أَنْ أَصِلَ مِنْ قَرَابَتِي**"[1].

وهذا عمر بن الخطاب رضي الله عنه يتقدم لخطبة أم كلثوم بنت علي؛ لحديث "**كُلُّ سَبَبٍ وَنَسَبٍ مُنْقَطِعٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إلا سَبَبِي ونَسَبِي**"[2].

ولكن في المقابل لا يجوز الغلو فيهم، ولا اعتقاد أن الإمامة محصورة فيهم، ولا تكفير من خالفهم، كما فعلت الروافض.

رابعاً: أن بني أمية دون آل البيت في الفضل، وأن علياً فوق معاوية في القدر والمنـــزلة، وهو أولى بالحق منه وأجدر بالإمامة منه، ولكن مع ذلك لا ننقص معاوية قدره، فهو خال المؤمنين، وأحد كتاب الوحى، وقد جمع عمر له الشامات كلها لما رأى من حسن سيرته[3].

وقد شهد بخلافته في حديث أم حرام أن ناساً من أمته يركبون ثبج البحر الأخضر ملوكاً على أسرة، وكان ذلك في ولايته[4]، فكانت خلافته ملك رحمة وعدل.

هذه هي عقيدة أهل السنة والجماعة في صحابة النبي صلى الله عليه وسلم وآل بيته، وهي الحق والعدل والوسط بين الأطراف المتناقضة التي قامت إما على الغلو والإفراط وإما على الجفاء والتفريط.

هذه المقدمة أردت أن تكون توطئة لموضوع هذا الفصل، وهو موقف ابن تيمية من آل البيت، وقد تحدثت فيها عن عقيدة أهل السنة في الصحابة وآل البيت؛ لأنهما صنوان لا يفترقان، ولأن الشيعة الذين غلو في آل البيت طعنوا في الصحابة الكرام. وهو الأمر الذي دعا العلماء –وعلى رأسهم شيخ الإسلام –للرد عليهم وتفنيد أقوالهم.

وقد اتهم المؤلف شيخ الإسلام بتنقيص آل البيت، وبأنه يحمل ضغناً على علي وفاطمة وذريتهما؛ وهو اتهام غريب، والحقيقة أن من طالع كتب شيخ الإسلام لن يجد فيها إلا التكريم

---

(1) رواه البخاري(3459)، ومسلم (3307)، أحمد في المسند (52)، (4931)، والطبراني في مسند الشاميين(3040)، وعبدالرزاق في المصنف (9575)، وأبوعوانة في مسنده (5268)، والبيهقى في الكبرى (11845)"صحيح".

(2) رواه الطبراني في الكبير (2566)، وعبدالرزاق في المصنف (10106)، وأبو نعيم في الحلية (1457)، والبيهقى في الكبرى (12449) "صحيح".

(3) العواصم من القواصم (ص203).

(4) العواصم من القواصم (ص205).

والتبجيل للصحابة وآل البيت، ولن يجد ابن تيمية إلا أفضل الضابطين المقررين المنظرين لعقيدة أهل السنة في الصحابة والقرابة.

وقبل أن أرد على المؤلف فيما زعمه على شيخ الإسلام، أسوق للقارئ هذه النصوص المتفرقة من كلام شيخ الإسلام، والتي قرر فيها عقيدة أهل السنة في آل بيت النبى صلى الله عليه وسلم ؛ للتأكيد على أنه ناطق بالصدق وقائل بالحق وناهج منهج الوسط والاعتدال في هذه المسألة الخطيرة.

ومن الجدير بالذكر أن النصوص التي سنوردها الآن من كلام ابن تيمية لم يذكر المؤلف منها شيئاً، ولم يتعرض لشيء منها؛ لأنه- فيما يبدو-آثر أن يتتبع المتشابه من كلامه، بعد أن يحتزه من السياق بأسلوب أبعد ما يكون عن المنهجية العلمية.

وها هي نماذج من كلام شيخ الإسلام، تعد أكبر شاهد على براءته مما اتهمه به المؤلف وأضرابه:

يقول ررحمه الله في مجموع الفتاوى: "ولهذا اتفق أهل السنة والجماعة على رعاية حقوق الصحابة والقرابة، وتبرءوا من الناصبة الذين يكفرون علياً بن أبي طالب ويفسقونه، ويتنقصون بحرمه آل البيت، ومثل من كان يعاديهم علي الملك أو يعرض عن حقوقهم الواجبة أو يغلو في تعظيم يزيد بن معاوية بغير حق.

وتبرأوا من الرافضة الذين يطعنون على الصحابة "[1].

وبصدد شرحه لأصول أهل السنة يقول: "ويحبون أهل بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم ويتولونهم، ويحفظون فيهم وصية رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم غدير خُم "**أُذَكِّرُكُمُ اللَّهَ فِي أَهْلِ بَيْتِي**"[2].

وقال أيضاً للعباس عمه -وقد اشتكى إليه أن بعض قريش يجفو بني هاشم -فقال: "**لا يَبْلُغُوا**

(1) مجموع فتاوى ابن تيمية(492/28).
(2) سبق تخريجه(ص20) "صحيح".

الْخَيْرَ أَوْ قَالَ: الإِيمَانَ، حَتَّى يُحِبُّوكُمْ لِلَّهِ وَلِقَرَابَتِي"[1].

وقال: "**إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى كِنَانَةَ مِنْ وَلَدِ إِسْمَاعِيلَ، وَاصْطَفَى قُرَيْشًا مِنْ كِنَانَةَ، وَاصْطَفَى مِنْ قُرَيْشٍ بَنِي هَاشِمٍ، وَاصْطَفَانِي مِنْ بَنِي هَاشِمٍ**"[2].

ويتولون أزواج رسول الله صلى الله عليه وسلم أمهات المؤمنين، ويؤمنون بأهن أزواجه في الآخرة، خصوصاً خديجة رضي الله عنها أم أكثر أولاده، وأول من آمن به وعاضده على أمره وكان لها منه المنـــزلة العالية، والصديقة بنت الصديق رضي الله عنهما التي قال النبي صلى الله عليه وسلم فيها: "**فَضْلُ عَائِشَةَ عَلَى النِّسَاءِ، كَفَضْلِ الثَّرِيدِ عَلَى الطَّعَامِ**"[3].

ويتبرأون من طريقة الروافض الذين يبغضون الصحابة ويسبوهم، ومن طريقة النواصب الذين يؤذون أهل البيت بقول أو عمل، ويمسكون عما شجر بين الصحابة[4].

ويقول في منهاج السنة :"وأما أهل السنة فيقولون ويتكلمون بعدل وعلم، وليسوا من أهل الجهل ولا من أهل الأهواء، ويتبرأون من طريقة الروافض والنواصب جميعاً ويعرفون قدر الصحابة وفضلهم ومناقبهم ويرعون حقوق أهل البيت"[5].

وقال مثنياً على آل البيت :"ولما بين سبحانه أنه يريد أن يذهب الرجس عن أهل بيته ويطهرهم

---

(1) رواه ابن أبي شيبة في المصنف (30542)، والطبراني في الكبير (12070)، وفضائل الصحابة (1554)، والمتقي الهندي في كنـــز العمال (33908)، و ابن البختري في الجزء الحادي عشر من فوائده (75)، والخطيب البغدادي في تاريخ بغداد (616)، وابن عساكر في تاريخ دمشق (10262)، وابن شبة النميري في تاريخ المدينة (974) "إسناده حسن".

(2) رواه مسلم (2276)، والترمذي (3605)، وأحمد في المسند (17027)، وابن حبان في صحيحه(6333)، والطبراني في الكبير(161)، و أبو يعلى في مسنده (7485)، وابن أبي شيبة في مصنفه (31731)، و البيهقي في الكبرى (13542)"صحيح".

(3) رواه البخاري(3183)، ومسلم (4463)، والترمذي في السنن (3852)، والنسائي في الكبرى (6462)، وابن ماجة في السنن (3279)، والدرامي في السنن (2007)، أحمد في المسند (12358)، والحاكم في المستدرك (6536)، وابن حبان في صحيحه (7268)، والطبراني في الكبير (18676)، وابن أبي شيبة في المصنف (30610)، وإسحاق ابن راهويه في مسنده (939)، وأبويعلى في مسنده (3623)، والطحاوي في مشكل الآثار (133)، وأبو نعيم في الحلية (13318)، والبيهقى في الشعب (5620)، "صحيح".

(4) مجموع الفتاوى (154/3).

(5) منهاج السنة النبوية(71/2).

تطهيراً دعا النبي صلى الله عليه وسلم أقرب أهل بيته وأعظمهم اختصاصاً به، وهم علي وفاطمة رضي الله عنها، وسيدي شباب أهل الجنة، فجمع الله لهم بين أن قضى لهم بالتطهير، وبين أن قضى لهم بكمال دعاء النبي صلى الله عليه وسلم "[1].

ويقول مبيناً قدر علي رضي الله عنه وأحقيته بالإمامة :"وكتب أهل السنة من جميع الطوائف مملوءة بذكر فضائله ومناقبه، وبذم الذين يظلمونه من جميع الفرق، وهم ينكرون علي من سبه، كارهون لذلك. وما جرى من التساب والتلاعن بين العسكرين من جنس ما جرى من القتال، وأهل السنة من أشد الناس بغضاً وكراهة لأن يتعرض له بقتال أو سبّ، بل هم كلهم متفقون على أنه أجل قدراً وأحق بالإمامة وأفضل عند الله وعند رسوله من معاوية رضي الله عنه وأبيه وأخيه "[2].

وفي مجموع الفتاوى يدلل على أحقية علي بالإمامة، ويرد على من يزعم خلاف ذلك، فيقول :"ولا ريب أن هذه النصوص لابد من الجمع بينها والتأليف، فيقال: أما قوله **"لاَ يَزَالُ أَهْلُ الْغَرْبِ ظَاهِرِينَ"**[3] ونحو ذلك مما يدل على ظهور أهل الشام وانتصارهم فهكذا وقع، وهذا هو الأمر، فإنهم ما زالوا ظاهرين منتصرين، وأما قوله صلى الله عليه وسلم **"لاَ تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي قَائِمَةً بِأَمْرِ اللَّهِ"**[4] فلا يقتضي أن لا يكون فيهم من فيه بغي ومن غيره أولى بالحق منه، بل فيهم هذا وهذا.وأما قوله **"تَقْتُلُهُمْ أَوْلَى الطَّائِفَتَيْنِ بِالْحَقِّ"** فهذا دليل على أن علياً ومن معه كان أولى بالحق إذ ذاك من الطائفة الأخرى."[5].

(1) حقوق آل البيت (ص72).
(2) منهاج السنة النبوية (395/4).
(3) رواه مسلم (3555)، والبزار في مسنده (1116)، وأبويعلى في مسنده (774)"صحيح".
(4) رواه مسلم (3552)، أحمد في المسند (16595)، والطبراني في مسند الشاميين(542)، وأبوعوانة في مسنده (5927)، والبيهقى في معرفة السنن و الأثار (56)"صحيح".
(5) مجموع الفتاوى (447/4-448).

ويقول –حول نفس الموضوع– في منهاج السنة: "وعليّ ومن معه أولى بالحق من معاوية وأصحابه، كما ثبت عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال "**تَمْرُقُ مَارِقَةٌ فِي فُرْقَةٍ مِنْ النَّاسِ فَيَلِي قَتْلَهُمْ أَوْلَى الطَّائِفَتَيْنِ بِالْحَقِّ**"[(1)] فدل هذا الحديث على أن علياً أولى بالحق ممن قاتله"[(2)].

ويقول عن الحسين سبط رسول الله صلى الله عليه وسلم : "ومن ذلك أن اليوم الذي هو يوم عاشوراء، الذي أكرم الله فيه سبط رسوله وأحد سيدي شباب أهل الجنة بالشهادة على أيدي من قتله من الفجرة الأشقياء، وكان ذلك مصيبة من أعظم المصائب التي وقعت في الإسلام وقد روى الإمام أحمد وغيره عن فاطمة بنت الحسين – وقد كانت قد شهدت مصرع أبيها – عن أبيها الحسين عن علي رضي الله عنه عن جده رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: (ما من رجل يصاب بمصيبة فيذكر مصيبته وإن قدمت، فيحدث لها استرجاعاً إلا أعطاه الله من الأجر مثل أجره يوم أصيب) فقد علم الله أن مثل هذه المصيبة سيتجدد ذكرها مع تقادم العهد، فكان من محاسن الإسلام أن روى هذا الحديث صاحب المصيبة والمصاب بها ولا ريب أن ذلك إنما فعله الله كرامة للحسين رضي الله عنه ورفعاً لدرجته ومنـــزلته عند الله، وتبليغاً له منازل الشهداء، وإلحاقاً له بأهل بيته الذين ابتلوا بأصناف البلاء"[(3)].

ولم يقف ثناء ابن تيمية رحمه الله على آل بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم عند هذا الحد، حتى امتد ليشمل كثيراً من سادات آل البيت من ذرية فاطمة رضي الله عنها في الأجيال المتأخرة.وهم الذين شهد لهم أهل السنة والجماعة بالفضل والعدل وعلو القدر.

وهذه أمثلة من أقواله التي تفيض بها كتبه:

"وأما علياً بن الحسين فمن كبار التابعين، وسادا‌تهم علماً وديناً، وأخذ عن أبيه وابن عباس وروى عنه أبو سلمة بن عبد الرحمن ويحيى بن سعيد الأنصاري والزهري وله من الخشوع وصدقة السر وغير

---

(1) رواه مسلم (1064)، و سنن أبي داود (4667)، والنسائي في الكبرى (8557)، وأحمد في المسند (11293)، وأبو يعلى في مسنده (1246)"صحيح".

(2) منهاج السنة النبوية(57/7).

(4) حقوق آل البيت(ص44-45).

ذلك من الفضائل ما هو معروف"[1].

"وجعفر الصادق رضي الله عنه من خيار أهل العلم والدين وقال عمرو بن المقدم: كنت إذا نظرت إلى جعفر بن محمد علمت أنه من سلالة النبيين"[2].

"فالآفة وقعت من الكذابين عليه لا منه، ولهذا نسب إليه أنواع من الأكاذيب مثل كتاب البطاقة. حتى نقل عنه أبو عبدالرحمن في (حقائق التفسير) من الأكاذيب ما نـــزه الله جعفراً عنه.وحتى أن طائفة من الناس يظنون أن رسائل إخوان الصفا مأخوذة منه، وهذا من الكذب المعلوم، فإن جعفراً توفى سنة ثمان وأربعون ومائة، وهذه الرسائل وضعت بعد ذلك بنحو مائتي سنة"[3].

"وكذلك أبو جعفر محمد بن علي من خيار أهل العلم والدين وأما كونه أعلم أهل زمانه فهذا يحتاج إلى دليل، والزهري من أقرانه وهو عند الناس أعلم منه"[4].

و لم يكتف ابن تيمية رحمه الله بتقرير عقيدة أهل السنة في آل البيت والثناء والترحم عليهم، وإنما هب للذب عنهم، ورد المطاعن التي وجهت إليهم ظلماً وعدواناً.

فيقول في منهاج السنة: "وتولى عليٌّ على أثر ذلك والفتنة قائمة، وهو عند كثير من الناس متلطخ بدم عثمان، والله يعلم براءته مما نسبه إليه الكاذبون عليه المبغضون له، وكذلك براءته مما نسبه إليه الغالون فيه المبغضون لغيره من الصحابة، فإن علياً لم يعن على قتل عثمان ولا رضي به كما ثبت عنه وهو الصادق."[5] ويقول في مجموع الفتاوى :"وهؤلاء الذين نصبوا العداوة لعلي ومن والاه، وهم الذين استحلوا قتله وجعلوه كافراً، وقتله أحد رؤوسهم عبدالرحمن بن ملجم المرداي، فهؤلاء النواصب الخوارج المارقون "[6].

وفي موضوع آخر من منهاج السنة يقول :"ومعلوم أن شر الذين يبغضونه هم الخوارج الذين

---

(1) منهاج السنة النبوية(49/4).

(2) السابق(52/4).

(3) السابق (54/4).

(4) السابق(50/4-51).

(5) السابق (452/7).

(6) مجموع الفتاوى(468/3).

كفروه واعتقدوا أنه مرتد عن الإسلام واستحلوا قتله تقرباً إلى الله تعالى، حتى قال شاعرهم عمران بن حطان :

يا ضربة من تقـــي ما أراد بهـــــا إلا ليبلغ من ذي العرش رضوانا

إني لأذكـــــره حينـــاً فأحســـبه أوفى البريـــة عنـــد الله ميزانـــاً

فعارضه شاعر أهل السنة فقال:

يا ضربة مـــن شقي ما أراد بها إلا ليبلغ من ذي العرش خسراناً

إني لأذكــــره حينـــاً فألعنـــه لعنا وألعن عمران بن حطاناً"[1]

وكما انتصب ابن تيمية للدفاع عن آل البيت ضد الخوارج والنواصب، انتصب كذلك للدفاع عنهم ضد الشيعة الذين ألصقوا بهم من التهم والمناكر الكثير والكثير بسبب غلوهم وجدلهم واتباعهم للهوى فمن ذلك –مثلاً –قوله:"والرافضة تجعل هذا من أصول دينها وتسميه التقية، وتحكي هذا عن أئمة أهل البيت الذين برأهم الله من ذلك، حتى يحكوا عن جعفر الصادق أنه قال: التقية ديني ودين آبائي وقد نـــزه الله المؤمنين من أهل البيت وغيرهم عن ذلك، بل كانوا من أعظم الناس صدقاً وتحقيقاً للإيمان، وكان دينهم التقوى لا التقية"[2] وقوله في منهاج السنة "من المصائب التي ابتلى بها ولد الحسين انتساب الرافضة إليهم، وتعظيمهم ومدحهم لهم؛ فإنهم يمدحونهم بما ليس بمدح، ويدعون لهم دعاوى لا حجة لها، ويذكرون من الكلام ما لو لم يعرف فضلهم من غير كلام الرافضة لكان ما تذكره الرافضة أشبه بالقدح منه بالمدح"[3] ولما وجد ابن تيمية رحمه الله أن حق آل البيت سيضيع بين الغالين والجافين طفق يحرر موقفهم تحريراً دقيقاً، وينفض عنهم ما يغبش صورتهم من إفراط الغالين وتفريط الجافين. وينـــزههم عن مدح الروافض وقدح النواصب.فمن ذلك –مثلاً– قوله في منهاج السنة: "ولهذا كان في علي رضي الله عنه شيه من المسيح :قوم غلو فيه فوق قدره، وقوم

(1)منهاج السنة النبوية (10/5).
(2) مجموع الفتاوي (46/2).
(3) منهاج السنة النبوية (55/4).

نقصوه دون قدره، فهم كاليهود"[1].

وقوله في مجموع الفتاوى: "وأهل الكوفة فيهم طائفتان، طائفة رافضة يظهرون موالاة أهل البيت، وهم في الباطن إما ملاحدة زنادقة وإما جهال أصحاب هوى، وطائفة ناصبة تبغض علياً وأصحابه لما جرى من القتال في الفتنة ما جرى، وقد ثبت في صحيح مسلم عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال **"إِنَّ فِي ثَقِيفٍ كَذَّابًا، وَمُبِيرًا"**[2].

فكان الكذاب هو المختار بن أبي عبيد الثقفي، وكان يظهر موالاة أهل البيت والانتصار لهم ثم إنه أظهر الكذب وادعى النبوة وأن جبريل ينـــزل عليه.وأما المبير فهو الحجاج بن يوسف الثقفي، وكان منحرفاً عن علي وأصحابه، فكان هذا من النواصب، والأول من الخوارج"[3].

وكذلك قوله عن اختلاف الناس في مقتل الحسين: "وصار الناس في مقتل الحسين رضي الله عنه طرفين ووسط، أحد الطرفين يقول: أنه قتل بحق؛ فإنه أراد أن يشق عصا المسلمين ويفرق جماعتهم.. والطرف الثاني قالوا بل كان هو الإمام الواجب طاعته والذي لا ينفذ أمر من أمور الإيمان إلا به ولا تصلي جماعة ولا جمعة إلا خلف من يوليه ولا يجاهد عدو إلا بإذنه ونحو ذلك، أما الوسط فهم أهل السنة الذين لا يقولون لا هذا ولا هذا، بل يقولون: قتل مظلوماً شهيداً و لم يكن متولياً لأمر الأمة"[4].

وأيضاً قوله عن نفس القضية "وصار الشيطان بسبب قتل الحسين يحدث للناس بدعتين: بدعة الحزن والنوح يوم عاشوراء من اللطم والصراخ والبكاء.وكذلك بدعة السرور والفرح. وكانت الكوفة بها قوم من الشيعة المنتصرين للحسين وكان رأسهم المختار بن أبي عبيد الثقفي الكذاب، وقوم من الناصبة المبغضين لعلي رضي الله عنه وأولاده ومنهم الحجاج بن يوسف الثقفي. وأحدث أولئك الحزن، وأحدث أولئك السرور"[5].

---

(1) السابق (19/4).

(2) رواه مسلم (4621)، والحاكم في المستدرك (6383)، والطبراني في الكبير (19799)، وأبوداود الطيالسى في مسنده (1735)، والبيهقى في دلائل النبوة (2831)"صحيح".

(3) مجموع الفتاوى(25/300-301).

(4) منهاج السنة النبوية (4/553-554).

(5) السابق (4/544-555).

هذه النماذج المتفرقة من كلام شيخ الإسلام شاهدة على ضبطه الدقيق للمسألة وتعظيمه الشديد لآل بيت النبي صلى الله عليه وسلم ومن أراد المزيد فليراجع كتب شيخ الإسلام وبخاصة كتابه القيم (منهاج السنة).

ولا يملك أي دارس منصف -إذا طالع كلام شيخ الإسلام في منهاج السنة وغيره عن آل بيت النبي صلى الله عليه وسلم - إلا أن يسلم بأنه أفضل من تكلم في حقهم بكلام عدل وسط لا غلو فيه ولا جفاء، وبأن ردوده على الروافض والنواصب كانت ردوداً علمية غاية في الدقة والإتقان، وبأنه استطاع بحسن عرضه وجمال أسلوبه ووفرة أدلته أن يبلغ بالمسألة مبلغاً لا يدع مجالاً للزيادة عليه.

لذلك كان عجيباً وغريباً ومدهشاً ذلك الموقف الذي وقفه المؤلف من كلام شيخ الإسلام، وكان مزعجاً ومستهجناً ومثيراً للاشمئزاز ذلك الكتاب الذي حوى بين دفتيه حشداً هائلاً من المهاترات والمغالطات، وكان مقيتاً ومملولاً وممجوجاً ذلك العمل الذي قام به سيادة الدكتور في نقده لابن تيمية والذي عنون له بذلك العنوان الناشز الشاذ: (أخطاء ابن تيمية في حق رسول الله صلى الله عليه وسلم وأهل بيته).

أين هي أخطاء ابن تيمية ؟!.

أين هي الأخطاء التي دعت الكاتب إلى إطلاق هذه العناوين التي تشبه عناوين الصحف الصفراء: "ابن تيمية يطعن في دين علي رضي الله عنه.." "طعن ابن تيمية في خلافة علي رضي الله عنه واتهمه بالفساد." "هان دم الحسين على ابن تيمية" "تنقيص ابن تيمية لآل البيت." "تنقبص ابن تيمية للإمام جعفر الصادق.".الخ.

أين هي الأخطاء التي استدعت من جوف قلم المؤلف ذلك الكلام الكريه: "لا أدرى ماذا في قلب ابن تيمية وصدره وما يحمله للإمام علي." "والله إن الصدر ليضيق، احكم أنت على ابن تيمية " "وكم من مبغض لآل البيت يريد قتل الحسين وأهل بيته وبعد شهادته لا يطيق حتى سماع أسمائهم.".الخ.

لقد ترك الكاتب النصوص المحكمة من كلام ابن تيمية رحمه الله، والتي لا تحتمل تأويلاً -وقد قدمنا بعضها- وراح يلف ويدور حول مقاطع من كلامه، اقتطعها بعجلة، وجعل يضغط عليها لتولد ما يوافق ما يختلج في صدره من الغضب غير المبرر على شيخ الإسلام. ثم طفق يعلق عليها بجمل لا ترضي إلا كل أجوف موتور.

وسوف يتبين لنا عند استعراض المقاطع التي علق عليها أن ما انتقده على ابن تيمية لم يكن سوى أوهاماً سرابية، لا أساس لها من الصحة.

ولكن قبل أن أستعرض هذه المقاطع -أو بعضها - ينبغي أن أعود إلى الوراء لأجلي باختصار الواقع الذي قال فيه ابن تيمية ما قاله من كلام ليس فيه أدنى تنقيص لآل بيت النبي صلى الله عليه وسلم . وإنما لكل كلام وجه، لا يفهم فهماً صحيحاً إلا إذا وضع في سياقه، ونظر إليه بعين تراعي الظروف والملابسات.

فمن المعلوم أن الشيعة كانوا يمثلون خطراً كبيراً على السنة وعلى العقيدة بما يشيعونه من طعون على الصحابة والخلفاء الراشدين، يقابلها غلو فاحش في آل البيت رضي الله عنهم أجمعين.

وكان ابن تيمية من أشهر من تصدى لهذا الخطر الداهم، وألف كتابه الشهير (منهاج السنة) في الرد على ابن مطهر الشيعي الذي طعن في الصحابة، وشكك في خلافة الخلفاء الراشدين، وغلا غلواً فاحشاً في حق آل البيت ورفعهم فوق الخلفاء. وأطال الكلام عن الأئمة الاثني عشر، ورفع كل واحد منهم فوق جميع أهل زمانه.

ولكي يتجلى لنا خطر كلام ابن المطهر هذا نستعرض بعضاً من أقواله بشئ من الإيجاز، فمن أقواله التي قالها في أبي بكر :

"وقال عند احتضاره (ياليت أمي لم تلدني، يا ليتني كنت تبنة في لبنة ") مع أنهم قد نقلوا عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: "ما من محتضر يُحتضر إلا ويرى مقعده من الجنة أو النار"[1].

ومعنى هذا في عقل الرافضي المريض أن أبا بكر قال ما قال عندما رأى مقعده من النار !.

(1) منهاج السنة النبوية (482/5).

ومن أقواله أيضاً والتي رد عليها ابن تيمية في منهاج السنة :" عن أبي بكر أنه قال على المنبر" أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يعتصم بالوحي، وإن لي شيطانا يعتريني" فإن استقمت فأعينوني وإن زغت فقوموني" وكيف يجوز إمامة من يستعين بالرعية على تقويمه "[1].

وكذلك قوله في أبي بكر "وخفي عليه أكثر أحكام الشريعة.وقضى في الجد بسبعين قضية، وهذا يدل على قصوره في العلم "[2].

ومن أقوال هذا الخبيث في أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه :"قال لما احتضر "يا ليتني كنت كبشاً لقومي، فسمنوني ما بدا لهم، ثم جاء أحب قومهم إليهم فذبحوني، فجعلوا نصفي شواءً ونصفى قديداً، فأكلوني فأكون عذرة ولا أكون بشراً" وهل هذا إلا مساوٍ لقول الكافر: يا ليتني كنت تراباً؟ وقال لابن عباس عند احتضاره "لو أن لي ملء الأرض ذهباً ومثله معه لافتديت به نفسي من هول المطلع" وهذا معنى قوله تعالى ﴿ **وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَافْتَدَوْا بِهِ مِن سُوءِ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ** ﴾[الزمر: 47][3].

إلى غير ذلك من التهم الملفقة التي لا تنطلي إلا على الجهال، ولكن لها بريقاً خادعا؛ لذا احتاجت إلى أن ينبري لها شيخ الإسلام لردها ودفعها.

وفي المقابل أورد في حق آل البيت كلاماً فيه غلو وإفراط وخروج عن حد الاعتدال.

ومن أمثلة ذلك قوله "..فقال –أي الله سبحانه وتعالى– يا محمد أنا شيء لست كالأشياء، ولا أقاس بالناس ولا أوصف بالأحياء، خلقتك من نوري، وخلقت علياً من نورك، فاطلعت على سرائر قلبك فلم أجد إلا قلبك أحب من علي.. وعن ابن عباس رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (لو أن الرياض أقلام والبحر مداد والجنّ حُسّاب والإنس كُتّاب ما أحصوا فضائل علي"[4].

---

(1) السابق (461/5).
(2) السابق (496/5).
(3) السابق (5/6-6).
(4) منهاج السنة النبوية (39/5-40).

وعن حكيم ابن حزام عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال **"لَمُبَارَزَةُ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ لِعَمْرِو بْنِ عَبْدِ وُدٍّ يَوْمَ الْخَنْدَقِ أَفْضَلُ مِنْ أَعْمَالِ أُمَّتِي إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ"**(1).

ومن هذه الأكاذيب :" عن أنس قال :قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : خلق الله من نور وجه علي سبعين ألف ملك يستغفرون له ولمحبيه إلى يوم القيامة، وعن ابن عمر قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : **"من أحب علياً قبل الله صلاته وصيامه وقيامه واستجاب دعاءه، ألا ومن أحب علياً أعطاه الله بكل عرق من بدنه مدينة في الجنة."**(2).

ومن ذلك: **"عن معاذ بن جبل عن النبي** صلى الله عليه وسلم **قال :حب علي حسنة لا تضر معها سيئة وبغضه سيئة لا تنفع معها حسنة"**(3).

إلى غير ذلك من الأكاذيب التي استغنى عنها آل بيت النبي صلى الله عليه وسلم بفضائلهم الحقيقية، أكاذيب وخرافات إن اطلع عليها من لا يعرف قدر آل البيت لم تزده إلا نفوراً عنهم وزهدا فيهم.

هذا إلى جانب الافتراءات الكثيرة على أبي بكر وعمر وعثمان وغيرهم من الصحابة، كاتهامهم لأبي بكر أنه ظلم فاطمة ومنعها حقها وإرثها في أبيها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، واتهامهم لهم بأنهم سلبوا علياً وأولاده حقهم في الإمامة، إلى غير ذلك من الأضاليل التي يتنـــزه عنه خير صحابة لخير نبي.

لذلك انبرى ابن تيمية رحمه الله يذب عن الصحابة والقرابة، يذب عن الصحابة ويدفع عنهم المطاعن والتهم التي لفقها لهم الروافض، ويذب عن القرابة ويدفع عنهم ما علق بهم من نقائص بسبب غلو الروافض فيهم. فجاء كلامه كلاماً دقيقاً، يحتاج إلى صيانة؛ لأن التلاعب بأي نص يرد على قضية شائكة يقلب معناه، ويبدل محتواه.

---

(1) رواه الحاكم في المستدرك (4270)،)، والخطيب البغدادي في تاريخ بغداد (4357)، وابن عساكر في تاريخ دمشق (21468)، والمتقي الهندي في كنـــز العمال (33035) تعليق الذهبي قي التلخيص: قبح الله رافضيا افتراه.

(2)منهاج السنة النبوية (37/5).

(3) السابق (72/5).

وقد استغل المؤلف هذه الخاصية في كلام ابن تيمية لينفذ إلى ما يريد من الطعن والتجريح على شيخ الإسلام، واتهامه بالتنقيص لآل البيت والضغن عليهم، وساعده على ذلك أن ابن تيمية رحمه الله نهج نهجاً دقيقاً في رده على ابن المطهر، وتجلى هذا النهج في عدة مسالك، بعضها أوعر من بعض.

المسلك الأول: هو أن ابن تيمية رحمه الله جمع المطاعن التي طعن بها الشيعة الروافض على أبي بكر وعمر وعثمان وعائشة وغيرهم من الصحابة، وقابلها بالمطاعن التي طعن بها النواصب والخوارج على عليّ وفاطمة وآل البيت؛ ليبين للروافض أن ما قيل عن الصحابة قيل أكثر منه عن آل البيت، وكله كذب، فليس من العقل ولا من الدين أن نرضى بالكذب لنهدم به الخصوم؛ فإن هذا سيؤدي إلى هدم الجميع.

وكذلك أيضاً قابل ما ذكره الروافض عن فضائل ومناقب آل البيت بما ذكرته الروايات الصحيحة عن فضائل ومناقب الصحابة؛ ليبين للروافض أن ما ذكر من مناقب آل البيت ذكر أكثر منه في أبي بكر وعمر وعثمان وغيرهم؛ فليس من الصواب تأخير من قدمه الصحابة ولا تقديم من أخروه، بل الصواب أن نؤمن ونسلم بأن ترتيب الخلفاء الراشدين على ما كان عليه هو الحق والعدل.

والهدف والثمرة من هذه الموازنة أن نسلم بأن الجميع من الصحابة والقرابة أهل عدل وفضل، مع تقديم أبي بكر وعمر وعثمان وعليّ، ونفض كل ما قيل عن الصحابة وآل البيت من الأكاذيب والافتراءات.

وهذا من السهل إدراكه بمجرد استعراض كلام شيخ الإسلام كله في المسألة ورد متشابهه إلى محكمه.

وقبل أن أستعرض النصوص التي أوردها المؤلف وعلق عليها، والتي سلك فيها ابن تيمية المسلك الذي أشرنا إليه آنفا، أقدم بعضاً من النصوص التي لم يتعرض لها المؤلف (الناقد!)، والتي تسير على نفس المنهج، ولكن يبدو أن المؤلف أهملها –برغم عدم اختلافها في المضمون عن النصوص التي

تعرض لها -ربما لأنه وجد فيما تعرض له ثغرات يمكن أن ينفذ منها إلى ما يريد.

يقول شيخ الإسلام رحمه الله في منهاج السنة: "ومن تدبر حال أبي بكر في رعايته لأمر النبي صلى الله عليه وسلم وأنه إنما قصد طاعة رسول الله صلى الله عليه وسلم لا أمراً آخر، يحكم أن حاله أكمل وأفضل وأعلى من حال علي رضي الله عنه وكلاهما سيد كبير من أكابر أولياء الله المتقين وحزب الله المفلحين وعباد الله الصالحين، ومن السابقين الأولين ومن أكابر المقربين الذين يشربون من التسنيم"[1].

وهذا الكلام قاله شيخ الإسلام في الرد على ابن المطهر الشيعي الذي عاب على أبي بكر منعه فاطمة إرثها من أبيها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وزعم بذلك أنه آذاها ومن ثم فقد آذى الله ورسوله، وكيف يكون خليفة من هذا حاله مع الله ورسوله ومع آل بيت رسوله صلى الله عليه وسلم ، واستشهد بحديث "فاطمة بضعة مني، من آذاها آذاني ومن آذاني آذى الله "فبين له ابن تيمية أن أبا بكر لم يؤذ فاطمة؛ لأنه قصد من منعها طاعة الرسول صلى الله عليه وسلم الذي قال: **"لا نُوَرَّثُ مَا تَرَكْنَاهُ صَدَقَةٌ"**[2].

ثم فند استدلاله بأن الحديث روى بلفظ" **فَإِنَّمَا ابْنَتِي بَضْعَةٌ مِنِّي، يَرِيبُنِي مَا رَابَهَا، وَيُؤْذِينِي مَا آذَاهَا"**[3].

وبين له أن سبب هذا الحديث حجة على الشيعة لا لهم، وهو أن علياً رضي الله عنه أراد أن يتزوج على فاطمة، وخطب ابنة أبي جهل؛ لذلك جاء في بعض روايات الحديث " **وَاللَّهِ لاَ تَجْتَمِعُ**

(1) منهاج السنة النبوية (254/4).

(2) رواه مسلم (3305)، وابن حبان في صحيحه (4931)، وإسحاق ابن راهويه في مسنده (750)، والبزار في مسنده (897)، والبيهقى في الكبرى (11841)، والترمذي في الشمائل (392) "صحيح".

(3) رواه ومسلم (4486)، والترمذي في السنن (3832)، والنسائي في الكبرى (8210)، وابن ماجة في السنن (1988)، وابن حبان في صحيحه (7113)، وأبوعوانة في مسنده (3377)، والبيهقى في الكبرى (19781)، وأبو نعيم في الحلية (11073)"صحيح".

بِنْتُ رَسُولِ اللَّهِ، وَبِنْتُ عَدُوِّ اللَّهِ"[1].

فمن طالع النص السابق لابن تيمية دون أن يطالع السياق كله ربما دخل عليه بعض التساؤلات حول مراده بهذا الكلام؛ مع أن النص في ذاته فيه ثناء على الرجلين وترحم عليهما.

وما أجمله شيخ الإسلام في النص السابق فصله في النص الآتي:

"فسبب الحديث خطبة علي رضي الله عنه لابنة أبي جهل، والسبب داخل في اللفظ قطعاً، إذ اللفظ الوارد على سبب لا يجوز إخراج سببه منه، بل السبب يجب دخوله بالاتفاق. فإن كان هذا وعيداً لاحقاً بفاعله لزم أن يلحق هذا الوعيد علي بن أبي طالب، وإن لم يكن وعيداً لاحقاً بفاعله كان أبو بكر أبعد عن الوعيد من علي.وإن قالوا بجهلهم إن هذا الوعيد كفر ليكفروا أبا بكر لزمهم تكفير عليّ، واللازم باطل فالملزوم مثله، وهم دائماً يعيبون أبا بكر وعمر وعثمان بل يكفرونهم بأمور قد صدر من عليّ مثلها.فإن كان مأجوراً أو معذوراً كانوا أولى بالأجر أو العذر"[2].

وعندما استنكر ابن المطهر الشيعي على أبي بكر تركه قتل خالد بن الوليد قصاصاً لقتله مالك بن نويرة –وهو تحكم منه وتضييق على اجتهاد الإمام– أجاب ابن تيمية عنه بنفس الطريقة، أي بطريقة الموازنة الترجيحية بين اللوازم الفرضية، فقال: "والجواب أن يقال: أولا إن كان ترك قتل قاتل المعصوم مما ينكر على الأئمة كان هذا من أعظم حجة شيعة عثمان على عليّ، فإن عثمان خير من ملء الأرض من مثل مالك بن نويرة، وهو خليفة المسلمين، وقد قتل مظلوماً شهيداً بلا تأويل مسوغ لقتله، وعليّ لم يقتل قتلته، وكان هذا من أعظم ما امتنعت به شيعة عثمان عن مبايعة عليّ.فإن كان عليّ له عذر شرعي في ترك قتله عثمان فعذر أبي بكر في ترك قتل قاتل مالك بن نويرة أقوى، وإن لم يكن لأبي بكر عذر في ذلك فعليّ أولى ألا يكون له عذر في ترك قتل قتلة عثمان"[3].

أي أن ترك قتل قاتل مالك بن نويرة مقابل بترك قتل قتلة عثمان مع الفارق الشاسع بين عثمان

---

(1) رواه البخاري (2896)، ومسلم (4489)، وأبوداود في السنن (1776)، وابن ماجة في السنن (1989)، وابن حبان في صحيحه (7114)، والطبراني في الكبير (16484)، وعبدالرزاق في المصنف (12903)"صحيح".

(2) منهاج السنة النبوية(4/251-253).

(3) السابق (5/514).

ومالك بن نويرة. فإن كان يلزم من ترك أبي بكر قتل خالد الإنكار عليه كان الإنكار على عليّ ألزم لأنه ترك قتل الثوار، وإن عذر علي –وهو الصواب– فالعذر لأبي بكر أولى.

ولا يمكن أن يفهم من هذا السياق العيب على عليّ؛ كيف وكتب ابن تيمية حافلة بالثناء على الخلفاء الراشدين ومنهم عليّ رضي الله عنه، من ذلك قوله"وعليّ آخر الخلفاء الراشدين الذين هم ولايتهم خلافة نبوة ورحمة، وكل من الخلفاء الأربعة رضي الله عنهم يشهد له بأنه أفضل أولياء الله المتقين، بل هؤلاء الأربعة أفضل خلق الله بعد النبيين"(1).

وهكذا استمر ابن تيمية يدافع بطريقة الموازنة الترجيحية بين اللوازم الفرضية في أغلب ردوده علي ابن المطهر الذي أفرط في التجني علي أبي بكر وعمر وعثمان وفي الغلو في فاطمة وعليّ وآل البيت؛ ليؤكد علي أنه "ما يتنـــزه علي وفاطمة رضي الله عنهما عن ترك واجب أو فعل محظور إلا وتنـــزه أبي بكر وعمر أولى بكثير، ولا يمكن أن تقوم شبهة بتركهما واجباً أو تعديهما حداً إلا والشبهة التي تقوم في عليّ وفاطمة أقوى بكثير"(2).

والنماذج التي أوردناها لم يوردها المؤلف، ولم يشر إليها؛ لأنه يتتبع المتشابه من الكلام، ويعرض عما يناقض مقصوده مما لا تتضح فيه الشبهة.وسوف أتعرض لبعض النماذج التي أوردها المؤلف وعلق عليها، وهي من جنس النماذج السابقة التي اتبع فيها ابن تيمية طريقة الموازنة بين اللوازم الفرضية.

فمن النماذج التي علق عليها المؤلف قول ابن تيمية رحمه الله: "وعليّ رضي الله عنه لم يخص أحداً من أقاربه بعطاء ولكن ابتدأ بالقتال لمن لم يكن مبتدئاً بالقتال حتى قتل بينهم ألوف مؤلفة من المسلمين، وإن كان ما فعله هو متأول فيه تأويلاً وافقه عليه طائفة من العلماء وقالوا إن هؤلاء بغاه والله تعالى أمر يقتل البغاه. لكن نازعه أكثر العلماء." (3).

ساق المؤلف هذا الكلام لشيخ الإسلام ثم علق عليه قائلاً " اتهامات ابن تيمية لحكم الإمام علي

(1) منهاج السنة النبوية(453/7).

(2) السابق.

(3) السابق.

رضي الله عنه وعلمه ومواقفه وخصائصه ثم أخيراً اتهامه بالفساد واضحة وجلية، وابن تيمية ينسب إلى العلم، ولو كان من العوام لعذر واستتيب."[1].

ثم أخذ يسوق الأدلة على أن علياً أولى بالحق، وأنه أجدر بالإمامة[2].

وللرد على هذه الإيرادات أقول:

أولاً: لم يكن هناك داع لإيراد ما أورده من الأدلة علي أحقية علي رضي الله عنه؛ لأن ابن تيمية **رحمه الله** لم ينكرها، وليس في العبارة السابقة ما يدل على إنكاره لها.

ومما يؤكد ذلك أقواله الواضحة في مواضع كثيرة، منها قوله: "وأهل السنة من أشد الناس بغضاً وكراهية لأن يتعرض له بقتال أو سب، بل هم كلهم متفقون على أنه أجل قدراً وأحق بالإمامة، وأفضل عند الله ورسوله من معاوية وأبيه وأخيه "[3].

وقوله: "وأما قوله "يَقْتُلُهَا أَوْلَى الطَّائِفَتَيْنِ بِالْحَقِّ "فهذا دليل على أن علياً ومن معه كان أولى بالحق إذ ذاك من الطائفة الأخرى"[4].

وقوله: "وعلي ومن معه أولى بالحق من معاوية وأصحابه، كما ثبت عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال**"تَمْرُقُ مَارِقَةٌ عِنْدَ فُرْقَةٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ، يَقْتُلُهَا أَوْلَى الطَّائِفَتَيْنِ بِالْحَقِّ"**[5].

فدل هذا الحديث على أن علياً أولى بالحق ممن قاتله"[6].

ثانياً: أن ابن تيمية أورد هذا الكلام في صدد رده على ابن المطهر الشيعي الذي عاب على عثمان أنه أعطى أقاربه، واعتبر هذا من النقائص الخارمة، وبنى على هذا أنه لم يكن يستحق الإمامة، وأن علياً كان أولى منه بها؛ وعليه فيجب أن يفهم النص في سياق الموضوع كله، عندئذ سيفهم أن

---

(1) أخطاء تيمية (ص 108).
(2) السابق (ص 108-111).
(3) منهاج السنة النبوية(395/4).
(4) مجموع الفتاوى (448/4).
(5) رواه مسلم (1771)، وأبوداود في السنن (4050)، والنسائي في الكبرى (8202)، أحمد في المسند (11058)، وابن أبي عاصم في السنة (1127)، و الطحاوي في مشكل الآثار (3463)، والبيهقى في دلائل النبوة (1962)"صحيح".
(6) منهاج السنة النبوية(57/7).

ابن تيمية لم يرد الحط من شأن علي رضي الله عنه، وإنما قصد إبطال دعوى الرافضي بمقابلتها بدعوى خصمه، بمعنى أنه لو فرضنا أنه يلزم من اجتهاد عثمان في إعطائه بعض أقاربه تنقيصه وذمَّه كما زعم الروافض، لكان هذا الفرض مقابلاً بفرض آخر وهو أنه يلزم من ابتداء علي بالقتال حسب اجتهاده تنقيصه وذمَّه كما قالت النواصب، ولكننا نعتقد أنه كان متأولاً، وكذلك كان عثمان، وكلاهما مأجور غير مأزور.

ومن النماذج كذلك قول ابن تيمية رحمه الله: "ولم يحصل بالقتال لا مصلحة الدين ولا مصلحة الدنيا، ولا قوتل في خلافته كافر ولا فرح مسلم، فإن علياً لا يفرح بالفتنة بين المسلمين، وشيعته لم تفرح بها لأنها لم تغلب، والذين قاتلوه أيضاً لم يزالوا في كرب وشدة، وإذا كنا ندفع من يقدح في علي من الخوارج مع ظهور هذه الشبهة فلأن ندفع من يقدح في أبي بكر وعمر بطريق الأولى والأحرى، وإن جاز أن يظن بأبي بكر أنه قاصداً للرئاسة بالباطل – مع أنه لم يعرف منه إلا ضد ذلك – فالظن بمن قاتل علي الولاية ولم يحصل له مقصوده أولى وأحرى"[1].

وقوله أيضاً :"ومن المعلوم أن الخلفاء الثلاثة اتفقت عليهم المسلمون، وكان السيف في زمانهم مسلولاً على الكفار مكفوفاً عن أهل الإسلام، وأما علي فلم يتفق المسلمون على مبايعته، بل وقعت الفتنة تلك المدة، وكان السيف في تلك المدة مكفوفاً عن الكفار مسلولاً على أهل الإسلام، فاقتصار المقتصر على ذكر عليّ وحده دون من سبقه هو ترك لذكر الأمة وقت اجتماع المسلمين وانتصارهم على عدوهم، واقتصار على ذكر الإمام الذي كان إماماً وقت الفتنة في بلاد المسلمين، لاشتغال المسلمين بعضهم ببعض، وهو ترك لذكر الخلافة التامة الكاملة واقتصار على ذكر الخلافة التي لم تتم ولم تحصل مقصودها"[2].

وهذا الكلام مسوق في الرد على الشيعة الروافض الذين لا يعتدون بخلافة أبي بكر وعمر وعثمان، ولا يذكرون إلا خلافة عليّ وليس في الكلام أدنى تنقيص لعلي رضي الله عنه؛ لا نه يسير علي نفس

---

(1) منهاج السنة النبوية(454/4).
(2) السابق(161/4-162).

المنهج، ولكن بالموازنة بين عهدين: عهد أبي بكر وعمر وعثمان، وعهد علي رضي الله عنهم أجمعين؛ وذلك لإثبات أنهم كانوا أولى منه بالإمامة، وأن إمامتهم حق، وللرد على ابن المطهر الشيعي الذي أبطل إمامتهم.

والملاحظ أن المؤلف تعامل مع هذين النصين بمنتهي السوء، فأما النص الأول فلم يورد منه إلا قول ابن تيمية: "ولم يحصل بالقتال لا مصلحة الذين ولا مصلحة الدنيا، ولا قوتل في خلافته كافر ولا فرح مسلم "وذلك ليظهر السياق وكأنه ذم محض، وهذا مسلك في العلم مشين.وأما النص الثاني فقد أسقط منه عبارة لا يفهم كلام ابن تيمية على وجهه الصحيح "إلا بها، وهي قوله: "فاقتصار المقتصر على ذكر عليّ وحده دون من سبقه هو ترك لذكر الأمة وقت اجتماع المسلمين وانتصارهم على عدوهم، واقتصار على ذكر الإمام الذي كان إماماً وقت الفتنة في بلاد المسلمين، لاشتغال المسلمين بعضهم ببعض" وهذا كاف في إبطال دعواه وتقويضها من أصولها.

ومن النماذج التي أوردها المؤلف وعلق عليها أيضاً قول ابن تيمية "لم يكن لعلي في الإسلام أثر حسن إلا ولغيره من الصحابة مثله، ولبعضهم آثار أعظم من آثاره، وهذا معلوم لمن عرف السيرة الصحيحة الثابتة بالنقل، وأما من يأخذ بنقل الكذابين وأحاديث الطرقيين فباب الكذب مفتوح"[(1)].

وأورد المؤلف كلام ابن تيمية السابق ثم أخذ يعلق عليه بنقل كلام ابن حجر رحمه الله تعالى في الإصابة عن خصائص عليّ رضي الله عنه وهو يريد أن يقول أنها ما دامت خصائص فهي لا يشاركه فيها أحد، وبالتالي يكون كلام ابن تيمية خطأ.

ونقول: إن الاختلاف بين ابن حجر وابن تيمية لم يكن إلا في التسمية، فالأول سماها خصائص، والثاني سماها فضائل ومناقب، ولا شك أن تسمية ابن تيمية أدق؛ لأن القول بأنها خصائص ينفي اتصاف سائر الصحابة بها؛ لأن علياً رضي الله عنه لم يختص دون سائر الصحابة -مثلاً- بأنه "**رَجُلٍ يُحِبُّ اللَّهَ**

(1) السابق (199/7).

وَرَسُولَهُ وَيُحِبُّهُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ ؟"[1].

كما جاء في الحديث.وهذا لا ينقص من شأن ابن حجر؛ لأن ابن حجر كان بصدد جمع الأخبار الواردة في عليّ، أما ابن تيمية فكان بصدد الموازنة والتدقيق وتصحيح المصطلحات.وربما لو تبدل موقفهما لتبدلت المصطلحات والاستعمالات.

فلا يصح التزيد على العلماء ومعارضة أقوالهم بعضها ببعض.

وهناك نصوص أخرى تجري على هذا المنوال، أعرضت عنها احترازاً من الإطالة التي لا فائدة منها.

المسلك الثاني: وانتقل المؤلف إلي نوع أخر من كلام شيخ الإسلام، واستطاع المؤلف أن يستغل فيه دقة المسلك ليشغب على المقصود، ويضلل القارئ ويوهمه أن في الكلام تنقيصا لآل البيت الكرام.

وهو أن ابن تيمية رحمه الله لاحظ أن الروافض انساقت مع العصبية والغلو في آل البيت مما انعكس على كثير من المبادئ الإسلامية الراسية والثوابت العقدية الراسخة بالإبطال، فانتصب لتقريرها ونفض الغبش عنها ومثل هذا الموقف يكون الكلام فيه حساساً؛ لأنه تقديم للمبادئ على الأشخاص، ورد وإبطال لكلام من قدم الأشخاص على المبادئ، فقد يفهم من هذا من لا يحسن الفهم أن فيه تنقيص للأشخاص.

من هذه المبادئ مبدأ: أن الناس يسبقون بالعمل لا بالنسب، وأن تفاضلهم عند الله تعالى بالتقوى لا بالقرابة، هذا المبدأ الإسلامي العظيم قرره القرآن الكريم، وقررته كذلك السنة المباركة والسيرة المطهرة، يقول الله تعالى: ﴿**إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ**﴾ ويقول النبي صلى الله عليه وسلم "**لاَ فَضْلَ لِعَرَبِيٍّ عَلَى أَعْجَمِيٍّ، وَلاَ لِعَجَمِيٍّ عَلَى عَرَبِيٍّ، وَلاَ لأَحْمَرَ عَلَى أَسْوَدَ، وَلاَ لأَسْوَدَ عَلَى أَحْمَرَ، إِلاَ بالتَّقْوَى**"[2].

---

(1) رواه الترمذي في السنن (1625)، والنسائي في الكبرى (7845)، وابن أبي شيبة في المصنف (30427)، وأحمد في فضائل الصحابة (888)، وابن سعد في الطبقات (1704)، وابن عساكر في التاريخ (16874)، و الذهبي في تاريخ الإسلام (1684) "إسناده حسن".

(2) رواه أحمد في المسند (22873)، وأبو نعيم في الحلية (3498)، والبيهقي في الشعب (4891) "صحيح".

وفي مهد دعوته وقف على جبل الصفا فعمّ وخصّ، وأعلن المبدأ الفاصل: **"يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ، اشْتَرُوا أَنْفُسَكُمْ مِنَ اللَّهِ لاَ أُغْنِي عَنْكُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا، يَا بَنِي عَبْدِ الْمُطَّلِبِ، لاَ أُغْنِي عَنْكُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا، يَا عَبَّاسُ بْنَ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ، لاَ أُغْنِي عَنْكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا، يَا صَفِيَّةُ عَمَّةَ رَسُولِ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم ، لاَ أُغْنِي عَنْكِ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا، يَا فَاطِمَةُ بِنْتَ مُحَمَّدٍ، سَلِينِي مَا شِئْتِ لاَ أُغْنِي عَنْكِ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا"**(1).

ولكن الشيعة جعلوا مجرد القرابة لرسول الله صلى الله عليه وسلم مسوغ للتقديم بقطع النظر عن السبق في الإيمان والعمل الصالح؛ فجاء كلام ابن تيمية في كثير من المواضع مذكراً ومقرراً للمبدأ الصحيح، فكان مما قاله في هذا الصدد :"ولهذا حصل لأزواج النبي صلى الله عليه وسلم إذا قنتن لله ورسوله وعملن صالحاً، لا لمجرد المصاهرة، بل لكمال الطاعة، كما أنهن لو أتين بفاحشة مبينة لضوعف لهن العذاب ضعفين لقبح المعصية"(2).

وقال أيضاً: وكذلك قول **"اشْتَدَّ غَضَبُ اللَّهِ وَغَضَبِي عَلَى مَنْ أَهْرَقَ دَمِي وَآذَانِي فِي عِتْرَتِي"**(3).

كلام لا ينقله عن النبي صلى الله عليه وسلم ولا ينسبه إليه إلا جاهل؛ فإن العاصم لدم الحسن والحسين وغيرهم من الإيمان والتقوى أعظم من مجرد القرابة، ولو كان الرجل من أهل بيت النبي صلى الله عليه وسلم وأتى بما يبيح قتله أوقطعه لكان ذلك جائزاً بإجماع المسلمين"(4).

ومن أقواله أيضاً في هذا الصدد:

"وفي أعمام النبي صلى الله عليه وسلم وبني عمه جماعة مؤمنون صحبوه كحمزة والعباس والفضل وكربيعة بن الحارث بن عبدالمطلب وحمزة أفضل من العباس، وعلي وجعفر أفضل من

---

(1) رواه مسلم (307)، والنسائي في الكبرى (6253)، والدرامي في السنن (2650)، وابن حبان في صحيحه (6688)، والطبراني في مسند الشاميين(2965)، وأبوعوانة في مسنده (202)، و الطحاوي في شرح معاني الآثار (4899)، والبيهقى في الكبرى (11763)"صحيح".

(2) منهاج السنة النبوية(216/8).

(3) الكامل في الضعفاء لا بن عدي (7670)، تذكرة الموضوعات للفتنى (674) حديث موضوع 0.

(4) منهاج السنة النبوية(586/4).

غيرهما، وعلي أفضل من العباس؛ فعلم أن الفضل بالإيمان والتقوى لا بالنسب.."[1].

"ولهذا كان أفضل الخلق أولياؤه المتقون وأما أقاربه ففيهم المؤمن والكافر والبر والفاجر؛ فإن كان فاضل منهم كعلي والحسن والحسين فتفضيلهم بما فيهم من الإيمان والتقوى، وهم أولياؤه بهذا الاعتبار لا بمجرد النسب، فأولياؤه أعظم درجة من آله "[2].

ولكن هذه الأقوال لشيخ الإسلام لم تعجب المؤلف برغم أنها في غاية الاتساق مع النصوص الشرعية، وليس فيها أدنى إساءة لقرابة رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وانطلق يثير الزوابع بهذه الصرخات: "ابن تيمية يقلل من جناب النبي صلى الله عليه وسلم ويدعي أن الأجر العظيم لزوجات النبي صلى الله عليه وسلم ليس بسبب زواجهم منه ولكن بسبب تقواهم"[3].

" قول ابن تيمية لم يقله مسلم من قبله.وماله وزوجات النبي صلى الله عليه وسلم ."[4].

" تنقيص ابن تيمية آل البيت "[5].

"انظر إلى مغالطات ابن تيمية وما في نفسه من رسول الله صلى الله عليه وسلم وآل بيته "[6].

" هوان دم أهل البيت عند ابن تيمية "[7].

"هل يريد ابن تيمية أن يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : توكلوا على الله واذبحوا أهل بيتي"[8].

وبرغم هذه التعليقات المتشنجة فإن كلام شيخ الإسلام ليس فيه أدنى تنقيص لآل بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهم في حقيقة الأمر أغنياء عن هذه المزايدة المرفوضة، وقد قال من قبل

---

(1) منهاج السنة النبوية(169/4).
(2) منهاج السنة النبوية(778/4).
(3) أخطاء ابن تيمية (ص 67).
(4) السابق.
(5) السابق (ص123).
(6) السابق (ص71).
(7) السابق (ص154).
(8) السابق (ص154).

عليّ بن الحسين رضي الله عنه "يا أهل العراق: أحبونا حب الإسلام ولا تحبونا حب الأصنام، فمازال بنا حبكم حتى صار علينا شيناً"[(1)].

إن حبنا لآل بيت النبي صلى الله عليه وسلم لا يصح أن يطغى على الثوابت العقدية، بل إن حبنا لهم إن كان حباً صحيحاً لا يتصور –أصلاً– أن يطغى على الثوابت العقدية.

وهي قضية واضحة في دين الإسلام غاية في الوضوح وقد علمنا القرآن الكريم أن نجعل المبادئ محاور يدور عليها الأشخاص وليس العكس.

فهذا شخص نوح عليه السلام، النبي العظيم الذي صبر على الدعوة وصابر وثابر، وجاهد وجالد وأمضى ألف سنة إلا خمسين عاماً في دعوة لا تفتر ليلاً ولا نهاراً، ولا تترك سراً ولا جهاراً، عندما رفع يديه داعياً ﴿**رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الحَقُّ**﴾[هود: 45].

جاءه الجواب بهذا الحسم وبهذه الصرامة: ﴿ **قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلَا تَسْأَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ ..**﴾ [هود: 46].

وعلى الفور يتذكر نوح عليه السلام، ويجدد اليقين مستعيذاً: ﴿ **قَالَ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ** ﴾ [هود: 47].

فلو كان النسب – بذاته – سببا للنجاة لكان ولد نوح من الناجين بدعوة أبيه وبنسبه إليه، ولو كانت المبادئ والأسس تدور حول الأشخاص لتغيرت لنوح لحظة في خاتمة جهاده الطويل.

وها هو إبراهيم الخليل يستغفر لأبيه، ولكنه يتبرأ منه بعد ذلك لعداوته لله، قال تعالى: ﴿ **وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ** ﴾ [التوبة: 114].

وخاتم النبيين وسيدهم محمد صلى الله عليه وسلم عندما رغب في الاستغفار لعمه أبي طالب الذي ظل طوال حياته درعاً وحصناً له، نـــزل الوحي حاسماً وقاطعاً: ﴿ **مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَن يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبَىٰ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ** ﴾[التوبة:

(1) سير أعلام النبلاء (390/4).

113].

إنّ نجاة العبد وقبوله وسبقه وأفضليته ودرجته ورتبته لا تكون بنسب ولا قرابة، وإنما تكون فقط بالإيمان والتقوى والعمل الصالح، هذا هو ما قرره القرآن الكريم وأكدته السنة المطهرة وجاء في حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم حاسماً في شكل قاعدة عملية كبرى: **"وَمَنْ أَبْطَأَ بِهِ عَمَلُهُ لَمْ يُسْرِعْ بِهِ نَسَبُهُ"**(1).

وعندما يتقرر مبدأ في دين الله عز وجل بشكل قطعي حتى يصبح من الأسس العامة والقواعد الكلية، ثم ترد نصوص تحتمل خلاف ما تقرر يقيناً فإنه يجب حملها على معان لا ترجع على الأصل المقرر بالإبطال، هذا إن صحت، فإن لم نتمكن من التأويل المقبول فإن في الأصول من المسالك والمخارج الكثير ليس منها - بالطبع - الرجوع على المحكمات بالرد والإبطال.

فعلى سبيل المثال: حديث **"إِنَّ كُلَّ سَبَبٍ وَنَسَبٍ مُنْقَطِعٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِلا سَبَبِي وَنَسَبِي"**(2).

لا يمكن أن يكون معناه أن من اتصل بالنبي صلى الله عليه وسلم بسبب أو نسب سيرفع يوم القيامة على من سبقه بالصلاح والتقوى. وإنما معناه أنه سيكون أسعد بشفاعته العامة والخاصة(3)، ومعلوم أن الشفاعة لا تكون إلا بإذن الله تعالى؛ لقوله ﴿ **مَن ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِندَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ** ﴾ [البقرة: 255].

والغريب المثير للدهشة أن المؤلف الذي تبنى فكرة مقلوبة، واختار وجهة مخالفة لتيار المحكمات يريد أن يقنع العالمين بأنه يسير في الاتجاه الصحيح، ويجب عليهم أن يسلكوا مسلكه؛ من أجل ذلك أخذ يجدف تجديفاً أوجه منه رقصة الغريق، وحاول أن يدعم موقفه بكلام أشد تخليطاً من أضغاث الأحلام، فيقول مثلاً :"إذا كان العاصم لدم سيدا (هكذا!) شباب أهل الجنة الإيمان والتقوى كما

---

(1) رواه مسلم (4871)، وأبوداود في السنن (3161)، والدرامي في السنن (349)، أحمد في المسند (7249)، والحاكم في المستدرك (275)، وابن حبان في صحيحه (775)، والبيهقي في الشعب (1638)"صحيح".

(2) رواه الطبراني في الكبير (11465)، وعبدالرزاق في المصنف (10106)، والبيهقي في الكبرى (12448)، و الهيثمي في مجمع الزوائد (7430)، وأبو نعيم في الحلية (1457)، وفي السلسلة الصحيحة (2036)"صحيح".

(3) أنظر فيض القدير (20/5).

يقول ابن تيمية فلماذا لم يأت جبريل بالتربة التي قتل فيها المئات والألوف من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم الذين قتلهم الحجاج وجنود يزيد بن معاوية، كما جاء بالتربة الحمراء من كربلاء حيث استشهد الإمام الحسين "[1] !!.

وليس عندي تعليق على هذا (الاستدلال) المثير للضحك.

أما أن يكون ابن تيمية قد أساء بهذا الكلام إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم أو إلى أهل بيته وقرابته، فهذا ما لا يمكن أن يقوله من لديه بدايات المنهج العلمي، وكيف يكون قد أساء إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم من يدافع عما جاء به دينه من محكمات وثوابت. وكيف يكون قد أساء إلى آل البيت الكرام من يقول إنهم بلغوا ما بلغوه من الفضل بإيمانهم وتقواهم وعملهم الصالح لا بمجرد النسب ؟!.

ومن المبادئ المقررة في دين الله تقريراً لا يقبل الشك: مبدأ سيادة الحق على الخلق، وأن الحق لا يدور حول أشخاص سوى شخص رسول الله صلى الله عليه وسلم باعتباره مبلغ عن الله تعالى؛ لذلك لا يتصور أن يكون رضي الله وغضبه تابعاً لرضى شخص أو غضبه، ولا أن تكون موالاته ومعاداته تابعة أو دائرة حول شخص من الأشخاص، اللهم إلا إذا كان ذلك للحق الذي يمثله ويتولاه هذا الشخص.

لكن الشيعة في دفعة العصبية والغلو زعموا أن الحق يدور مع علي حيث دار، وأن من والى علياً فقد والى الله ومن عادى علياً فقد عادى الله، وأن من أرضى فاطمة فقد أرضى الله ومن عاداها فقد عادى الله، بقطع النظر عن السبب؛ لذلك اعتبروا من لم يكن مع علي كان هالكاً ومن تقدم عليه في الخلافة كان لله عدواً، ومن حرم فاطمة ميراثها من أبيها رسول الله صلى الله عليه وسلم وأغضبها فقد استحق غضب الله وعقابه، بقطع النظر عن اجتهاده. وساقوا في ذلك أحاديث لم تصح، ذكرها ابن المطهر في كتابه.

فرد ابن تيمية على هذه المزاعم ودافع عن المبادئ التي داستها جحافل الشيعة في مسيرة الغلو الفاحش.

---

(1) أخطاء ابن تيمية.

فكان من أقواله التي لم يرض عنها سيادة المؤلف ما يلي :"وأيضاً فالحق لا يدور مع شخص غير النبي صلى الله عليه وسلم ، ولو دار الحق مع على حيثما دار لوجب أن يكون معصوماً كالنبي صلى الله عليه وسلم ، وهم من جهلهم يدعون ذلك، ولكن من علم أنه لم يكن بأولى بالعصمة من أبي بكر وعمر وعثمان وغيرهم – وليس فيهم من هو معصوم – علم كذبهم."[1].

وأما قوله: "**اللَّهُمَّ مَنْ كُنْتُ مَوْلاَهُ فَعَلِيٌّ مَوْلاَهُ، اللَّهُمَّ وَالِ مَنْ وَلاهُ**."الخ.

فهذا ليس في شيء من الأمهات إلا في الترمذي، وليس فيه إلا :من كنت مولاه فعلي مولاه، وأما الزيادة فليست في الحديث وسئل عنها الإمام أحمد فقال: زيادة كوفية، ولا ريب أنها كذب.وكذلك قوله اللهم وال من والاه وعاد من عاداه مخالف لأصل الإسلام، فإن القرآن الكريم قد بين أن المؤمنين أخوة مع قتالهم وبغي بعضهم على بعض"[2].

"وأما قوله ورووا جميعاً أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: يا فاطمة: "**إِنَّ اللَّهَ يَغْضَبُ لِغَضَبِكِ، وَيَرْضَى لِرَضَاكِ**"[3] فهذا كذب، ما رووا هذا الحديث عن النبي صلى الله عليه وسلم ولا يعرف هذا في شيء في كتب الحديث المعروفة، ولا له إسناد معروف عن النبي صلى الله عليه وسلم ، ولا صحيح ولا حسن، ونحن إذا شهدنا لفاطمة بالجنة وبأن الله يرضى عنها فنحن لأبي بكر وعمر وعثمان وعلي وطلحة وسعيد وعبدالرحمن بن عوف بذلك نشهد ونشهد.ومن يرضى الله عنه ورسوله لا يضره غضب أحد من الخلق كائناً من كان."[4].

أورد المؤلف هذه النصوص الثلاثة من كلام شيخ الإسلام في كتابه السيئ "أخطاء ابن تيمية." وتعامل مع النص الأخير بطريقة سيئة؛ إذ أسقط من سياقه عبارة لها أثر كبير في المعنى العام. مع أنه قال قبل أن ينقل تلك النصوص: "قال ما نصه"!!.

---

(1) منهاج السنة النبوية(241/4).

(2) السابق (217/4).

(3) رواه الحاكم في المستدرك (4687)، والطبراني في الكبير (180)، وابن أبي عاصم في الآحاد والمثاني (2656)، والهيثمي في مجمع الزوائد (15204)، المتقي الهندي فىكنــز العمال (37728) "إسناده ضعيف" فيه الحسين بن زيد الهاشمي وهو ضعيف الحديث.

(4) منهاج السنة النبوية(248/4-249).

وكان من تعليقاته الغريبة أنه قال :" ماذا يضر ابن تيمية في أن الله يغضب لغضب فاطمة رضي الله عنها بضعة رسول الله ويرضى لرضاها."[1].

وهو تعليق في غاية السماجة، لأن ابن تيمية هنا يقرر مبدأ، ويدافع عن قضية هي من ثوابت هذا الدين، والجواب بمثل هذا التساؤل نشاز في الشكل والموضوع.

ولا يحق لأحد أن يزايد على البضعة النبوية المباركة بهذه الطريقة المنكرة، والتذرع بالدفاع عن الأشراف للنيل من الناس يعتبر تزيداً فاحشاً عليهم، وربما لو كانوا أحياء لأغضبهم أشد الغضب هذا التزيد المرفوض.

وعبثاً حاول (المؤلف!) تصحيح حديث: "**إِنَّ اللَّهَ يَغْضَبُ لِغَضَبِكِ، وَيَرْضَى لِرَضَاكِ** ".

ولا يمكن أن تسعفه هذه المحاولات اليائسة البائسة وعلق على النص الثاني قائلاً "ما هو هذا الأصل من أصول الإسلام الذي خالفه قول النبي صلى الله عليه وسلم "**اللَّهُمَّ وَالِ مَنْ وَلاهُ، وَعَادِ مَنْ عَادَاهُ**"[2].

هل هو الصلاة أم الزكاة أم الحج ؟ للأسف يفتح ابن تيمية الباب على مصراعيه للزنادقة "[3].

ويا له من تعليق عجيب مثير للدهشة !.

هل الكاتب لا يعرف من أصول الإسلام إلا الصلاة و الزكاة والحج، ؟! إن الأصل الذي يخالفه هذا الحديث هو أن الولاء والبراء يكون على أساس الحق لا الخلق، وهو أصل عريق من أصول الإسلام منبثق من أصل أعرق وهو: أن الحق لا يدور على الأشخاص، وإنما يوزن الأشخاص وتحدد مقاديرهم بحسب موافقتهم أو مخالفتهم للحق، وبدرجة قربهم أو بعدهم عن الحق. يقول الله عز وجل لأعظم شخص أقلته أرض وأظلته سماء: ﴿ **وَلَوْلَا أَن ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا ﴿٧٤﴾ إِذًا لَّأَذَقْنَاكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا**﴾ [الإسراء: 74-75] فلو فرض أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ركن إلى المشركين –وحاشاه– لذهب عنه ولاية الله ولحل به ما

---

(1) أخطاء ابن تيمية (ص51).

(2) الحاكم في المستدرك (5585) وهو بلفظ ولاه لا والاه.

(3) أخطاء ابن تيمية.

توعدت به الآية ولكنه صلى الله عليه وسلم معصوم من مخالفة الحق لذلك تولاه الله تعالى بالتثبيت والاستمساك بالحق والثبات عليه. ويقول الله عز وجل ﴿ **وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ** ﴾ [الزمر: 65].

ويقول سبحانه ﴿ **لَّن يَسْتَنكِفَ الْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ** ﴾ ويقول عز من قائل﴿ **وَقَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا ۗ سُبْحَانَهُ** ﴾ [البقرة: 116] ويقول سبحانه وتعالى مخاطباً الأمة كلها ﴿ **وَإِن تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُم** ﴾ [محمد: 38].

ويقول مخاطباً آدم في أول نـــزوله إلى الأرض ﴿ **قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ** ﴾ [البقرة: 38].

إلى غير ذلك من الآيات الكثيرة التي تقرر أن الحق هو الأصل الذي يوزن به كل شيء وكل شخص، وأنه لا يدور مع شخص لذات الشخص ولا لقرابته من أحد، وإنما الأشخاص يوزنون به، وأن أي شخص مهما كان إن ترك الحق تعرى عن ولاية الله تعالى وتعرض لعذابه وانتقامه.

هذه هي المحكمات، فإذا جاء نص متشابه كحديث "اللهم وال من والاه وعاد من عاداه" فعلى فرض صحته يجب تأويله وتفسيره في ضوء المحكمات، فنقول: معناه :اللهم وال من والاه على الإيمان والحق، وعاد من عاداه بسبب تمسكه بالحق. مع أن هذه الجملة لم تصح كما قال شيخ الإسلام.

المسلك الثالث: ومن المسالك الدقيقة التي سلكها ابن تيمية في رده على ابن المطهر، وفي عيبه على الشيعة أنه تصدى لغلوهم في حق علي وآل بيت النبي صلى الله عليه وسلم ، ولا يسلم من يقف هذا الموقف من أن يظن به التنقيص لمن وقع الغلو في حقهم.

وأضرب على ذلك مثالاً مما ساقه المؤلف ونقله عن ابن تيمية: يقول ابن تيمية رحمة الله عليه معترضاً على غلو الشيعة في الحسين رضي الله عنه :"ومن ذلك أن بعضهم لا يوقد خشب الطرفاء؛ لأنه بلغه أن دم الحسين وقع على شجرة من الطرفاء، ومعلوم أن تلك الشجرة بعينها لا يكره وقودها

ولو كان عليها من أي دم كان، فكيف بسائر الشجر الذي لم يصبه الدم"[1].

وهذا كلام لا غبار عليه، وليس فيه أدنى تنقيص للحسين رضي الله عنه، ولا يعتبر ترك جميع خشب الطرفاء تعظيماً له. ولا يمكن أن يأتي أحد بدليل على كراهية إيقاد هذا الخشب فضلاً عن أن يأتي بدليل على حرمته، ومن ثم لا يصح أن يتواطأ الناس على هذا؛ لأنه مدخل إلى الوثنية وعبادة الشجر بعد عبادة البشر.

ولكن المؤلف عندما ساق هذا النص اندفع في ثورة محمومة يطلق عباراته المعهودة التي ترعد وتبرق ولكن لا تبض بقطرة نافعة. من مثل قوله :

"هان على ابن تيمية دم الحسين"[2].

" استهتر به ابن تيمية وهان عليه دمه"[3].

"هل تظن أن الشجرة التي عليها دم الحسين يمكن أن توقد أصلاً"[4].

"أتظن لو تزندقت وأوقدت جزءاً من الشجرة التي سال عليها دم الحسين – ولن توقد – ترى أيحبك جد الحسين صلى الله عليه وسلم "[5]!!.

"هل يجوز لنا أن نقول: أحرق الله من يريد أن يحرق دم الحسين"[6].

ألا إنه الغلو المفرط الذي حذر الله تعالى منه ورسوله يقول الله عز وجل ﴿ **يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ** ﴾ [النساء: 171] ويقول ﴿ **قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ**﴾ ويقول صلى الله عليه وسلم "**وَإِيَّاكُمْ وَالْغُلُوَّ.. فَإِنَّمَا أَهْلَكَ مَنْ كَانَ**

(1) منهاج السنة النبوية(55/1).
(2) أخطاء ابن تيمية (ص 118).
(3) السابق (ص119).
(4) السابق (ص121).
(5) السابق (ص122).
(6) السابق (ص122).

قَبْلَكُمُ الْغُلُوُّ فِي الدِّينِ"[1].

ومن مظاهر غلو الشيعة في آل البيت: أنهم زعموا في كل واحد من هؤلاء الأئمة أنه أزهد وأعلم أهل زمانه، فدفع ابن تيمية هذه المزاعم، ومنها: أنهم زعموا أن أئمة الفقه الأربعة: أبا حنيفة ومالك والشافعي وأحمد أخذوا الفقه عن جعفر الصادق؛ فرد ابن تيمية قائلاً: "فهؤلاء الأئمة الأربعة ليس فيهم من أخذ عن جعفر الصادق شيئاً من قواعد الفقه، ولكن رووا عنه أحاديث كما رووا عن غيره، وأحاديث غيره أضعاف أحاديثه، وليس بين حديث الزهري وحديثه نسبة لا في القوة ولا في الكثرة، وقد استراب البخاري في بعض حديثه لما بلغه عن يحيى بن سعيد القطان فيه كلام فلم يخرج له، و لم يكذب على أحد ما كذب على جعفر مع براءته "[2].

إن هذا الغلو في آل بيت النبي صلى الله عليه وسلم مرفوض ولا يرضاه الله ولا رسوله ولا يرضاه كذلك آل البيت الكرام. ومن الملاحظ أن الغلو في آل البيت كان سمة لكثير من الفرق الضالة، وكان ستاراً لكثير من الهدامين في تاريخ الإسلام.

فهذا عبد الله بن سبأ الذي أشعل نار الفتنة في الأمة، ودبر لقتل أمير المؤمنين عثمان بن عفان رضي الله عنه تستر بالتشيع لعلي رضي الله عنه، وغلا فيه غلواً كبيراً، حيث زعم " أنه لم يمت، وأنه رفع إلى السماء، وأن الرعد صوته، والبرق تبسمه"[3] وادعى أنه سيرجع ويملأ الأرض عدلاً[4].

إلى غير ذلك من الترهات الفارغة.

والنصيريه الملاحدة نسبوا إلى علي أنه قال كنت ولياً وآدم بين الماء والطين، فهو عندهم خاتم الأولياء كما أن محمداً خاتم الأنبياء[5] ويعتقدون أن الحق يظهر بصورة علي وذريته ونطق بألسنتهم؛

(1) رواه النسائي في الصغرى (3023)، وابن ماجة في السنن (3028)، أحمد في المسند (3122)، وابن حبان في صحيحه (3959)، والطبراني في الكبير (12589)، وأبويعلى في مسنده (2398)، والبيهقى في الكبرى (8865)"صحيح".

(2) منهاج السنة النبوية(7/533-534).

(2) دراسات في الفرق والمذاهب القديمة والمعاصرة (ص10).

(4) السابق (ص53).

(5) السابق (ص67).

لذا سموا بالإلهية[1].

وهذا أحد الصوفية يوافق الشيعة في غلوهم فيقول: "أن علي بن أبي طالب أخذ البيعة الخاصة بطريق الله عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ولقن بها ابنه الحسن ثم الحسين"[2].

وأما ابن المطهر فهو على خطه لا يحيد عنه، يقول: "وأما المطاعن في الجماعة -يعني الصحابة- فقد نقل الجمهور منها أشياء كثيرة، حتى صنف الكلبي كتاباً في مثالب الصحابة و لم يذكر فيه منقصة واحدة لآل البيت"[3].

ومن تتبع أقوال الشيعة والصوفية فسيجد الكثير والكثير من الغلو الفاحش الخارج عن حد الاعتدال.

المسلك الرابع: ومن المسالك الدقيقة التي سلكها شيخ الإسلام في رده على ابن المطهر الشيعي أنه حاول أن يدفع عن آل البيت كثيراً مما نسبه إليهم الشيعة، من الأقوال والأفعال التي إن اطلع عليها من لا يعرف فضلهم وقدرهم فقد ينسبهم إلى النقصان، من ذلك أن ابن المطهر عندما زعم أن فاطمة رضي الله عنها أقسمت ألا تكلم أبا بكر وعمر رضي الله عنهما حتى تلقى رسول الله صلى الله عليه وسلم فتشتكي إليه، رد ابن تيمية على هذا الزعم الباطل قائلاً: "وكذلك ما ذكره من حلفها أنها لا تكلمه ولا صاحبه حتى تلقى أباها وتشتكي إليه أمر لا يليق أن يذكر عن فاطمة رضي الله عنها، فإن الشكوى إنما تكون إلى الله سبحانه وتعالى.." [4].

وبرغم أن الإجلال والإكبار للسيدة فاطمة رضي الله عنها ظاهر وواضح على عبارة ابن تيمية إلا أن الرغبة العارمة للتهجم عند المؤلف لم تتركه، فها هو يعلق على كلام شيخ الإسلام بهذا التعليق الطافح بالعدوانية: "جاوز ابن تيمية حدوده مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ومع السيدة فاطمة

(1) دراسات في الفرق والمذاهب القديمة والمعاصرة (ص107).
(2) جمهرة الأولياء (89/1).
(3) منهاج السنة النبوية(81/5).
(4) السابق (244/4).

رضي الله عنها، ومن هو ابن تيمية حتى يقرر للسيدة فاطمة الكاملة ما يليق أن تقوله وتفعله"[1].

وإنني أتعجب من هذا الأسلوب الذي يمارسه المؤلف على قرائه ! إن السياق ليس فيه البتة ما يدل على أن ابن تيمية يستنكر على فاطمة أو يقرر لها ما يليق ومالا يليق، إنما استنكار ابن تيمية ليس على فاطمة، ولم يقل ابن تيمية: "لا يليق أن يصدر عن فاطمة" وإنما قال: "لا يليق أن يذكر عن فاطمة" فهو إذن في موقف الدفاع عنها، وليس في موقف النقد والاستنكار لما تفعله.

هذه هي أهم المسالك التي سلكها ابن تيمية رحمه الله في رده على ابن المطهر الشيعي، وقد ثبت أنها مسالك دقيقة، والكلام فيها في غاية الحساسية، ويحتاج إلى سعة أفق ورحابة صدر وإلى رعاية للنص وأمانة علمية عند النقل، لكن الناقد (الشريف!) لم يستطع أن يرقى إلى مستوى النقد العلمي الصحيح، ولا أن يترسم خطى المنهج العلمي القويم، فكانت النتيجة أنه عبأ طيشاً في قراطيس، وراح ينثره على رؤوس الخلائق.

وتبقى ظاهرة الاجتزاء السيئ للنصوص، والقص المشوه لمعانيها ومقاصدها هي الأبرز في هذا الكتاب المشحون بالأعاجيب. عندي منها الكثير والكثير سوى ما ذكرنا، ولكنني أعرضت عنه خشية الإطالة.

وفي ختام هذا الفصل أذكر بما أوردته في بدايته من نصوص لابن تيمية فيها تعظيم لآل البيت وتعتبر هذه المحكمات في هذا الباب الخطير، فليرجع إليه القارئ الكريم ليزداد يقيناً مع يقينه أن شيخ الإسلام لم يكن إلا معظماً لآل البيت الكرام، وعارفاً لفضلهم وسبقهم.

---

(1) أخطاء ابن تيمية (ص31).

الفصل الثاني

الحقيقة المحمدية

من بين كل العقائد وجميع التصورات السائدة في الأرض اليوم تتميز العقيدة الإسلامية بالوضوح التام، والبساطة الشديدة، والانسجام الكامل مع العقل السليم والفطرة السوية، وهذا سر جمالها وكمالها، وبرهان صدقها وربانيتها.

فليس في هذه العقيدة- برغم قوتها- أدنى تعقيد، وليس فيها- برغم شمولها واتساعها- أقل شائبة التباس، وليس فيها -برغم عمقها وأصالتها وروعة تركيبها- شئ ولو قليل من (الطلسمة) أو الإغراب.

ذلك لأنها ليست من صنع البشر، وإنما هي ربانية المصدر، سماوية المنبع، وهي الحق الأبلج الصافي الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه.

هكذا جاءت من عند الله تعالى، سوية نقية، ليس فيها تكلف ولا تعقيد، ولا تخليط ولا تحريف، شأنها شأن النور القادم من السماء والغيث الهاطل من العلياء، قال تعالى: ﴿ **وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ** ﴾[الشورى: 52].

وما تدخلت يد البشر في شئ من هذه العقيدة بالتعديل أو التحوير إلا وكانت النتيجة الحتمية هي الفساد، وما فسد شيء من هذه العقيدة في يوم من الأيام إلا وكان السبب الرئيس هو التدخل البشرى فيما ليس للبشر فيه مدخل.

ولاشك أن التصور الإسلامي لشخص رسول الله صلى الله عليه وسلم ولمكانته ومنـــزلته، ولواجب المسلمين تجاهه جزء لا يتجزأ من العقيدة الإسلامية، وهو من ثم غاية في الوضوح والصفاء والنقاء، لم يلتبس ولم يختلط بشيء يخالف الفطرة السوية، ولم يَشُبْه ما شاب كثيراً من التصورات من خرافات وأباطيل.

فرسول الله صلى الله عليه وسلم بشر ككل البشر، يأكل ويشرب ويمشى في الأسواق: ﴿ **قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا** ﴾[الكهف: 110] ﴿ **وَقَالُوا مَالِ هَٰذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ لَوْلَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيرًا** ﴾[الفرقان: 7].

ولأنه بشر ككل البشر فهو محكوم عليه بالموت مثلهم:﴿ **إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ** ﴾[الزمر:31].

﴿ **وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ** ﴾[آل عمران: 144].

لم يكن رسول الله صلى الله عليه وسلم ملكا من الملائكة، و لم يدَّعِ ذلك، و لم يكن إلهاً ولا ابناً للإله: ﴿ **وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَن يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ إِلَّا أَن قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٤﴾ قُل لَّوْ كَانَ فِي الْأَرْضِ مَلَائِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَّسُولًا** ﴾[الإسراء: 94-95] ﴿ **مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِّي مِن دُونِ اللَّهِ وَلَٰكِن كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ ﴿٧٩﴾ وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَن تَتَّخِذُوا الْمَلَائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا ۗ أَيَأْمُرُكُم بِالْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ** ﴾[آل عمران: 79-80].

﴿ **إِن كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ ﴿٨١﴾ سُبْحَانَ رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ** ﴾[الزخرف: 81-82].

و لم يكن رسول الله صلى الله عليه وسلم يعلم من الغيب شيئاً إلا ما أطلعه الله تعالى عليه، و لم يكن يملك من خزائن الله ولا من أمره شيئاً إلا اتباعه لما أوحى إليه، و لم يكن بيده نفع ولا ضر لنفسه ولا لغيره، و لم يدَّع شيئاً من ذلك: ﴿ **قُل لَّا أَقُولُ لَكُمْ عِندِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ** ﴾[الأنعام:50] ﴿ **قُل لَّا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ ۚ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ ۚ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ** ﴾[الأعراف: 188].

حتى الهداية التي هي بمعنى تحريك القلوب و شرح الصدور وحمل العباد على الاهتداء فإنها ليست بيده، بل هي لله تبارك وتعالى وحده، إن عليه إلا البلاغ والتذكير، وما يملك إلا هداية الإرشاد إلى الحق و الدلالة على الصواب: ﴿ **إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ** ﴾[القصص: 56].

﴿ **مَن يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُّرْشِدًا** ﴾ الكهف:17].

﴿ **فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنتَ مُذَكِّرٌ ﴿٢١﴾ لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ** ﴾[الغاشية:21-22] ﴿ **نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ وَمَا أَنتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍ فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ** ﴾[قّ: 45].

وليس في كتاب الله تعالى ولا في حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم نص يشير من قريب أو بعيد إلى خلاف الحقيقة التي شهد بها الواقع، ونقلتها أجيال الأمة نقلا متواتراً من أن رسول الله صلى الله عليه وسلم بشر كسائر البشر، خلق مما خلق منه البشر، وعاش كما يعيش البشر، وكان يخضع كسائر البشر للنواميس الإلهية التي تحكم الطبيعة البشرية.

هذه هي الحقيقة التي ظهرت في كتاب الله وسنة رسول صلى الله عليه وسلم ظهوراً ليس معه غبش، وتبددت في سيرة النبي صلى الله عليه وسلم تبديا ليس دونه غموض، واستقرت في حياة الأمة وفي ضمير الأجيال استقراراً لا يشوبه أدنى قلق أو توتر أو اضطراب، إلا ما شاب بعض الجهال المخرفين الذين لا يمكن أن يحسبوا على الأمة إلا إذا أريد لها أن تلطخ سمعتها وتشوه صورتها.

وليس في هذا أدنى تنقيص لرسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ لأن الطبيعة البشرية ليست بذاتها سافلة، وإنما يأتيها السفول من الارتداد عما فطرها الله عليه من القيم: ﴿ **لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴿٤﴾ ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ ﴿٥﴾ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ** ﴾[التين:4-5].

ولأن مجرد التميز عن الطبيعة البشرية لا تتجلى فيه العظمة بقدر ما تتجلى في أن يسمو صاحب الطبيعة البشرية على سائر البشر بصفائه و شمائله، و أخلاقه وفضائله، وكمال عبادته لربه وطاعته لمولاه، وعظمة جهاده وجلاده؛ ولذلك جاوز رسول الله صلى الله عليه وسلم في رحلة

المعراج ما انتهي إليه جبريل الأمين .

كان بشراً -نعم - ولكنه امتاز عن سائر البشر، امتاز عنهم- ليس بطبيعة تتعارض مع الطبيعة البشرية- وإنما بالعصمة والاتصال، امتاز عن سائر البشر بأنه كان معصوماً من الزلل، موصولاً برب العزة عن طريق الوحي السماوي، كان بشرا ولكن يوحي إليه، وهذا هو الذي يميزه: ﴿ **قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا**﴾.

وما امتاز به رسول الله صلى الله عليه وسلم في الخَلْق إنما هو امتياز في إطار الطبيعة البشرية، فهو تميز وكمال بشرى لا يجاوز النواميس التي تحكم الطبيعة البشرية، فلقد وهب الله تبارك وتعالى رسول الله صلى الله عليه وسلم درجة عالية متميزة في خِلْقَته البشرية، فكان في هيئته على نحو فريد متميز، وقد نقل الصحابة والسلف أخباراً ترسم صورة بشرية رائعة للنبي صلى الله عليه وسلم ، من ذلك قول أنس رضي الله عنه: **كَانَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم ، أَحْسَنَ النَّاسِ قَوَامًا، وَأَحْسَنَ النَّاسِ وَجْهًا، وَأَحْسَنَ النَّاسِ لَوْنًا، وَأَطْيَبَ النَّاسِ رِيحًا، وَأَلْيَنَ النَّاسِ كَفًّا** .."[1].

وقول البراء بن عازب رضي الله عنه: "**مَا رَأَيْتُ مِنْ ذِي لِمَّةٍ أَحْسَنَ فِي حُلَّةٍ حَمْرَاءَ، مِنْ رَسُولِ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم ، شَعْرُهُ يَضْرِبُ مَنْكِبَيْهِ، بَعِيدَ مَا بَيْنَ الْمَنْكِبَيْنِ، لَيْسَ بِالطَّوِيلِ، وَلاَ بِالْقَصِيرِ**"[2].

وقول على **رضي الله عنه**:" **كَانَ عَظِيمَ الْهَامَةِ، أَبْيَضَ، مُشْرَبًا بِحُمْرَةٍ، عَظِيمَ اللِّحْيَةِ، ضَخْمَ الْكَرَادِيسِ، شَثْنَ الْكَفَّيْنِ وَالْقَدَمَيْنِ، طَوِيلَ الْمَسْرُبَةِ، كَثِيرَ شَعَرِ الرَّأْسِ رَجِلَهُ، يَتَكَفَّأُ فِي مِشْيَتِهِ كَأَنَّمَا يَنْحَدِرُ فِي صَبَبٍ، لاَ طَوِيلٌ، وَلاَ قَصِيرٌ، لَمْ أَرَ مِثْلَهُ لاَ قَبْلَهُ وَلاَ بَعْدَهُ صلى الله عليه وسلم**

(1) رواه الآجرى في الشريعة (1034)، وتاريخ دمشق لابن عساكر (1067)، والمتقي الهندي في كنز العمال (18555)"إسناده ضعيف"فيه حميد بن أبي حميد الطويل مدلس و لم يصرح بالسماع من شيخه، وباقي رجاله ثقات.

(2) رواه مسلم (4313)، والترمذي في السنن (1644)، أحمد في المسند (18191)، والآجري في الشريعة (1033)، والبيهقى في دلائل النبوة (175)"صحيح".

".[1]

وقول أم معبد: "**رَأَيْتُ رَجُلا ظَاهِرَ الْوَضَاءَةِ، أَبْلَجَ الْوَجْهِ، حَسَنَ الْخَلْقِ، لَمْ تَعِبْهُ ثَجْلَةٌ، وَلَمْ تُزْرِيهِ صَعْلَةٌ، وَسِيمٌ قَسِيمٌ. إِنْ صَمَتَ فَعَلَيْهِ الْوَقَارُ، وَإِنْ تَكَلَّمَ سَمَاهُ وَعَلاهُ الْبَهَاءُ، أَجْمَلُ النَّاسِ وَأَبْهَاهُ مِنْ بَعِيدٍ، وَأَحْسَنُهُ وَأَجْمَلُهُ مِنْ قَرِيبٍ..**"[2].

وقول هند بن أبي هالة: "**كَانَ فَخْمًا مُفَخَّمًا، يَتَلأْلأُ وَجْهُهُ تَلأْلُؤَ الْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ.. أَزْهَرَ اللَّوْنِ، صَلْتَ الْجَبِينِ.. مُفْلَجَ الأَسْنَانِ. كَأَنَّ عُنُقَهُ جِيدُ دُمْيَةٍ فِي صَفَاءِ الْفِضَّةِ.. سَوَاءَ الْبَطْنِ وَالصَّدْرِ، بَعِيدَ مَا بَيْنَ الْمَنْكِبَيْنِ، عَرِيضَ الصَّدْرِ.. ذَرِيعُ الْمِشْيَةِ كَأَنَّمَا يَنْحَطُّ مِنْ صَبَبٍ إِذَا الْتَفَتَ بِجُمَعِهِ، خَافِضُ الطَّرْفِ.. يَبْدَأُ مَنْ لَقِيَ بِالسَّلَامِ صلى الله عليه وسلم ..**" [3].

كل هذه الأوصاف الرائعة ترسم صورة لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولكنها بشرية، بل إن هذه الأوصاف تؤكد البشرية، وتؤكد أنه لا يوجد ما يخالف الطبيعة البشرية.

وبشرية النبي صلى الله عليه وسلم هي الأنسب لرسالته، فرسالته صلى الله عليه وسلم هي الهداية و التربية وتعبيد الخلق للخالق، وهذه المهمة العظيمة لا يمكن أن يقوم بها بمصداقية وواقعية إلا إنسان يعاني التجربة البشرية بتمامها، ويخوض غمار الصراع مع هواتف الجسد ونداء الشهوة ثم ينتصر ويسمو بمنهج الله تعالى؛ فيكون بذلك قدوة لبني جنسه، وتقوم به الحجة عليهم، وتتحقق به الأسوة لهم؛ لذلك.

قال الله عز وجل ﴿ **قُل لَّوْ كَانَ فِي الْأَرْضِ مَلَائِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَّسُولًا** ﴾[الاسراء:95].

---

(1) رواه أحمد في المسند (920)، وابن حبان في صحيحه (6446)، وابن أبي شيبة في المصنف (30137)، وأبويعلى في مسنده (364)، والآجري في الشريعة (1032)"إسناده ضعيف" لأن في الإسناد شريك بن عبد الله القاضي مدلس ولم يصرح بالسماع من شيخه وعبد الملك بن عمير بن سويد اللخمي مدلس ولم يصرح بالسماع من شيخه وبقية رجاله ثقات.

(2) رواه الحاكم في المستدرك (4218)، والطبراني في الكبير (3526)، والبيهقي في دلائل النبوة (255)، وابن سعد في الطبقات (535)، والهيثمي في مجمع الزوائد (9910)، والمتقي الهندي فيكنز العمال(46300) "إسناده ضعيف".

(3) رواه ابن حبان في الثقات (28)، والطبراني في الكبير (17905)، والبيهقي في الشعب (1405)، وأبو نعيم في دلائل النبوة (574)، وابن سعد في الطبقات (1119)، والمتقي الهندي فيكنز العمال(18535) "إسناده ضعيف".

فلو كان رسول الله صلى الله عليه وسلم مخلوقاً من النور كما يزعم بعض غلاة المخرفين، أو كان بطبيعة بشرية مخالفة لطبائع البشر كما يدعى بعض الأدعياء المحرفين، لما تحققت الحكمة من بعثته بتمامها، ولما تحقق فيه قول الله عز وجل : ﴿ **لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّـــهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا** ﴾.

أجل ما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا بشرا ككل البشر.

ولكن أيَّ بشر كان؟!.

نعم. أيَّ بشر كان بأبي هو وأمي؟!

لقد استحق رسول الله صلى الله عليه وسلم - وهو بشر- أن ينال من الخصائص ما لم يتح لأحد من الأولين والآخرين، فهو صلى الله عليه وسلم صاحب الشفاعة العظمى، والقام المحمود، والحوض المورود، وهو صاحب الوسيلة، وبيده لواء الحمد يوم القيامة، وهو سيد ولد آدم وأكرم الأولين والآخرين، عن أبى سعيد الخدرى رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: **"أَنَا سَيِّدُ وَلَدِ آدَمَ وَلا فَخْرَ، بِيَدِي لِوَاءُ الْحَمْدِ وَلا فَخْرَ، وَمَا مِنْ نَبِيٍّ يَوْمَئِذٍ آدَمَ فَمَنْ سِوَاهُ إِلا تَحْتَ لِوَائِي"**(1).

وقال صلى الله عليه وسلم لأصحابه وقد خرج عليهم وهم يتذاكرون خصائص الأنبياء: ". **أَلاَ وَأَنَا حَبِيبُ اللَّهِ وَلاَ فَخْرَ، وَأَنَا حَامِلُ لِوَاءِ الْحَمْدِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلاَ فَخْرَ، وَأَنَا أَوَّلُ شَافِعٍ وَأَوَّلُ مُشَفَّعٍ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلاَ فَخْرَ، وَأَنَا أَوَّلُ مَنْ يُحَرِّكُ حِلَقَ الْجَنَّةِ فَيَفْتَحُ اللَّهُ لِي فَيُدْخِلُنِيهَا وَمَعِي فُقَرَاءُ الْمُؤْمِنِينَ وَلاَ فَخْرَ، وَأَنَا أَكْرَمُ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ وَلاَ فَخْرَ"**(2).

وعن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : **"آتِي بَابَ الْجَنَّةِ يَوْمَ**

---

(1) رواه الترمذي في السنن (3093)، وابن ماجة في السنن (4306)، وأبويعلى في مسنده (4243)، والآجري في الشريعة (1093)، والبيهقى في الشعب (1455)،)، والمتقي الهندي فىكنـــز العمال (31882)، و الخطيب التبريزي في مشكاة المصابيح (5761) وفى صحيح التغيب "صحيح".

(2) رواه الترمذي في السنن (3579)، والدرامي في السنن (47)، والمتقي الهندي فىكنـــز العمال (31970)، و مشكاة المصابيح (5762)، و الكامل في ضعفاء الرجال (3665)"إسناد ضعيف" فيه زمعة بن صالح الجندي وهو ضعيف الحديث.

الْقِيَامَةِ، فَأَسْتَفْتِحُ، فَيَقُولُ الْخَازِنُ: مَنْ أَنْتَ ؟ فَأَقُولُ: مُحَمَّدٌ، فَيَقُولُ: بِكَ أُمِرْتُ، لاَ أَفْتَحُ لِأَحَدٍ قَبْلَكَ"[1].

وعن جبير بن مطعم رضي الله عنه قال :سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول:". **أَنَا مُحَمَّدٌ، وَأَنَا أَحْمَدُ، وَأَنَا الْمَاحِي الَّذِي يَمْحُو اللَّهُ بِيَ الْكُفْرَ، وَأَنَا الْحَاشِرُ الَّذِي يُحْشَرُ النَّاسُ عَلَى قَدَمِي، وَأَنَا الْعَاقِبُ"**[2] أي لا نبي بعدى. واستحق -وهو بشر- أن يُحتفي به قبل قدومه، وأن يتلون أفق الزمان بإرهاصاته قبل بزوغه، فهو دعوة إبراهيم، وبشرى عيسى، وهو مذكور في الكتب السابقة بصفاته وعلاماته ومكتوب في الأزل عبد الله وخاتم النبيين.يقول الله عز وجل على لسان إبراهيم وإسماعيل: ﴿ **رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ** ﴾[البقرة:129] ويقول على لسان عيسى عليه السلام ﴿**وَ إِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّـهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِن بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ ۖ فَلَمَّا جَاءَهُم بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَـٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ** ﴾[الصف:6].

وفى سورة الأعراف: ﴿ **الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ ۚ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ ۙ أُولَـٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ** ﴾[الأعراف: 157].

وعن خالد بن معدان أن قوماً من أصحاب الرسول صلى الله عليه وسلم قالوا يا رسول الله

---

(3) رواه مسلم (294)، أحمد في المسند (12169)، وأبوعوانة في مسنده (310)، و مسند عبد الله بن حميد (1380)، و الزهد لنعيم بن حماد (406)، وصفة الجنة لابن المبارك (230) والبيهقى في دلائل النبوة (2236)، والمتقي الهندي فىكنـــز العمال(31890)"صحيح".

(2) رواه البخاري(4544)، ومسلم (4347)، والترمذي في السنن (2786)، والدرامي في السنن (2690)، أحمد في المسند (16385)، وابن حبان في صحيحه (6448)، والطبراني في الكبير (1502)، وابن أبي شيبة في المصنف (30022)، ومالك في الموطأ(1826)، وأبويعلى في مسنده (7340)، الحميدي في مسنده (539)، وأبو نعيم في دلائل النبوة (19)، والبيهقى في دلائل النبوة (74)، والخطيب التبريزي في مشكاة المصابيح (5776)، والمتقي الهندي فىكنـــز العمال (32165)"صحيح".

أخبرنا عن نفسك، فقال:"**أَنَا دَعْوَةُ إِبْرَاهِيمَ، وَبَشَّرَ بِي عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ، وَرَأَتْ أُمِّي حِينَ وَضَعَتْنِي أنه خَرَجَ مِنْهَا نُورٌ أَضَاءَتْ لَهُ قُصُورُ الشَّامِ**"(1).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: سئل النبى صلى الله عليه وسلم مَتَى وَجَبَتْ لَكَ النُّبُوَّةُ ؟ قَالَ: "**بَيْنَ خَلْقِ آدَمَ وَنَفْخِ الرُّوحِ فِيهِ**"(2) وعن العرباض بن سارية رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: "**إِنِّي عِنْدَ اللَّهِ مَكْتُوبٌ خَاتِمُ النَّبِيِّينَ، وَإِنَّ آدَمَ لَمُنْجَدِلٌ فِي طِينَتِهِ**"(3).

واستحق – وهو بشر – أن يشهد له الوحي السماوي هذه الشهادات: ﴿ **وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ** ﴾[القلم: 4] ﴿ **لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ** ﴾[التوبة: 128] ﴿ **يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِّمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ ۚ قَدْ جَاءَكُم مِّنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُّبِينٌ** ﴾[المائدة: 15] ﴿**لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا**﴾[الأحزاب: 21].

واستحق –وهو بشر– أن يتولى الوحي السماوي حمايته والذب عنه والتنكيل بمن يتعرض له بسوء أو أذى؛ وذلك لما بلغ من المنــزلة عند رب العزة تبارك وتعالى، فها هو الوحي ينــزل منذراً بالتباب لمن قال له تباً لك: ﴿ **تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ** ﴾[المسد: 1] وعندما تطاول الملحد المعاند العاص بن وائل السهمي على رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال عنه: أبتر نــزل الوحى مواسياً

---

(1) رواه أحمد في المسند (16831)، والحاكم في المستدرك (4115)، والطبراني في الكبير (7629)، وابن الجعد في مسنده (3021)، وأبو نعيم في الحلية (8044)، والكامل في ضعفاء الرجال (6694)، والطبقات الكبرى لابن سعد (361)، والمتقي الهندي فىكنــز العمال (31829) "صحيح".

(2) رواه الحاكم في المستدرك (4150)، وأبو نعيم في دلائل النبوة (8)، والبيهقى في دلائل النبوة (460)، وابن حبان في الثقات (7)، والمتقي الهندي فىكنــز العمال (35484)، الخطيب البغدادي في تاريخ بغداد (892)، وابن عساكر في التاريخ (10351)" إسناده جيد".

(3) رواه أحمد في المسند (16831)، وابن حبان في صحيحه (6540)، والطبراني في الكبير (15058)، والآجري في الشريعة (964)، وأبو نعيم في الحلية (8044)، والبيهقى في الشعب (1366)، و الهيثمي في مجمع الزوائد (13845)، والطبقات الكبرى لابن سعد (356)، والمتقي الهندي فىكنــز العمال (31960)، والخطيب التبريزي في مشكاة المصابيح (5759) "صحيح".

رسول الله صلى الله عليه وسلم بالكوثر: ﴿ **إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ ﴿١﴾ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ ﴿٢﴾ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ** ﴾ [الكوثر: 1-3] وعندما اتهموه بالجنون نـــزل الوحي السماوي مدافعاً عنه ومؤكدا على منة ربه عليه: ﴿ **ن ۚ وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ﴿١﴾ مَا أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ﴿٢﴾ وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ ﴿٣﴾ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ** ﴾[القلم: 1-4].

واستحق – وهو بشر– أن تتهيأ قوى الطبيعة– بأمر الله– لتأديب من خالفه وأساء إليه، فعن عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أَنَّهَا قَالَتْ: لِلنَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم هَلْ أَتَى عَلَيْكَ يَوْمٌ كَانَ أَشَدَّ مِنْ يَوْمِ أُحُدٍ ؟، قَالَ: "**لَقَدْ لَقِيتُ مِنْ قَوْمِكِ مَا لَقِيتُ وَكَانَ أَشَدَّ مَا لَقِيتُ مِنْهُمْ يَوْمَ الْعَقَبَةِ إِذْ عَرَضْتُ نَفْسِي عَلَى ابْنِ عَبْدِ يَالِيلَ بْنِ عَبْدِ كُلَالٍ فَلَمْ يُجِبْنِي إِلَى مَا أَرَدْتُ فَانْطَلَقْتُ، وَأَنَا مَهْمُومٌ عَلَى وَجْهِي فَلَمْ أَسْتَفِقْ إِلاَ وَأَنَا بِقَرْنِ الثَّعَالِبِ فرفعت رأسي فإذا أنا بسحابة قد أظلتني فنظرت فإذا فيها جبريل فناداني فقال إن الله قد سمع قول قومك لك وما ردوا عليك وقد بعث الله إليك ملك الجبال لتأمره بما شئت فيهم فناداني ملك الجبال فسلم علي ثم قال يا محمد فقال ذلك فيما شئت إن شئت أن أطبق عليهم الأخشبين ؟ فقال النبي صلى الله عليه وسلم بل أرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يعبد الله وحده لا يشرك به شيئا**"[1] فلو شاء رسول الله صلى الله عليه وسلم أن ينتقم منهم لنفسه لتحركت الجبال الرواسي، ولتهدمت أم القرى على من فيها؛ ذلك لأن قدر رسول الله صلى الله عليه وسلم عند رب العزة عظيم.

وحسبه من الشرف أن يختاره الله ويصطفيه لأعظم مهمة في حياة البشرية، وهي الرسالة الخاتمة؛ فلا شك أن هذا الاصطفاء في حد ذاته شاهد على أنه صفوة الخلق، قال تعالى: ﴿ **وَإِذَا جَاءَتْهُمْ آيَةٌ قَالُوا لَن نُّؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللَّهِ ۘ اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ ۗ سَيُصِيبُ الَّذِينَ أَجْرَمُوا صَغَارٌ عِندَ اللَّهِ وَعَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا كَانُوا يَمْكُرُونَ** ﴾[الأنعام: 124].

---

(1) رواه البخاري(3011)، ومسلم (3355)، والنسائي في الكبرى (7410)، وابن حبان في صحيحه (6709)، والطبراني في الأوسط (9138)، وأبويعلى في مسنده (145)، وأبوعوانة في مسنده (5438)، الحميدي في مسنده (29)، وأبوداود الطيالسي في مسنده (23)، وأبو نعيم في دلائل النبوة (215)، والبيهقي في دلائل النبوة (2262)، والمتقي الهندي في كنـــز العمال (31982) "صحيح".

هذه المنـــزلة الرفيعة وهذه الرتبة السامية التي بلغها رسول الله صلى الله عليه وسلم لم تخرجه عن كونه بشرا، وعن كونه عبداً لله تبارك وتعالى، ولم تمنحه صفة من صفات الألوهية، ولا حتى مقاماً بين العبودية والألوهية؛ ذلك لأن العقيدة الإسلامية حاسمة وصارمة وواضحة وجلية في هذه المسألة، فمقام الألوهية لا يكون إلا لله تبارك وتعالى، ومقام العبودية لا يخرج عنه أحد مما سوى الله تبارك وتعالى، وليس بين المقامين مقام وسط، ولا بينهما التباس أو تداخل.

لذلك نجد أن المولى عز وجل في أرفع مقامات النبي صلى الله عليه وسلم يصفه بوصف العبودية تحديداً، ففي مقام الدعاء: ﴿ **وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا** ﴾[الجن: 19].

وفى مقام الإيحاء: ﴿ **فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَا أَوْحَىٰ** ﴾[النجم: 10] **وفي** مقام الإسراء ﴿ **سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا ۚ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ** ﴾[الإسراء: 1] وفى مقام التأييد والتعزيز بجند السماء: ﴿ **وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّـــهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ إِن كُنتُمْ آمَنتُم بِاللَّهِ وَمَا أَنزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ ۗ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ** ﴾[الأنفال: 41].

والنبى صلى الله عليه وسلم كان يشدد في حراسة هذه الحدود حتى لا تنتهك،وفى صيانة هذه الفواصل حتى لا تخترق؛ فها هوينهي ويحذر "**لاَ تُطْرُونِي كَمَا أَطْرَتِ النَّصَارَى ابْنَ مَرْيَمَ فَإِنَّمَا أَنَا عَبْدُهُ، فَقُولُوا: عَبْدُ اللَّهِ وَرَسُولُهُ**"[1] وعندما قال له أحد الصحابة" مَا شَاءَ اللَّهُ وَشِئْتَ " غضب وقال:" **أَجَعَلْتَنِي لِلَّهِ عَدْلا ؟ قُلْ: مَا شَاءَ اللَّهُ وَحْدَهُ**"[2] ولما نـــزل به مرض الموت طفق يردد

(1) رواه البخاري (3214)، والدرامي في السنن (2699)، أحمد في المسند (152)، وابن حبان في صحيحه (6374)، وأبويعلى في مسنده (145)، الحميدي في مسنده (29)، وأبوداود الطيالسى في مسنده (23)، والبزار في مسنده (211)، والترمذي في الشمائل(317)، والبيهقى في دلائل النبوة (2262)"صحيح".

(2) رواه النسائي في الكبرى (10340)، أحمد في المسند (2463)، والبخاري في الأدب المفرد (779)، والطبراني في الكبير (12840)، وابن أبي شيبة في المصنف (20235)، و مسند عبد الله بن المبارك (182)، والبيهقى في الكبرى (5386)، ابن

الوصية التي تحمى حمى التوحيد: "**لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى اتَّخَذُوا قُبُورَ أَنْبِيَائِهِمْ مَسَاجِدَ يُحَذِّرُ مَا صَنَعُوا**"(1)، **وكان يدعو "اللَّهُمَّ لا تَجْعَلْ قَبْرِي وَثَنًا يُعْبَدُ "**(2)، **وكان ينصح:" لا تَجْعَلُوا قَبْرِي عِيدًا** "(3).

ومن تأمل أسلوب الوحي السماوي في خطاب الرسول صلى الله عليه وسلم يجد توازناً دقيقاً بين رعاية حق النبي صلى الله عليه وسلم وبين صيانة مقام الألوهية عن الالتباس بغيره.فإذا كان القرآن الكريم يحدثنا عن شخص رسول الله صلى الله عليه وسلم جاء الأسلوب يفيض رحمة وحناناً وعطفاً ورعايةً، ، وإذا كان بصدد تقرير المبادئ جاء الأسلوب شديد الصرامة حاسماً قاطعاً، بشكل قد يكون فيه في بعض ا؟لأحيان بعض الشدة على رسول الله صلى الله عليه وسلم .

فمن النوع الأول هذه الطائفة من الآيات التي تفيض حناناً، وتسيل رحمة ومواساة، وتتدفق رفقاً ووداً: ﴿ **وَالضُّحَىٰ ﴿١﴾ وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ ﴿٢﴾ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ﴿٣﴾ وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَىٰ ﴿٤﴾ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ** ﴾[الضحى: 1-5]. ﴿ **أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ﴿١﴾ وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ﴿٢﴾ الَّذِي أَنقَضَ ظَهْرَكَ** ﴾[الشرح: 1-3] ﴿ **إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ ﴿١﴾ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ ﴿٢﴾ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ** ﴾[الكوثر: 1:3] : ﴿ **ن ۚ وَالْقَلَمِ وَمَا**

السني في عمل اليوم و الليلة (662)، والبوصيري في إتحاف الخيرة المهره بزوائد المسانيد العشرة (5282)، و في السلسلة الصحيحة (1093)"حسن".

(1) رواه البخاري (3220)، ومسلم (828)، والنسائي في الكبرى (6830)، والدرامي في السنن (1372)، أحمد في المسند (1814)، وابن حبان في صحيحه (6769)، والطبراني في مسند الشاميين(3075)، وابن أبي شيبة في المصنف (7308)، وعبد الرزاق في المصنف (1531)، وأبي يعلى في مسنده (6642)، وأبي عوانة في مسنده (912)، وأبي داود الطيالسى في مسنده (665)، و الطحاوي في مشكل الآثار (4155)، والبيهقى في الكبرى (3947)، مسند إسحاق بن راهويه (265)، ابن سعد في الطبقات (2050)، "صحيح".

(2) رواه أحمد في المسند (7185)، وابن أبي شيبة في المصنف (7305)، وعبدالرزاق في المصنف (1530)، ومالك في الموطأ(415)، وأبويعلى في مسنده (6642)، والحميدي في مسنده (990)، الطبقات الكبرى لابن سعد (2054)، وأبو نعيم في الحلية (11054)، وابن سعد في الطبقات (2059)، مشكاة المصابيح للتبريزى (750)"صحيح".

(3) رواه أبوداود (1749)، وأحمد في المسند (8606)، والبزار في مسنده (492)، والطبراني في الأوسط (8248)، وابن أبي شيبة في المصنف (11381)، وعبدالرزاق في المصنف (6557)، وأبويعلى في مسنده (460)، وأبو نعيم في الحلية (8856)، والبيهقى في الشعب (3980)، مشكاة المصابيح (926) "صحيح".

يَسْطُرُونَ ﴿١﴾ مَا أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ﴿٢﴾ وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ ﴿٣﴾ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾[القلم: 1-4].﴿ **وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ ۚ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ**﴾[النحل: 127] ﴿ **وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا ۖ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ**﴾[الطور: 48] ﴿ **إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ﴿١﴾ لِّيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا** ﴾[الفتح: 1-2] ﴿ **يا أَيُّهَا الرَّسُولُ لَا يَحْزُنكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ**﴾ [المائدة: 41] ﴿ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ ۖ إِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ ﴾[النمل: 79] ﴿ **لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ** ﴾[الشعراء: 3] ﴿ **فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰ آثَارِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا بِهَٰذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا** ﴾[الكهف: 6-7] ﴿ **أَفَمَن زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا ۖ فَإِنَّ اللَّـهَ يُضِلُّ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ ۖ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ** ﴾[فاطر: 8] ﴿ **فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ ﴿٩٤﴾ إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ ﴿٩٥﴾ الَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ اللَّـهِ إِلَـٰهًا آخَرَ ۚ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ﴿٩٧﴾ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ السَّاجِدِينَ ﴿٩٨﴾ وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ** ﴾[الحجر: 94-99].

إن من تأمل هذه الآيات وأمثالها- وهي كثيرة في القرآن- سيشعر بأن القرآن الكريم ينسم على قلب رسول الله صلى الله عليه وسلم بنسمات الرحمة والأمل الكبير.ويربت على فؤاده بحب وحنان، ويمسح آلامه وينفض عنه الأسى والحزن، وينسيه كل ما يعانيه في طريق الدعوة الشاق وهذا إنما يدل على احتضان الوحى لمن حاز الرتبة العليا والمنـــزلة الرفيعة والمقام المحمود صلى الله عليه وسلم .

وعلى الجانب الآخر نجد الآيات التي تقرر المبادئ والأسس التي لا يصح أن تلتبس على الناس، والتي لا يقررها إلا من له حق التقرير وهو الله تبارك وتعالى وحده. نجد هذه الآيات فيها صرامة وصراحة، وفيها حزم وحسم، وفيها نوع شدة ترسم حداً فاصلاً وتضع خطاً بارزاً ليبقى مقام الألوهية مهاب الجانب.

ولنتأمل على سبيل المثال هذه الطائفة من الآيات: ﴿ **وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ**

لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٦٥﴾ بَلِ اللَّـهَ فَاعْبُدْ وَكُن مِّنَ الشَّاكِرِينَ ﴾[الزمر: 65-66] ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّـهَ وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ ۗ إِنَّ اللَّـهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١﴾ وَاتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۚ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿٢﴾ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلًا ﴾[الأحزاب: 1-3] ﴿ وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ ﴿٤٦﴾ فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ ﴾[الحاقة: 44-47] ﴿ وَإِن كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُ ۖ وَإِذًا لَّاتَّخَذُوكَ خَلِيلًا ﴿٧٣﴾ وَلَوْلَا أَن ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا ﴿٧٤﴾ إِذًا لَّأَذَقْنَاكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا ﴾[الإسراء: 73-75] ﴿ وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ ۖ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴾[الأنعام: 52] ﴿ فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا ۚ إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١٢﴾ وَلَا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴾[هود: 112-113] ﴿ اتَّبِعْ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٦﴾ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكُوا ۗ وَمَا جَعَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ۖ وَمَا أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ ﴾[الأنعام: 106-107] ﴿ وَلَئِنْ أَتَيْتَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ مَّا تَبِعُوا قِبْلَتَكَ ۚ وَمَا أَنتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ ۚ وَمَا بَعْضُهُم بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ ۚ وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُم مِّن بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ ۙ إِنَّكَ إِذًا لَّمِنَ الظَّالِمِينَ ﴾[البقرة: 145].

والدقة تبلغ منتهاها عندما يجتمع الاتجاهان في موضع واحد: اتجاه الاحتضان والرعاية لرسول الله صلى الله عليه وسلم والإكرام لشخصه الكريم، واتجاه اللهجة الحاسمة واللغة الصارمة في تقرير المبادئ، فعلى سبيل المثال في سورة الأنعام تعالج الآيات قضية مطالبة المشركين رسول الله صلى الله عليه وسلم بآيات ومعجزات حسية، واستشراف الرسول صلى الله عليه وسلم لأن يحقق الله تعالى لهم ما طلبوه لشدة معاناته من تكذيبهم وشدة لهفته على هدايتهم، فتبدأ الآيات بتهدئة نفس النبى صلى الله عليه وسلم وإعطائه الثقة بنفسه، والشهادة له بالصدق، والمواساة والتصبير والتثبيت، ثم

يأخذ السياق في الشدة شيئاً فشيئاً؛ منتقلاً إلى مجال تقرير المبدأ؛ إذ ليس لأحد أن يقترح على الله تعالى شيئاً ولو من باب الحرص على هداية الخلق، فيقول الله تعالى في سورة الأنعام ﴿ **قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ ۖ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَـٰكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّـهِ يَجْحَدُونَ ﴿٣٣﴾ وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا وَأُوذُوا حَتَّىٰ أَتَاهُمْ نَصْرُنَا ۚ وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللَّـهِ ۚ وَلَقَدْ جَاءَكَ مِن نَّبَإِ الْمُرْسَلِينَ ﴿٣٤﴾ وَإِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنِ اسْتَطَعْتَ أَن تَبْتَغِيَ نَفَقًا فِي الْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِي السَّمَاءِ فَتَأْتِيَهُم بِآيَةٍ ۚ وَلَوْ شَاءَ اللَّـهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَىٰ ۚ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ** ﴾[الأنعام: 33-35].

هذه هي حقيقة الرسول صلى الله عليه وسلم كما صورها القرآن الكريم، وصورتها السنة المطهرة، وهي كما أسلفنا واضحة ليس فيها غبش، وسهلة ليس فيها تعقيد، وبسيطة ليس فيها طلسمة، ومباشرة ليس فيها تحوير.فهل هذه الحقيقة هي التي عناها الصوفية وهم يطلقون مصطلحهم المشهور: (الحقيقة المحمدية) ؟.

إنّ الذي تصرح به كتب الصوفية وتدندن حوله شئ مختلف تمام الاختلاف عما سبق بيانه من حقيقة الرسول صلى الله عليه وسلم في الكتاب والسنة، و إنّ (الحقيقة المحمدية) عند الصوفية شئ مباين تمام المباينة لما عرفته الأمة وتناقلته أجيالها عن صورة النبى صلى الله عليه وسلم وحقيقته، من تأملها خيل إليه أنهم لا يتحدثون عن رسول الله وخاتم النبيين محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم ، وإنما يتحدثون عن حقيقة وهمية كتلك التي رمز إليها أفلوطين بالعقل الفعال، أو كتلك الصورة التي رسمها خيال النصارى للمسيح وأسموه :الرب يسوع ابن الله.

وحتى لا نتجنى عليهم؛ فهذه –على سبيل التمثيل – قطوف من أقوالهم التي تغص بها كتبهم:

"الحقيقة المحمدية ضامة لجميع الذوات، هادية بأمر الله، لا تحدث أمراً إلا بإذنه، وهي قديمة قدم الخالق، وهي خلق دون إيجاد، إذ هي الوجه المتعين للنور الأول"[1].

"الحقيقة المحمدية أو الإنسان الكامل، فالإنسان صورة الحق من التنـــزيه والتقديس عن

---

(1) النصوص في مصطلحات الصوفية (محمد غازى)نقلاً عن العقائد الصوفية في ضوء الكتاب والسنة لمحمود المراكبى ص.

الشوب في حقيقته، فهو المألوه المطلق، والحق سبحانه هو الإله المطلق، وأعنى بهذا كله: الإنسان الكامل"(1).

"الحقيقة المحمدية أو الروح المحمدى هو المظهر الكامل للذات الإلهية والأسماء والصفات "(2).

"اعلم أن الإنسان الكامل (الحقيقة المحمدية) هو الذي يستحق الأسماء الذاتية و الصفات الإلهيه استحقاق الأصالة والملك، بحكم المقتضى الذاتى"(3).

و من تصفح كتبهم وجد الكثير والكثير من مثل هذا الدجل المدبج بالألغاز الفلسفية و(الطلاسم) اللاهوتية.

واللافت للنظر أنّ الصوفية قالوا مثل هذا وأكثر منه عن الأولياء، بل إن الدارس لأقوالهم يشعر بأن كلامهم عن الأئمة والأولياء هو الأصل القديم وأن كلامهم عن الحقيقة المحمدية جاء لإحداث التوازن والتناسق في الصورة العامة، شأنهم في ذلك شأن الشيعة "وكأن الصوفية لم يستسيغوا أن يقال: إن رسول الله صلى الله عليه وسلم هو كما وصفه القرآن الكريم بشراً رسولاً، وهم جعلوا أقطابهم تتصف بما وصف الله به نفسه، فكيف برسول الله صلى الله عليه وسلم ، فابتدعوا ما أسموه (الحقيقة المحمدية)"(4).

وليتهم -إذ ابتدعوها- وضعوا لها معالم بارزة حتى لا يزاد عليها ولا ينقص منها، ولكنهم -مع ذلك- تركوها مرنة فضفاضة ذات طبيعة (مطاطية) يشكلها كل صوفى حسبما يوحى إليه خياله المريض، وينفخ فيها كل (مهلوس) بقدر ما يوجد به صدره من الأوهام والوساوس والظنون؛ فتضاعف -لأجل ذلك -الغلو في (الحقيقة المحمدية) إلى حد يزرى بالعقل ويشوه الحق، ويشمت العدو في دين الله، ويفتح الباب على مصراعيه لكل طاعن وكل متربص.

وهذه أيضاً نماذج لما انتهت إليه أقوال الصوفية في (الحقيقة المحمدية)؛ أسوقها لأبين إلى أى مدى صنع الغلو بعقول هؤلاء المخرفين:

---

(1) الفتوحات المكية لابن عربى (603/2).
(2) السابق (97/2).
(3) الإنسان الكامل لعبد الكريم الجيلى (77/2).
(4) الصوفية نشأتها وتطورها(ص57).

"لا يدرى لحقيقته غاية، ولا يعلم لها نهاية، فهو من الغيب الذي نؤمن به"[1].

"شأن محمد في جميع تصرفاته شأن الله، فما الوجود إلا محمد"[2].

"اعلم أن أنوار المكونات كلها من عرش وفرش وسماوات وأرض وجنات وحجب، وما فوقها وما تحتها إذا جمعت كلها وجدت بعضاً من نور النبى، وإن مجموع نوره لو وضع فوق العرش لتهافت، ولو جمعت المخلوقات كلها ووضع ذلك النور العظيم لتهافتت وتساقطت"[3].

"لما خلق النور جمع في هذا النور المحمدى جميع أرواح الأنبياء والأولياء جمعاً أحدياً، قبل التفصيل في الوجود العينى، وذلك في مرتبة العقل الأولى"[4].

"إن العقل المنسوب إلى محمد صلى الله عليه وسلم خلق الله منه جبريل في الأزل، فكان محمد صلى الله عليه وسلم أباً لجبريل، وأصلاً لجميع العالم، وسمى العقل الأول بالروح الأمين لأنه خزانة علم الله"[5].

هذا هو التصور الصوفي للحقيقة المحمدية كما تنطق بها كتبهم، وترسم معالمها أقوالهم.هذا التصور المريض ترتب عليه في واقع الصوفية دواهي شركية، أذكر منها على سبيل المثال ما يلى:

"أما شأن محمد صلى الله عليه وسلم فإنه حي في قبره منعم، متصرف كتصرفه حال حياته، متصرف وهو فيه بالعالم العلوي والسفلي"[6].

"وإن من وجودك الدنيا وضـــرتها ومن علومك علم اللوح والقلم"[7]

"فلذا إليك الخلق تفـــزع كلـــهم والقلـــــــــــــــــــــــم"[7]

وإذا دهتـــــهم كربـــة فرجتــــها في هذه الدنيا وفى اليوم الأهـــم

---

(1) النفحات الأقدسية للبيطار (ص11).

(2) السابق (ص9).

(3) الإبريز للدباغ (84/2).

(4) الرماح لعمر بن سعيد التيجانى (247/1).

(5) الإنسان الكامل (92/2).

(6) نور الإيضاح للصيادى (ص14)، نقلا عن كتاب الرفاعية لعبد الرحمن دمشقية (ص136).

(7) بردة المديح للبوصيرى (ص35)ط مطبعة المشهد الحسيني.

حتى سوى العقلاء في ذاك انتظم

جد لي فإن خـــزائن الـــرحمن في يدك اليمنى وأنت أكرم من قسم"[1]

"يا أكرم الرسل ما لى من ألوذ به سواك عند حلول الحادث العمم"

وهكذا انتهت الصوفية بغلوها في الحقيقة المحمدية إلى أبلغ وأبعد مما انتهي إليه النصارى بغلوهم في الطبيعة اليسوعية، وانهدم الجدار الفاصل وذاب البون الشاسع بين مقامى الألوهية والعبودية.ولا نحسب هذا التردى إلا امتدادا للوثة تأليه البشر التى أصابت مَن قبلنا مِن الأمم.

يقول الدكتور زكى مبارك: "إن الحقيقة المحمدية ترجع في أصولها إلى العقائد النصرانية، وعلى ذلك تكون الحقيقة المحمدية عند غلاة الصوفية مأخوذة من أصول نصرانية، فعيسى هو ابن الله، ومعنى ذلك فيما افترض أنه الصلة بين الله وبين الوجود أن محمداً أول التعيينات، وليس فوقه إلا الذات الأحدية "[2].

ويقول أيضاً: "والواقع أن الحقيقة المحمدية أسطورة من الأساطير هي في رأينا مأخوذة من النظرية النصرانية، كما أن النظرية النصرانية مأخوذة من الفلسفة اليونانية"[3].

هكذا انتهي الأمر بعقيدة الصوفية في رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهكذا راح غلاتهم يترسمون خطا الذين ضلوا من قبل (حذو القذة بالقذة) ويضاهئون قول الذين كفروا من قبل من أهل الكتاب، مثلما كان أهل الكتاب – بقولهم في المسيح – يضاهئون قول الذين كفروا من قبلهم من الهندوس والبوذيين والمعتنقين لفلسفة أفلوطين، ولا يزال القرآن الكريم يكشف لنا مسلسل التردى: ﴿ **وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّـهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ۖ ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَاهِهِمْ ۖ يُضَاهِئُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَبْلُ ۚ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ ۚ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ** ﴾[التوبة:30].

ولا ندرى إذا ما كان الدكتور صبيح قد انتهي إلى ما انتهت إليه الصوفية الغالية أم لا، فهو لم يصرح بمثل ما صرحوا به من تلك الشركيات، إلا أنه تكلم عن الحقيقة المحمدية، وأكد في أكثر من

(1) المستجيرة لأحمد الحلواني في رسالته (ص14).

(2) التصوف الإسلامي في الأدب والأخلاق (210/1) نقلاً عن :مظاهر الانحرافات العقدية عند الصوفية (393/1).

(3) السابق (279/1).

موضع من كتابيه على فكرة التميز والاختلاف بين بشرية النبى صلى الله عليه وسلم وبشرية الناس وزعم أنه مخلوق من نور، وأنه أول الخلق، وتبنى أغلب الأصول التى تتبناها الصوفية في هذه المسألة، واستشهد عليها بأدلة مزيفة، وهذه بعض أقواله:

"وإن كنا نعتقد أنه أول الخلق، وأول النبيين في الخلق، وأول الناس في الخلق، وأنه كان نبياً وآدم بين الروح والجسد "[1].

"فلا يستهوينكم السفهاء أعداء رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وتنـــزلقون في رفضهم كون النبي صلى الله عليه وسلم أول خلق الله، وأنه نور، بدعوى أن ذلك من الغلو"[2].

"بمعنى أن النبى صلى الله عليه وسلم بشر مثلنا، وهذا معناه أنه خلق من أب وأم في أخر المطاف، وهذا لا ينتفي أنه خلق من نور"[3].

"الإيمان بأن خصوصيته ليس لها حدود، وأن بشريته تختلف عن بشرية الخلق، وهذا هو إيمان أهل الله "[4].

"واعلم أن عامة أهل الله يعتقدون أن النبي صلى الله عليه وسلم نور في جسد "[5].

"الجسد المحمدي فيه الروح المحمدية داخله وخارجه، وفيه النور المحمدى داخله وخارجه، وفيه الحقيقة المحمدية داخل الجسد وخارج الجسد، كتأثير شعاع الشمس الخارج من الشمس، فالجسد والهيكل والروح والذات والنور والحقيقة والسر المحمدى لا يعلمه إلا من صلى عليه بنفسه صلى الله عليه وسلم رب العزة جل جلاله "[5].

هذه هي أقواله، ويبدو عليها التحفظ الذي لم يفلح في تلميع الصورة، ويبدو عليها كذلك (الطلسمة) والإغراب. ومن تأمل هذه الأقوال تبين له أن الرجل يتبنى في الجملة أصول الصوفية في

(1) خصوصية وبشرية النبى (ص167).
(2) السابق (ص168).
(3) خصوصية وبشرية النبى (ص165).
(4) السابق (ص162).
(5) السابق (ص167).
(5) السابق (ص168).

هذه المسألة :(الحقيقة المحمدية) بصرف النظر عما ترتب على هذه الحقيقة السرابية من غلو عند بعض الغلاة؛ فلسنا مطالبين بالتنقيب عما لم يبد من الناس.

وأصول الصوفية في مسألة (الحقيقة المحمدية)، والتي تبناها في الجملة السيد صبيح تتلخص في الآتي:

1- الاعتقاد بأن بشرية النبي صلى الله عليه وسلم ليست كبشرية الناس وأن طبيعته تختلف عن الطبيعة البشرية العامة في أصل الخلقة.

2- الاعتقاد بأن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان أصله من نور.

3-الاعتقاد بأن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان أول الخلق.

4- الاعتقاد بأن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان غاية الوجود، ولولاه ما خلق الله الخلق.

وسوف أتناول الأصول السابقة - دون أن ألتزم بالترتيب السابق - بشيء من البيان والتفصيل، مع بيان لموقف الدكتور صبيح منها، واعتراضاته على شيخ الإسلام فيما لم يوافق فيه ما ذهب إليه. وسوف ألتزم الإيجاز بقدر الإمكان؛ لأن الركض وراء مزاعم الدكتور صبيح في كل فج بعيد يسلكه مضيعة للوقت، وتبديد للطاقة، بغير فائدة نرجع بها.

الأصل الأول: يعتقد الصوفية بأن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان أول الخلق، وأن خلقه كان قبل آدم، بل يعتقد معظمهم أنه كان مبدأ العالم، وأن خلقه كان قبل خلق العالم كله، وهم متفاوتون في تعبيراتهم عن هذه الفرية، يقول ابن عربي في فتوحاته "بدأ العالم ومثاله الهباء والحقيقة المحمدية..فلم يكن أقرب إليه تعالى قبولاً من ذلك الهباء إلا حقيقة محمد صلى الله عليه وسلم المسماة بالعقل، فكان سيد العالم بأسره وأول ظاهر في الوجود "[1].

ويقول الحلواني في قصيدته المستجيرة:

"أنشأك نوراً ساطعاً قبل الورى		فرداً لفرد والبرية في العدم
ثم استمد جميع مخلوقاته		من نورك السامي فيا عظم الكرم"[2]

(1) الفتوحات المكية (2/226-227).

الكـــــــــــــــــــــــــرم"(1)

والدكتور صبيح في كتابه تبنى هذا الأصل الفاسد، وإن كان لم يتبجح بما تبجح به غلاة الصوفية، ولكنه أطال في كتابه الأول :(أخطاء ابن تيمية.) في الاستدلال لهذا الأصل وفى الرد على شيح الإسلام، بينما في الكتاب الثاني: (خصوصية وبشرية النبي) وجدنا له كلاماً يشعر بشيء من التردد وقدر من التراجع، فهو يقول –مثلاً–: "فمن الناس من قال إن أول المخلوقات العرش وبعضهم قال القلم، وبعضهم قال اللوح وبعضهم قال الماء وبعضهم قال النور، وبعضهم قال :كل هذه الأشياء بعد النبي صلى الله عليه وسلم ولكل مستنده"(2).

ولا ندرى مَن مِن أهل العلم قال بأن كل هذه الأشياء خلقت بعد النبي صلى الله عليه وسلم وما هو مستنده، ولكن يبدو أن الدكتور صبيح غلب عليه هنا شعور داخلي بأن هذا الاعتقاد لا ينتسب إلى أهل العلم؛ لذلك قال "من الناس" و لم يقل من العلماء، كما يبدو أيضاً أنه اندفع في كتابه الأول اندفاعاً أذهله عما أطبق عليه العلماء؛ مما جعل لكلامه سوأة أحب أن يزفف عليها في كتابه الثاني ويخصف عليها من جملة الملتوية.

والعجيب الغريب الذي يثير الضحك أنه في كتابه الأول أورد ضمن ما استدل به نصاً من إنجيل برنابا فيه أن المسيح بشر بنبي خلق قبله وسيأتي بعده، ولا أدرى كيف سمح لنفسه أن يستشهد في قضية إسلامية بنص من إنجيل برنابا، إن إنجيل برنابا ليس حجة بعد أن دلنا القرآن على تحريف أهل الكتاب لكتابهم، وليس عندنا دليل على أن إنجيل برنابا هو النص الصحيح للإنجيل الذي أنـــزله الله سبحانه وتعالى على عيسى عليه السلام، ومن ثم فلا يصح –مطلقاً – الاستدلال به على قضية إسلامية، ولكن يستدل به على النصارى، وذلك من جهة أنه معارض لما في كتبهم من التثليث وتأليه المسيح، فيقال لهم :إما أن تقروا بما جاء به هذا الإنجيل فترجعوا عن عقيدتكم أو تحكموا على أنفسكم بالكفر الصراح، وإما أن تسلموا بسقوط الاحتجاج بكل الأناجيل –بما فيها برنابا– حيث

(1) نقلاً عن هذه هي الصوفية (ص111).
(2) خصوصية وبشرية النبي (ص168).

إنها جميعاً متناقضة، وليس فيها ما هو أولى بالثبوت التاريخي من الآخر.

ويستدل الصوفية على أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أول الخلق ببعض الأحاديث، ويشاركهم في الاستدلال بـــأكثرها الدكتور صبيح، وهذه هي أدلتهم

1- حديث: "**كُنْتُ أَوَّلَ النَّبِيِّينَ فِي الْخَلْقِ وَآخِرَهُمْ فِي الْبَعْثِ**"(1).

2- حديث ميسرة الفجر قال: "سألت النبي صلى الله عليه وسلم : مَتَى كُنْتَ نَبِيًّا ؟ قَالَ: "**وَآدَمُ بَيْنَ الرُّوحِ وَالْجَسَدِ**"(2).

3-عن أبي هريرة رضي الله عنه قال :سئل النبي صلى الله عليه وسلم : : مَتَى وَجَبَتْ لَكَ النُّبُوَّةُ ؟ قَالَ: "**بَيْنَ خَلْقِ آدَمَ وَنَفْخِ الرُّوحِ فِيهِ** " (3).

4-عن العرباض بن سارية قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول :" **إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ وَخَاتَمُ النَّبِيِّينَ، وَإِنَّ آدَمَ لَمُنْجَدِلٌ فِي طِينَتِهِ**"(4).

5- عن سعيد بن راشد قال: "سألت عطاء :هل كان النبي صلى الله عليه وسلم نبياً قبل أن يخلق، قال: إي والله، وقبل أن تخلق الدنيا بألفي عام مكتوباً أحمد"(5).

---

(1) الطبراني في مسند الشامين (2609)، ودلائل النبوة لأبي نعيم (3)، و الكامل في ضعفاء الرجال (3798)، وتذكرة الموضوعات للفتني (568)، و الفوائد المجموعة للشوكاني (1011)، والأسرار المرفوعة في الأخبار الموضوعة (352)، وابن ابى حاتم في التفسير (16761)، و الضعيفة (661)"إسناده ضعيف" لأن في الإسناد قتادة بن دعامة السدوسي مدلس ولم يصرح بالسماع من شيخه والحسن البصري مدلس ولم يصرح بالسماع من شيخه والإسناد فيه أحمد بن محمد بن يحيى الحضرمي وهو ضعيف الحديث وسعيد بن بشير الأزدي وهو ضعيف الحديث.

(2) رواه الترمذي في السنن (3572)، أحمد في المسند (20104)، والحاكم في المستدرك (4149)، والطبراني في الكبير (17257)، وابن أبي شيبة في المصنف (34817)، وعبدالله بن أحمد في السنة (767)، وابن أبي عاصم في السنة (328)، والطحاوي في مشكل الآثار (5259)، والروياني في مسنده (1533)، والدارقطني في السنن ()، والآجري في الشريعة ()، وأبو نعيم في الحلية (10054)، والبيهقى في دلائل النبوة (37)، ابن سعد في الطبقات (8438)"صحيح".

(3) الحاكم في المستدرك (4150)، والآجري في الشريعة (962)، البيهقى في دلائل النبوة (460)، وأبو نعيم في دلائل النبوة (8)، ابن حبان في الثقات (7)"إسناده حسن".

(4) رواه ابن حبان في صحيحه (654)، أحمد في المسند (16831)، والطبراني في مسند الشاميين (1928)، وابن أبي عاصم في السنة (327)، والآجري في الشريعة (964)، البيهقي في الشعب (1366)، وأبو نعيم في الحلية (8044)، وابن سعد في الطبقات (356)، وغريب الحديث للخطابي (873)، ومشكاة المصابيح (5759)"صحيح".

(5) انظر الكامل في الضعفاء (369/3).

هذه هي أدلة الصوفية على أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان أول الخلق، والنظرة العابرة إلى هذه الأحاديث التي ساقوها تؤكد أنهم أساءوا الفهم لها، وأساءوا استعمالها كذلك، والدراسة الواعية للأحاديث تبين بطلان استدلالهم وحبوط استشهادهم، وذلك نبينه كالآتي:

أولاً: حديث "كنت أول النبيين في الخلق "حديث لا يصح؛ لأنه يدور على سعيد بن بشير، قال عنه الذهبي رحمه الله: "قال يعقوب الفسوى: سألت أبا مسهر عن سعيد بن بشير فقال لم يكن في جندنا أحفظ منه، وهو ضعيف منكر الحديث، وقال ابن نمير يروى عن قتادة المنكرات، وذكره أبو زرعة في الضعفاء وقال "لا يحتج به"[1].

ومن الذين ضعفوه أيضاً الإمام الجليل يحيى بن معين، قال عنه مرة: ضعيف، وفى موضع آخر قال: ليس بشيء[2].

وقد ذكر هذا الحديث ضمن الأحاديث الموضوعة العلامة: ملا على القاري[3].

ثانياً: حديث "كنت نبياً وآدم بين الروح والجسد "حديث صحيح، رواه ثلاثة من الصحابة: ميسرة الفجر، وابن أبى الجدعاء، وصحابى ثالث رجح الدكتور صبيح أن يكون ابن أبى الحمساء، وأورد ما يدل على أنهم الثلاثة من بنى عامر، وأنهم وفدوا معاً على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأنه لم يرو عنهم إلا عبد الله بن شقيق، و الحقيقة أنه أحسن في سياق الروايات المتعددة لهذا الحديث، وفى البحث عن رواتها، ولكنه -للأسف- لم يحسن الاستفادة مما جمع. فكان كمن بذل ماله ووقته وجهده في جمع ألوان الطعام ثم أفسدها بسوء الطبخ.

إن هذا الحديث بكافة رواياته وكذلك ما تلاه من أحاديث، من طالعها قبل أن يطلع على نظرية الصوفية هذه لن يخطر بباله مطلقاً أنها تعنى ما ذهبوا إليه من هذه الأسطورة التى يرفضها الشرع والعقل، والتى لم ولن تروج في المجال العلمي للأمة الإسلامية.

إن هذه الأحاديث كلها دائرة حول مظهر من مظاهر التشريف والتكريم لرسول الله صلى الله عليه

---

(1) ميزان الاعتدال (191/3).

(2) انظر الكامل في الضعفاء (369/3).

(3) انظر الأسرار المرفوعة في الأخبار الموضوعة (272-273).

وسلم وهو أن الله تعالى –الذي كتب مقادير كل شئ في الأزل وأحصى كل شئ في إمام مبين– كتب عند خلق آدم نبوة محمد صلى الله عليه وسلم كتابة تشريف وتكريم بقصد إظهار خصوصيته حيث إنه أشرف الخلق، ورسالته أشرف الرسالات، وأمته أشرف الأمم.

وكان توقيت الكتابة بين خلق آدم من طين ونفخ الروح فيه، وهذه الكتابة لا تنافي الكتابة الأولى، فالكتابة الأولى في اللوح المحفوظ كتابة تقدير، والكتابة هذه كتابة تشريف وتكريم وإظهار للخصوصية. وعليه فإن هذه الأحاديث بكافة رواياتها تحمل على معنى: "كتبت نبياً..".يقول شيخ الإسلام رحمه الله في مجموع الفتاوى "ولهذا يغلط كثير من الناس في قول النبي صلى الله عليه وسلم فى الحديث الصحيح الذي رواه ميسرة قال قلت يا رسول الله متى كنت نبياً وفى رواية متى كتبت نبياً قال: وآدم بين الروح والجسد. فيظنون أن ذاته ونبوته وجدت حينئذ، وهذا جهل فإن الله إنما أنبأه على رأس أربعين من عمره وقد قال له: ﴿ **نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَـٰذَا الْقُرْآنَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ** ﴾[يوسف: 3] وقال ﴿ **وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَىٰ** ﴾[الضحى: 7] وفى الصحيحين أن الملك قال له حين جاءه: اقرأ فقال :لست بقارئ ثلاث مرات"[1].

وقال في الجواب الصحيح :"فقد أخبر أنه كان نبياً وآدم بين الروح والجسد، وأنه مكتوب عند الله خاتم النبيين وآدم منجدل في طينته، ومراده أن الله كتب نبوته وأظهرها وذكر اسمه؛ ولهذا جعل ذلك في ذلك الوقت بعد خلق جسد آدم وقبل نفخ الروح فيه، كما يكتب رزق المولود وأجله وعمله وشقى أو سعيد بعد خلق جسده وقبل نفخ الروح فيه"[2].

وكلام شيخ الإسلام في هذين الموضوعين شاف كاف، وفيه فائدة نفيسة، وهي: أن الإنسان يكتب له رزقه بعد خلق جسده وعند نفخ الروح فيه، وكذلك آدم عليه السلام كتب له شئ من رزقه ومن نعم الله عليه بعد خلق جسده وقبل نفخ الروح فيه وهو أن ولده محمداً عبد الله وخاتم المرسلين، وهذا من أعظم الرزق ومن أجل النعم عليه وعلى بنى الإنسان.

---

(1) مجموع الفتاوى (272/8).
(2) الجواب الصحيح (381/3-382).

وقد أورد الدكتور صبيح كلام ابن تيمية السابق، وطفق يرد عليه ردوداً أشبه ما تكون بالأدخنة المنبعثة من بقايا حريق أهيل عليه التراب، وأخذ يناقش شيخ الإسلام ويتعرض له بأسلوب لا يمت إلى العلم بسبب.

إن هذه الأحاديث لا يمكن أن تدل على ما ذهب إليه الصوفية، ومعهم السيد صبيح، ولا يمكن أن تنتج لهم ذلك المدعى الساقط المتهاوى.

والذي يؤكد بطلان ما ذهبوا إليه ما يلى:

أن خلق الحقيقة المحمدية أو النور المحمدى قبل خلق الكون أو قبل خلق آدم أوقبل نفخ الروح فيه – كما تدعى الصوفية – مسألة – لو صحت – لاستحقت أن يوليها الوحي السماوي عناية كبيرة؛ لكونها من أمهات المسائل التى عادة ما يكرر الوحى ذكرها، وقد ذكر الله تعالى في كتابه خلق آدم وخلق السماوات والأرض وخلق الإنسان في عشرات المواضع، وذكر مراحل خلق آدم من تراب ومن طين ومن صلصال من حمأ مسنون فيما يقرب من عشرين موضعاً، وما حدثنا القرآن مرة واحدة ولو تلميحاً عن الحقيقة المحمدية التى هي أول خلقه، ولا عن خلق رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل آدم أوقبل الكون كله.

أن العلماء في شرحهم للأحاديث التى تعرضت لبدء الخلق لم يتعرضوا – البتة – لشئ مما تدعيه الصوفية عن الحقيقة المحمدية التى هي مبدأ العالم، فلو كان هذا المدعى صحيحاً فكيف يجهله العلماء شراح الأحاديث أو يتجاهلونه، وهم الذين نضر الله وجوههم بخدمة السنة المطهرة ؟!

فهذا على سبيل المثال الإمام الجليل ابن حجر العسقلانى رحمه الله في فتح البارى يرجح أن أول المخلوقات :العرش والماء، فيقول :"وأشار بقوله ﴿ **وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ**﴾[هود: 7] إلى أن الماء والعرش كانا مبدأ هذا العالم؛ لكونهما خلقا قبل خلق السماوات والأرض، و لم يكن تحت العرش إذ ذاك إلا الماء "[1].

(1) فتح البارى (289/6).

ثم جمع بين هذا وبين حديث "**إِنَّ أَوَّلَ مَا خَلَقَ اللَّهُ الْقَلَمَ**"[1].

فقال: "فيجمع بينه وبين ما قبله بأن أولية القلم بالنسبة إلى ما عدا الماء والعرش"[2].

و لم يتعرض قط لأولية الحقيقة المحمدية، وما وجدنا أحداً ممن تعرض لشرح حديث "**إِنَّ أَوَّلَ مَا خَلَقَ اللَّهُ الْقَلَمَ**" حاول أن يجمع بينه وبين أولية الحقيقة المحمدية أو النور المحمدى.أفكان علماء الحديث وشراح السنة يجهلون أن الحقيقة المحمدية أقدم من العرش والماء والقلم والسماوات الأرض ! أم أنهم أيضاً كانوا يحملون في صدورهم شيئاً على رسول الله صلى الله عليه وسلم كابن تيمية وأتباعه !!.

أن الذي دل عليه الشرع والعقل والواقع والفطرة، و لم ينازع فيه أحد من العلماء –ولا حتى الجهلاء – أن آدم عليه السلام جد جميع البشر، بما فيهم محمد صلى الله عليه وسلم ، وأن جميع البشر بما فيهم محمد صلى الله عليه وسلم من ذرية آدم عليه السلام وأن رسول الله صلى الله عليه وسلم يشمله خطاب الله تعالى ونداؤه بقوله: ﴿ **يَا بَنِي آدَمَ** رضي الله عنه﴾ فكيف يمكن أن يولد الفرع قبل الأصل ويوجد الحفيد قبل الجد ؟ وبأيِّ مسوغ نخالف مقتضى العقل والشرع والفطرة إلى مزاعم مستوحاة من أحاديث موضوعة أو من مفاهيم مقلوبة لأحاديث صحيحة.؟!.

أن القرآن الكريم علمنا منهجاً قويماً في التعامل مع النصوص وهو رد المتشابه إلى المحكم، أما الجرى وراء المتشابه مع إهمال المحكم فهو عين الزيغ والضلال والانحراف؛ قال سبحانه وتعالى: ﴿ **هُوَ الَّذِي أَنزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُّحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّـهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ**﴾[آل عمران:7] فهل يمكن – إذا أردنا أن نرد المتشابه إلى المحكم – أن نتصور أن حديث ميسرة هو المحكم، بينما النصوص القاضية

---

(1) رواه الترمذي في السنن (2082)، وأبو داود في السنن (4081)، البيهقى في الكبرى (19291)، وأبو داود الطيالسى في مسنده (574)، وابن الجعد مسنده (3036)، والطبراني في مسند الشاميين (53)، وأبو نعيم في الحلية (7237)، " صحيح".

(2) فتح البارى (289/6).

بأن رسول الله صلى الله عليه وسلم بشر كسائر البشر، وأن البشر جميعاً أصلهم آدم عليه السلام من المتشابهات؟! إننا -عندئذ -نكون قد سرنا على رؤسنا وحكمنا الهوى والطيش في أهم قضايانا!.

أن الحديث روى بألفاظ متعددة "متى كنت " "متى كتبت " "متى بعثت " "متى جعلت" وفى حديث آخر: "متى وجبت لك النبوة " إلى غير ذلك من الألفاظ.وهذا الاختلاف في الألفاظ المتناولة لقضية واحدة يقتضى وجوب تأويل بعضها، وحملها على معنى واحد من المعاني المختلفة، والمعنى الوحيد الذي يمكن أن نحمل عليه الروايات هو الكتابة؛ لأنه -من جهة- ينسجم مع الأحاديث الأخرى في نفس الباب مثل حديث: "**إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ وَخَاتَمُ النَّبِيِّينَ، وَإِنَّ آدَمَ لَمُنْجَدِلٌ فِي طِينَتِهِ**"[1] ولأنه -من جهة أخرى- لا يتعارض مع النصوص المحكمة القاضية بأن رسول الله صلى الله عليه وسلم بشر من بنى آدم.

الأصل الثاني: هو اعتقاد الصوفية أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قطب الوجود وغايته، ولولاه ما خلق الله أرضاً ولا سماءً ولا شمساً ولا قمرًا ولا شيئاً من ذلك، يقول البوصيرى:

وكيف تدعوا إلى الدنيا ضرورة من		لولاه لم تخرج الدنيا من العـــدم

ويقول ابن نابتة المصري:

لولاه ما كـــان أرض ولا أفـــق		ولا زمان ولا خلق ولا جبـــل

وأقوالهم في ذلك كثيرة ومبثوثة في كتبهم وأدبياتهم، وقد استدلوا على ذلك بحديث لا يصح، وهو: "يا آدم لولا محمد ما خلقتك" وهو حديث باطل، قال الإمام الذهبي في ميزان الاعتدال: "عبد الله بن مسلم أبو الحارث روى عن اسماعيل بن مسلمة.خبراً باطلاً، فيه: (يا آدم لولا محمد ما خلقتك)[2]"[3].

يقول الشيخ محمد خليل هراس رحمه الله:"هذا الحديث باطل، والله لم يخلق آدم ولا غيره من

---

(1) سبق تخريجه (ص83) "صحيح".

(2) الحاكم في المستدرك (4169)، البيهقي في الدلائل (2251)، كنـــز العمال (32138)، الآثار المرفوعة في الأحاديث الموضوعة (76) و مداره على عبد الرحمن بن زيد بن أسلم وقال البيهقي: (إنه تفرد به) وهو متهم بالوضع "موضوع".

(3) ميزان الاعتدال للذهبي (359/3).

أجل أحد، وإنما خلق الكل لعباده،كما قال:﴿ **وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ** ﴾ [الذريات:56]"[1].

الأصل الثالث: يعتقد الصوفية أن رسول الله صلى الله عليه وسلم خلق من نور، وأن أصله النور، وكتبهم طافحة بهذا الزعم، والدكتور صبيح موافق لهم في هذا الزعم، ولكنه -كما عودنا- يلف مزاعمه في عبارات (لولبية) ويدبجها بالألغاز، فها هو يقول في عبارات مضطربة: "وهذا معناه أنه خلق من أب وأم في نهاية المطاف، وهذا لا ينفى أنه خلق من نور"[2].

ولست أدرى كيف يكون مخلوقاً من أب وأم مثلنا، ويكون في الوقت ذاته مخلوقا من نور ؟!ما هذه الألغاز وما هذا التعقيد؟ وما هذه الأغلوطات الممجوجات؟!.

إن هذا اللغز ليذكرنا بالمعادلة المستحيلة التي يلقنها النصارى لأبنائهم وهي أن الأب والابن والروح القدس إله واحد.وإنا لنخشى على العقيدة الإسلامية من هذه الطريقة المتخلفة؛ لأن ما انتهت إليه عقيدة النصارى من التثليث وعبادة البشر كانت بدايته (طلاسم) كهذه الطلاسم الصوفية، وأبحاث (لوغارتمية) في ذات المسيح كهذه الأبحاث الصوفية المشبوهة؛ لذلك حذرنا النبى صلى الله عليه وسلم من اتباع سننهم فقال: "**لَتَتْبَعُنَّ سَنَنَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ شِبْرًا شِبْرًا، وَذِرَاعًا بِذِرَاعٍ حَتَّى لَوْ دَخَلُوا جُحْرَ ضَبٍّ تَبِعْتُمُوهُمْ، قُلْنَا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، الْيَهُودُ، وَالنَّصَارَى، قَالَ: فَمَنْ**"[3].

واعجبا لهؤلاء القوم! من أين جاءهم هذا الاعتقاد، فليأتونا بأية أو حديث، أو- على الأقل - ورقة من كتب العقيدة أو التوحيد أو الأصول أو علم الكلام يقول فيها أحد من العلماء إن الله تعالى خلق الإنسان من الطين وخلق الجان من النار وخلق الملائكة ومحمد صلى الله عليه وسلم من النور.

الأصل الرابع: يعتقد الصوفية أن طبيعة رسول الله صلى الله عليه وسلم تختلف عن الطبيعة البشرية، وأن بشريته ليست كبشرية الخلق، وقد حاول السيد صبيح إثبات ذلك، وعلى طريقته أخذ

---

(1) هامش الخصائص الكرى للسيوطى (17/1).

(2) خصوصية وبشرية النبى (ص165).

(3) رواه البخاري(6804)، أحمد في المسند (9608)، والطبراني في الكبير (5806)، وابن أبي عاصم في السنة (62)، والمروزي في السنة (31)، والروياني في مسنده (1071)، "صحيح".

يستدل بأحاديث لا علاقة لها البتة بالموضوع، وطفق يلوى أعناق الأحاديث لتوافق ما انتهي إليه من الأساطير، فاستدل بثلاثة أحاديث[1].

الأول: قول النبى صلى الله عليه وسلم ". **فَوَاللَّهِ مَا يَخْفَى عَلَيَّ خُشُوعُكُمْ، وَلاَ رُكُوعُكُمْ وإِنِّي لأَرَاكُمْ مِنْ وَرَاءِ ظَهْرِي**"[2].

الثاني: قول النبى صلى الله عليه وسلم : "**تَنَامُ عَيْنِي وَلاَ يَنَامُ قَلْبِي**"[3].

الثالث: "**إِنِّي لَسْتُ كَهَيْئَتِكُمْ إِنِّي يُطْعِمُنِي رَبِّي وَيَسْقِينِ**"[4].

استدل الدكتور صبيح بهذه الأحاديث على مخالفة النبى صلى الله عليه وسلم في بشريته لسائر البشر. وليس فيها ما يدل من قريب أوبعيد على ما ذهب إليه، ولو كانت الدلالة تؤخذ بهذا الاعتساف لما عجز كل صاحب هوى أن يجد في النصوص ما يوافق هواه. يجب علينا أن نصون نصوص الوحيين من التلاعب، فإن التحريف بسوء التأويل أشد ضرراً من التحريف الظاهر للحروف والكلمات.

إن هذه الأحاديث وعشرات الأحاديث مثلها تخبر عن معجزات وقعت لرسول الله صلى الله عليه وسلم وهي من دلائل النبوة ، وقد أوردها العلماء في دلائل النبوة، فليس فيها أدنى دلالة على مخالفة النبى في طبيعته البشرية للنواميس العامة الحاكمة للطبيعة البشرية، وإنما تدل على أن الله تعالى خرق لنبيه العادة؛ لتأييده بمعجزات حسية تكون إلى جانب القرآن الكريم من دلائل النبوة؛ كما خرق العادة لإبراهيم عليه السلام فلم تحرقه النار، ولو كان ما ذكره دالاً على اختلاف الطبيعة البشرية لكان إبراهيم عليه السلام أولى من محمد صلى الله عليه وسلم بذلك؛ ولا أستبعد أن يخرج علينا بعد ذلك من يسحب هذا الوصف على سائر الأنبياء ويعممه على كافة المرسلين؛ فراراً من

---

(1) انظر :خصوصية وبشرية النبى (ص162، 163).

(2) رواه البخاري(703)، أحمد في المسند (7825)، وابن حبان في صحيحه (6472)، ومالك في الموطأ(400)، والطبراني في مسند الشاميين(3200)، وأبو يعلىفى مسنده (6301)، وأبو عوانة في مسنده (1345)، و الحميدي في مسنده (934)، "صحيح".

(3) رواه البخاري(3327)، أحمد في المسند (9444)، وابن حبان في صحيحه (6521)، "صحيح".

(4)رواه البخاري(1838)، ومسلم (1854)، والبيهقى في الكبرى (7769)، ومالك في الموطأ(661)، "صحيح".

التناقض؛ فهذه عادتهم فالفرار من التناقض والرغبة في تناسق الصورة هو الذي دفعهم لقول ما قالوه عن (الطبيعة المحمدية)، فهم كانوا يعتقدون في الأولياء أموراً ترفعهم فوق مستوى البشر، وتعليهم على سائر الخلق، وتلاحقهم بمرتبة الألوهية؛ فلما ظهر الخلل في الصورة العامة لمعتقداتهم راحوا يلتمسون تحسينها وإحداث التوازن فيها بالقول الذي ابتدعوه وأسموه الحقيقة المحمدية.

وهذا الدافع لم يخف على المستشرقين الذين كثيرا ما يخلطون في هذه المسائل الدقيقة عن قصد أو غير، يقول (جولد زيهر): "إن صورة النبي كما صورتها السنة قد أصابها التعديل والتحوير؛ لكي تتلاءم مع تقديس الأولياء، حتى نجم عن ذلك أن العقائد الشعبية وضعت صورة للنبي تتعارض مع البيانات البشرية التي صور بها القرآن مؤسس الإسلام الأول"[1].

إنها معجزات، وقعت للنبي صلى الله عليه وسلم خرقاً للعادة؛ لتكون من دلائل النبوة، هذا هو الذي فهمه العلماء شراح الأحاديث النبوية، وهذه بعض تعليقات العلماء الكبار على حديث : "**إِنِّي لأَرَاكُمْ مِنْ وَرَاءِ ظَهْرِي**".

يقول الإمام ابن حجر: "والصواب المختار أنه محمول على ظاهره، وأن هذا الإبصار إدراك حقيقي خاص به صلى الله عليه وسلم انخرقت له فيه العادة، وعلى هذا عمل المصنف –آي البخاري – فأخرج هذا الحديث في علامات النبوة"[2].

ويقول الإمام ابن عبد البر: هذا كما قال صلى الله عليه وسلم ، ولا سبيل إلى كيفيته، وهو علم من أعلام نبوته صلى الله عليه وسلم "[3].

ويقول السيوطى رحمه الله بعد شرحه لهذا الحديث: "وقد انخرقت له العادة صلى الله عليه وسلم بأكثر من هذا "[4].

---

(1) العقيدة والشريعة لجولد زيهر (ص234)نقلا عن: هذه هى الصوفية (ص109).
(2) فتح البارى (514/1).
(3) التمهيد لابن عبد البر (3470/16).
(4) تنوير الحوالك (139/1).

وفى فيض القدير للمناوى :"وفى الأحاديث إشعار بأن هذا الحال كان مخصوصاً بالصلاة"[1].

فهذه الحال كانت تحدث للنبي صلى الله عليه وسلم في الصلاة فقط؛ خرقاً للعادة وعلامة على النبوة وبياناً لشرف النبي صلى الله عليه وسلم وكرامته.

وأما قول النبي صلى الله عليه وسلم :"إنى لست كهيئتكم "فهو مفسر بما بعده :"إنى أبيت عند ربى فيطعمني ويسقيني " قال الإمام ابن حجر في فتح الباري:"اختلف في معناه، فقيل هو على حقيقته، وأنه صلى الله عليه وسلم كان يؤتى بطعام وشراب "[2].

وليس في هذا ما يدل على مخالفة النبي صلى الله عليه وسلم في أصل تكوينه البشرى لسائر البشر، أو خروجه عن النواميس العامة التى تحكم الخلقة البشرية، ولكن "فيه بيان قدرة الله تعالى على إيجاد المسببات العاريات من سبب ظاهر "[3].

وبعض العلماء عنده تأويل آخر، فيقول الإمام ابن رجب رحمه الله: "والأظهر أنه أراد بهذا أن الله يقويه ويغذيه بما يورده على قلبه من الفتوح القدسية والمنح الإلهية والمعارف الربانية التي تغنيه عن الطعام والشراب برهة من الدهر، كما قال القائل:

لها أحاديث من ذكراك تشغلها عن الشراب وتلهيها عن الزاد "[4].

وأما حديث :"تنام عيناي ولا ينام قلبي " فهو يدل على خاصية تتعلق بمهبط الوحي، فقلوب الأنبياء مهبط وحي السماء ، ولابد أن تكون على درجة من اليقظة والوجل الدائم والسمو الروحانى بما يتناسب مع تلقيها لكلمات الله سبحانه وتعالى؛ لذلك فهي ليست خاصة برسول الله صلى الله عليه وسلم وإنما هي عامة لكل الأنبياء.

قال الإمام السيوطى في تنوير الحوالك:"قال النووى :هذا من خصائص الأنبياء عليهم

---

(1) فيض القدير (76/2).
(2) نقلاً عن نيل الأوطار (297/4).
(3) فتح البارى (205/4).
(4) جامع العلوم والحكم (437/1).

السلام"[1].

وقال صاحب الفتح: "وكذلك الأنبياء تنام أعينهم ولا تنام قلوبهم"[2].

فالشأن في هذه الأحاديث وما شابهها مما لم يذكره الدكتور صبيح ولم يتعرض له هو أنها معجزات وخوارق للعادة، أجراها الله تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم كما أجرى للأنبياء من قبله؛ لتكون دلائل على النبوة، وعلامات على صدق الرسالة.وليس فيها –قط– أدنى إشارة إلى مخالفة النبي صلى الله عليه وسلم في طبيعته وبشريته لسائر البشر، أو تميزه في آدميته عن كافة بني آدم.

أما التميز الفعلي والتفوق الحقيقي فهو في العصمة، وفى كونه يوحى إليه، فإن الله سبحانه وتعالى إذا اختار بشراً من بين البشر لتلقى الوحي السماوي كان هذا الاختيار تكريماً وتشريفاً، وكان –أيضاً– دليلاً ظاهراً على سمو الروح، وشرف النفس، وعلو الهمة، وعظمة الشخصية، وكمال العبودية لله رب العالمين.

وفى زحام الشبهات والأغاليط، ووسط هذا الضباب الكثيف أثار المؤلف عدة انتقادات على شيخ الإسلام، كان أهمها أنه اتهمه بالقول بعدم عصمة الأنبياء، وأنه يشتهي أن يرى رسول الله صلى الله عليه وسلم مذنباً"[3]، وبأنه يفتح الباب على مصراعيه لمن يقدح في عصمة النبي صلى الله عليه وسلم .

وقبل أن أجيب على هذا الاتهام أحب أن أبين أولاً موقف العلماء من عصمة الأنبياء، بشئ من الإيجاز.

فموقفهم يتلخص في الآتى:

1– فيما يتعلق بالتبليغ اتفق العلماء على أنه لا يجوز عليهم التغيير[4].

وعلى استحالة الكذب والخطأ فيه[1]، وعلى عصمتهم عن تعمد كل ما يخل بصدقهم فيما

---

(1) تنوير الحوالك (108/1).

(2) الفتح (579/6) وانظر كذلك عمدة القارى (116/16) وشرح السيوطى (234/3).

(3) انظر: أخطاء ابن تيمية (ص407) وما بعدها.

(4) المحصول للرازى (341/7).

دلت المعجزة القاطعة على صدقهم فيه من دعوى الرسالة والتبليغ عن الله تعالى[2].

لكن اختلفوا حول جواز السهو[3] كما اختلفوا في جواز عصمتهم من الخطأ في الاجتهاد[4].

والراجح جواز الخطأ في الاجتهاد، والسهو أيضاً ولكن لا يقرون على ذلك[5].

2- فيما يتعلق بالأفعال والأقوال فالكلام فيه يختلف فيما قبل النبوة عما بعد النبوة، فأما قبل النبوة فقد اختلفت الأمة في عصمتهم [6] قبل بعثتهم ، والراجح هو جواز المعاصي منهم قبل النبوة جوازاً عقلياً، ولكن من جهة الوقوع لم يقع منهم الكفر ولا الجهل بالله تعالى ولا التشكيك فيه، ولا شئ مما يحط من أقدارهم، بل نقل السمع أنهم بين الناس في أعلى درجات التميز، وهذا من إعداد الله لهم، والله أعلم حيث يجعل رسالته.

يقول الآمدى في الإحكام:

"أما قبل النبوة فقد ذهب القاضى أبو بكر وأكثر أصحابنا، وكثير من المعتزلة إلى أنه لا يمتنع عليهم المعصية كبيرة كانت أو صغيرة، بل ولا يمتنع عقلاًإرسال من أسلم وآمن بعد كفره، وذهبت الروافض إلى امتناع ذلك كله، لأن ذلك مما يوجب هضمهم في النفوس واحتقارهم والنفرة عن اتباعهم وهو خلاف مقتضى الحكمة من بعث الرسل ووافقهم على ذلك أكثر المعتزلة إلا في الصغائر والحق ما ذكره القاضى"[7].

وقال الإمام الزركشى في البحر المحيط :"أما قبل النبوة فقال المازرى لا تشترط العصمة ولكن لم يرد في السمع وقوعها وقال القاضى عياض الصواب عصمتهم قبل النبوة من الجهل بالله وصفاته والتشكيك في شئ من ذلك، وقد تعاضدت الأخبار عن الأنبياء بتنـــزيههم عن هذه النقيصة منذ

(1) البحر المحيط للزركشى 132/5.
(2) الإحكام للآمدى (244/1).
(3) السابق (245/1)، المحصول (341/7) المسودة(ص70).
(4) البحر المحيط / 107/8.
(5) انظر الإحكام (45/1).
(6) انظر الإحكام (244/1).
(7) الإحكام (245/1).

ولدوا ونشأهم على التوحيد والإيمان.ونقل ابن الحاجب عن الأكثرين عدم امتناعها عقلاً، وأن الروافض ذهبوا إلى امتناعها، ونقله غيره عن المعتزلة لأن ذلك يوجب هضمه واحتقاره وهو خلاف الحكمة، والأصح قول الأكثرين ومنهم القاضي عياض لأن السمع لا دلالة له على العصمة قبل البعثة، وأما دلالة العقل فمبنية على فاسد أصلهم في التحسين والتقبيح العقليين." [1].

وأما فيما بعد النبوة فأهل السنة والجماعة مجمعون على عصمتهم من الكبائر، وكذلك الصغائر القادحة المذرية بالمنصب أما سائر الصغائر فالخلاف بينهم قائم في عصمة الأنبياء منها ولكن لا يقرون عليها وهذا الكلام منشور في كتب أهل العلم [2] من الفقهاء والأصوليين والمفسرين.

هذا هو موجز اعتقاد أهل السنة في عصمة الأنبياء وأقوال العلماء في ذلك.

هذه العقيدة لم يخالفها شيخ الإسلام رحمه الله، ومن راجع هذه المسألة في مظانها في كتبه سيتأكد له ذلك، فهذا –على سبيل المثال – كلامه في مجموع الفتاوى :".فإن القول بأن الأنبياء معصومون من الكبائر هو قول أكثر العلماء، وجميع الطوائف، حتى قول أكثر أهل الكلام، كما ذكر أبو الحسن الآمدى أنه قول أكثر الأشعرية، وهو أيضاً قول أكثر أهل التفسير والحديث والفقهاء، بل هو لم ينقل عن السلف والأئمة والصحابة والتابعين وتابعيهم إلا ما يوافق هذا القول"[3].

فإذا كان شيخ الإسلام يتبنى القول بأن أنبياء معصومون من الكبائر دون الصغائر، ويدعمه بأنه لم ينقل عن الصحابة والتابعين وتابعيهم إلا ما يوافقه، فهو بذلك لم يحرج عن أقوال أهل السنة والجماعة، فقد أسلفنا النقل عن كبار العلماء أن أهل السنة والجماعة متفقون على عصمة الأنبياء من الكبائر ومختلفون في عصمتهم من الصغائر. فقول ابن تيمية –إذن– له سلف من علماء أهل السنة والجماعة.

ولا أحسب أن عالماً يمكن أن يخطئ عالماً آخر تبنى رأياً في مسألة خلافية، إلا على سبيل بيان

---

(1) البحر المحيط للزركشى 132/5

(2) انظر: الإحكام للآمدى (245/1-246)، المحصول للرازى (223/3)، والمحصول لابن عربى (109/1)، المنخول (223/1)، والموفقات (265/3)، والتحرير والتنوير (250/1)، تفسير القرطبى (105/9)، فتح القدير للشوكانى (35/1)، (162/3)، (234/4).

(3) مجموع الفتاوى (319/4).

وجهة نظره، وترجيح قوله على قول غيره، أما أن يبدعه أو يفسقه أو يتهمه بشيء فهذا ما لم يقله أحد من علماء الأمة.

ويقول في منهاج السنة "ففي الجملة كل ما يقدح في نبوهم وتبليغهم عن الله فهم متفقون على تنـــزيههم عنه، وعامة الجمهور الذين يجوزون عليم الصغائر يقولون إنهم معصومون من الإقرار عليها، فلا يصدر عنهم ما يضرهم"[1].

ويقول رحمه الله "وذلك كله مما يبين أنه ليس في المعقول الصريح ما يمكن أن يكون مقدماً على ما جاءت به الرسل؛ وذلك لأن البراهين دالة على صدق الرسل وأنهم لا يقولون على الله إلا الحق، وأنهم معصومون فيما يبلغونه عن الله من الخبر والطلب، ولا يجوز أن يستقر في خبرهم عن الله شيء من الخطأ"[2].

ويقول -رداً على الطاعنين من أهل الكتاب-: "وأمره تعالى بسؤال الذين يقرأون الكتاب من قبله على تقدير الشك لا يقتضي أن يكون الرسول شك ولا سأل إن قيل السؤال له، وإن قيل لغيره فهو أولى وأحرى، فإن تعليق الحكم بالشرط لا يدل على تحقيق الشرط، بل قد يعلق بشرط ممتنع لبيان حكمه؛ قال تعالى: ﴿ **وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ ۚ كُلًّا هَدَيْنَا ۚ وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ ۖ وَمِن ذُرِّيَّتِهِ دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَارُونَ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿٨٤﴾ وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَ ۖ كُلٌّ مِّنَ الصَّالِحِينَ ﴿٨٥﴾ وَإِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا ۚ وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ** ﴾[الأنعام:84-86] فأخبر أنهم لو أشركوا لحبط عنهم ما كانوا يعملون، مع انتفاء الشرك عنهم بل مع امتناعه لأنهم قد ماتوا؛ لأن الأنبياء معصومون من الشرك به. وكذلك قوله ﴿ **فَإِن كُنتَ فِي شَكٍّ مِّمَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ فَاسْأَلِ الَّذِينَ يَقْرَءُونَ الْكِتَابَ مِن قَبْلِكَ ۚ لَقَدْ جَاءَكَ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ** ﴾[يونس: 94] لا يدل على وقوع الشك ولا السؤال، بل

(1) منهاج السنة النبوية(472/1).
(2) درء التعارض (97/1).

النبي لم يكن شاكاً، ولا سأل أحدا منهم، بل روى أنه قال: "لا أَشُكُّ، وَلا أَسَأَلُ"[1].

ويقول أيضاً في رده على الرافضي الذي ادعى أن أهل السنة لا يقولون بعصمة الأنبياء :"وأما ما نقله عنهم أنهم يقولون: إن الأنبياء غير معصومين فهذا الإطلاق نقل باطل عنهم، فإنهم متفقون على أن الأنبياء معصومون فيما يبلغونه عن الله تعالى، و هذا هو مقصود الرسالة. وتنازعوا: هل يجوز أن يسبق على لسانه ما يستدركه الله تعالى ويبينه له، بحيث لا يقره على الخطأ. فمنهم من لم يجوزه ومنهم من جوزه"[2].

وقد تصدى شيخ الإسلام في منهاج السنة للرد على الروافض الذين يدعون أن علماء أهل السنة لا يقولون بعصمة الأنبياء، وفند مزاعمهم مبيناً أن اتفاق أهل السنة منعقد على عصمتهم، و إنما اختلفوا فقط في جواز أن تقع منهم الذنوب الصغائر التي لا يقرون عليها، وفى جواز الخطأ والنسيان الذي لا يقرون عليه؛ وبين أن وقوع هذا منهم لا يضر بالعصمة ولا بالرسالة؛ لأنهم يتوبون ويستغفرون فيرفع الله درجتهم بالتوبة؛ إذ أن الله يفرح بتوبه عبده إذا تاب إليه، كما بين الدافع وراء قولهم بعصمة الأنبياء عصمة مطلقة من الصغائر والكبائر قبل البعثة وبعدها، وهو أنهم يدعون هذا في الأئمة، فأرادوا أن تتناسق الصورة، وكشف عن تناقضهم في مواضع كثيرة. ومن أمثلة هذه الردود ما يلى:

"قال الرافضي: وذهب جميع من عدا الإمامية والإسماعيلية إلى أن الأنبياء والأئمة غير معصومين، فجوزوا بعثة من يجوز عليه الكذب والسهو والخطأ والسرقة، فأي وثوق يبقى للعامة في أقوالهم، وكيف يحصل الانقياد إليهم ؟وكيف يجب اتباعهم مع تجويز أن يكون ما يأمرون به خطأ.. فيقال: الكلام على هذا من وجوه، أحدها: أن يقال: ما ذكرته عن الجمهور من نفى العصمة عن الأنبياء تجويز الكذب والسرقة والأمر بالخطأ عليهم فهذا كذب على الجمهور، فإنهم متفقون على أن الأنبياء معصومون في تبليغ الرسالة ولا يجوز أن يستقر في شئ من الشريعة خطأ باتفاق

---

(1) الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح (2/356-357).
(2) منهاج السنة النبوية(1/470-471).

المسلمين."[1].

وفي بعض الأحيان كان شيخ الإسلام يطيل في ردوده على الروافض، وفي بيان مذاهب أهل السنة وغيرهم، وهذا العرض المطول مع حساسية الموضوع أعطى فرصة للدكتور صبيح لكي يقوم بنهش السطور من السياق نهشاً مشوهاً، ويتعامل مع كل مزعة من الكلام بما يناسبها من أساليبه! بعد أن يضع لها عنواناً من عناوينه المرعدة، مثل :

"ابن تيمية يظن أن النبوة تكون بالكسب وليست وهباً من عند الله"[2].

"مذهب ابن تيمية عدم عصمة الأنبياء"[3].

"ابن تيمية يحاول جاهداً إثبات أن النبي صلى الله عليه وسلم كان من المذنبين"[4].

"سوء أدب ابن تيمية عند كلامه على رسول الله صلى الله عليه وسلم " [5].الخ.

وكل هذه العناوين وما تحتها من التعاليق تجن واضح، وأكبر دليل على هذا ما أسلفناه من النقول التي تبين موقف شيخ الإسلام من عصمة الأنبياء، وأنه لم يخالف فيها مذهب أهل السنة قيد شعرة.

وهذا يغنينا عن متابعة الدكتور صبيح في أغاليطه؛ فإن الجري وراء الأغاليط مضيعة للوقت وزراية للعقل.

وقد انتقد المؤلف على شيخ الإسلام أشياء غير منتقدة، واستعمل معها نفس الأسلوب الغريب: وهو انتزاع (مزعة) من السياق، والضغط عليها من جوانبها؛ لكي يخرج منها بصورة توافق ما يبثه من أوهام، ثم التعاليق التي لا تنتمي إلا إلى أصول الشتائم والسباب والتهم الملفقة.

فمن ذلك أنه أورد هذا السطر من كتاب دقائق التفسير لشيخ الإسلام :" وتأخر المسيح عن

---

(1) منهاج السنة النبوية(3/371-372).

(2) أخطاء ابن تيمية (ص406).

(3) السابق (ص407).

(4) السابق (ص407).

(5) السابق (ص410).

المقام المحمود الذي خص به محمد صلى الله عليه وسلم هو من فضائل المسيح مما يقربه من الله صلوات الله عليهم أجمعين "ووضعه تحت عنوان: "ابن تيمية يلمح بأن المقام المحمود لا يستحقه النبي صلى الله عليه وسلم وحده" وتحت هذا العنوان أخذ يعلق بتعليقاته المتطاولة :"ابن تيمية أحد شيئين: إما أنه لا يدرى ما يقوله، وإما أنه في نفسه شيئ لرسول الله صلى الله عليه وسلم "[1]هكذا بكل بساطة وضع الدكتور صبيح شيخ الإسلام تحت احتمالين لا ثالث لهما: إما أنه لا يدرى ما يقوله، وإما أن في نفسه شيئاً لرسول صلى الله عليه وسلم وإنني أقول: ما كان للدكتور صبيح يترلق إلى هذا المنحدر الهابط، وأين هو من شيخ الإسلام حتى يحكم عليه بهذا الحكم الطائش ؟

ولقد ترددت كثيراً أثناء ردى على هذا الرجل؛ لأنني كلما غصت في كتابه لم أجد إلا كلاماً رخيصاً لا يستحق أن يلتفت إليه ولو بالنقد والتفنيد، وما منعني في كل مرة أتردد فيها إلى إكمال عملي إلا حرصي على الذب عن علم من أعلام الأمة، وعلى الذود عن الثوابت العقدية التي أثار عليها هذا الرجل من غبار غضبه ما يستوجب أن ننفضه ليذهب جفاءً.

إن النظر في العبارة التي أوردها المؤلف لا يشعر مطلقاً بشيء مما أوحاه خياله الذي لا أدرى ماذا أقول في وصفه، هذا إذا نظرنا في النص بمفرده، فكيف يكون الحال إذا ما استعرضنا السياق كله؟.

إن سياق كلام شيخ الإسلام كله تكريم للأنبياء عليهم السلام وهو كلام طويل ساقه الإمام تحت عنوان (فصل: الأنبياء أفضل الخلق)، وبين فيه فضل الأنبياء وعلوهم على الصديقين و الشهداء والصالحين وعلى سائر العالمين، ورد فيه على من انتقصهم مما ذكر في حديث الشفاعة، وبين أنها غير قادحة لأنها بالنسبة إليهم ذنوب لكن بالنسبة إلى غيرهم ليست ذنوباً، ثم هي قد أعقبتها توبة، وقد غفرها الله تعالى، ثم قال:

"فإن قيل: فإذا كان قد غفر لهم فلماذا يمتنعون من الشفاعة يوم القيامة لأجل ما بدا منهم ؟.

قيل :هذا من كمال فضلهم وحقوقهم وعبوديتهم وتواضعهم.

---

(1) أخطاء ابن تيمية (ص411).

وهذا الامتناع مما يرفع الله به درجاتهم، وحكمة الله تعالى في ذلك أن تصير الشفاعة لمن غفر الله تعالى له ما تقدم من ذنبه وما تأخر. وتأخر المسيح عن المقام المحمود الذي خص الله به محمدا صلى الله عليه وسلم هو من فضائل المسيح ومما يقربه إلى الله، صلوات الله عليهم أجمعين، فعلم أن تأخرهم عن الشفاعة لم يكن لنقص درجاتهم عما كانوا عليه، بل لما علموه من عظمة المقام المحمود الذي يستدعى من كمال مغفرة الله للعبد وكمال عبودية العبد لله ما اختص الله به من غفر لهم ما تقدم من ذنبه وما تأخر؛ ولهذا قال المسيح: اذهبوا إلى محمد؛ عبداً غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، فإنه إذا غفر له ما تأخر لم يخف أن يلام إذا ذهب إلى ربه ليشفع. وأما من قيل له تقدم و لم يعرف أنه غفر له ما تأخر فيخاف أن يكون ذهابه إلى الشفاعة ذنباً؛ فتأخر لكمال خوفه من الله"[1].

فمجمل هذا الكلام أن الأنبياء عليهم السلام أفضل الخلق، وما بدر منهم يعد ذنوبا بالنسبة إليهم، وإن كان بالنسبة إلى غيرهم لا يعد ذنوباً، وهي مع ذلك غفرت لهم، وتأخرهم عن الشفاعة العظمى بسبب هذه الذنوب لا يدل على أنها لم تغفر لهم ولا يشير إلى انحطاط درجاتهم، وإنما يدل على كمال حقوقهم من الله تعالى؛ لأنهم غفر لهم ما تقدم من ذنوبهم، أما محمد صلى الله عليه وسلم فقد غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر فلا يخشى عليه أن يلام إذا ما تقدم للشفاعة، أما هم فيخشون ذلك؛ لأنهم ليسوا مثله في كمال العبودية، وكمال مغفرة الله له، وذكرهم لذنوبهم سببه خوفهم أن يلدغوا من جحر الذنوب مرتين بتقدمهم للشفاعة قبل أن يؤذن لهم، فليتقدم إليها –إذاً – من لا يخشى عليه؛ لأنه تميز عنهم بأنه غفر له ما تأخر.

وهناك قضايا أخرى اعترض فيها المؤلف على شيخ الإسلام، منها قضية المفاضلة بين تربة النبي صلى الله عليه وسلم وبين الكعبة، ولا أحسب أن إفساح المجال للجدل في مثل هذه القضية مما تسوغه الحكمة؛ لأسباب، أولها: أن القول بتفضيل إحداهما على الأخرى لا يفيد، فكلتاهما لها حرمة وقدسية، وهذا يكفى. الثاني: –وهو الأهم– أن الجدل والتخاصم في مثل هذه المسائل مما هلك به من قبلنا، و قد يجر إلى الغلو الذي سقط فيه من تجادلوا من قبل في طبيعة المسيح وفى اللاهوت والناسوت.

(1) دقائق التفسير (2/121-122).

واكتفى فقط بعرض المقطع الذي انتقده المؤلف على شيخ الإسلام؛ لأن المقطع بذاته في غاية النصاعة، وليس فيه أدنى تنقيص لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال شيخ الإسلام رحمه الله :"أما نفس محمد صلى الله عليه وسلم فما خلق الله خلقاً أكرم منه، وأما نفس التراب فليس هو أفضل من الكعبة البيت الحرام، بل الكعبة أفضل منه، ولا يعرف أحد من العلماء فضل تراب القبر على الكعبة إلا القاضي عياض، و لم يسبقه أحد إليه ولا وافقه أحد عليه"(1).

ولست أحب أن أنساق أكثر من هذا وراء المؤلف في انتقاداته؛ إذ ليس من العقل ولا من الحكمة أن نمضي على أثره في كل فج يسلكه وفي كل سبيل يَلجُّ فيه، وإنما يكفينا أن نقف له على رؤوس الطرق، ونرد عليه في أهم المسائل، وخير الكلام ما قل ودل والذي يجب ألا ننساه في هذا المزدحم من الجدل، و ينبغي أن نخلص إليه سريعاً؛ لنختم به هذا الفصل، هو أن نعرف المهمة التي بعث بها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وواجبنا نحوه، هذا هو الأهم؛ لأنه هو الذي يثمر في واقع الأمة، وفي حياة الناس لماذا بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ هل بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم ليؤلهه الناس وينسوا الخالق جل وعلا؟ كلا، ما بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم لهذا، ولا كانت هذه دعوته، يقول الله تعالى ﴿ **مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ اللَّـهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِّي مِن دُونِ اللَّهِ وَلَكِن كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ** ﴾[آل عمران: 79].

ما بعث رسل الله صلى الله عليه وسلم ليعبده الناس، وإنما بعث لهداية الخلق إلى الخالق وتعبيد الناس لله رب العالمين والدعوة إلى الإسلام هذه هي رسالته، وهذه هي مهمته، وهي مهمة جامعة تنطوي تحتها مهام كلها تصب فيها وتلتقي عليها، وهي:

1-الإرشاد إلى الصراط المستقيم، قال تعالى: ﴿ **وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَـٰكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾ صِرَاطِ اللَّـهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۗ أَلَا إِلَى**

(1) مجموع الفتاوى (38/27).

اللَّـــهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ ﴾[الشورى52-53].

3، 2-التبشير والإنذار قال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٤٥﴾ وَدَاعِيًا إِلَى اللَّـــهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا ﴾[الأحزاب: 45-46] وقال: ﴿ رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّـــهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ ۚ وَكَانَ اللَّـــهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴾ [النساء:165] وقال صلى الله عليه وسلم : "إِنَّمَا مَثَلِي وَمَثَلُ مَا بَعَثَنِي اللَّهُ بِهِ كَمَثَلِ رَجُلٍ أَتَى قَوْمًا، فَقَالَ: يَا قَوْمِ، إِنِّي رَأَيْتُ الْجَيْشَ بِعَيْنَيَّ، وَإِنِّي أَنَا النَّذِيرُ الْعُرْيَانُ، فَالنَّجَاءَ فَأَطَاعَهُ طَائِفَةٌ مِنْ قَوْمِهِ، فَأَدْلَجُوا، فَانْطَلَقُوا عَلَى مَهَلِهِمْ، فَنَجَوْا وَكَذَّبَتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ، فَأَصْبَحُوا مَكَانَهُمْ، فَصَبَّحَهُمُ الْجَيْشُ، فَأَهْلَكَهُمْ وَاجْتَاحَهُمْ فَذَلِكَ مَثَلُ مَنْ أَطَاعَنِي، فَاتَّبَعَ مَا جِئْتُ بِهِ وَمَثَلُ مَنْ عَصَانِي وَكَذَّبَ بِمَا جِئْتُ بِهِ مِنَ الْحَقِّ"(1).

6، 5، 4-: البلاغ والبيان، وتربية الناس وتزكيتهم، وتعليم الدين وتدريس أحكامه لمن آمن به واتبعه، وهذه الوظائف الثلاث ذكرت في أربعة مواضع في القرآن: في سورة البقرة: ﴿ رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾[البقرة:129] وفى نفس السورة: ﴿ كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ ﴾[البقرة:151] وفى آل عمران: ﴿ لَقَدْ مَنَّ اللَّـــهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾[آل عمران:164] وفى سورة الجمعة: ﴿ هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾[الجمعة:2].

فتلاوة الكتاب بلاغ عام، والتزكية هي التربية وإخراج الناس من الظلمات إلى النور وتعليم الكتاب والحكمة هو تدريس أحكام القرآن والسنة.

(1) البخاري(6769)، ومسلم (4237)، وأبو يعلى فى مسنده (7258)"صحيح".

7- إقامة الحجة على الناس: قال تعالى: ﴿ **وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا** ﴾[الاسراء: 15] وقال: ﴿ **رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّـهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ ۚ وَكَانَ اللَّـهُ عَزِيزًا حَكِيمًا** ﴾[النساء:165].

8- بيان أحكام الكتاب، وتطبيقها وإقرار منهج الله في الأرض قال تعالى: ﴿ **وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ** ﴾ [النحل:44] وقال ﴿ **وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ۖ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّـهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ** ﴾[المائدة:48].

9- الجهاد في سبيل الله وحض المؤمنين عليه؛ حتى لا تسود الفتنة قال تعالى: ﴿ **فَقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّـهِ لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفْسَكَ ۚ وَحَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ ۖ عَسَى اللَّـهُ أَن يَكُفَّ بَأْسَ الَّذِينَ كَفَرُوا ۚ وَاللَّـهُ أَشَدُّ بَأْسًا وَأَشَدُّ تَنكِيلًا** ﴾ [النساء:84] وقال: ﴿ **وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّـهِ ۚ فَإِنِ انتَهَوْا فَإِنَّ اللَّـهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ** ﴾[الأنفال:39] وقال صلى الله عليه وسلم : "**بُعِثْتُ بِالسَّيْفِ بَيْنَ يَدَيِ السَّاعَةِ لِيُعْبَدَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ وَحْدَهُ لا شَرِيكَ لَهُ**"[1].

10-أن يكون قدوة للناس في كل ما جاء به من عند الله، وتتحقق به الأسوة لهم، قال تعالى: ﴿**لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّـهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّـهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّـهَ كَثِيرًا** ﴾[الأحزاب:21].

هذه هي رسالة النبي صلى الله عليه وسلم ، وهذه هي مهمته ووظيفته، يجب علينا أن نعرفها، وأن نعرفها للأجيال؛ لأن معرفتها يترتب عليها واجبات تجاه هذا النبي العظيم صلى الله عليه وسلم فما هي هذه الواجبات ؟

إن علينا تجاه رسول الله صلى الله عليه وسلم واجبات كثيرة، بينها الله عز وجل في كتابه:

أول هذه الواجبات أن نؤمن برسول الله صلى الله عليه وسلم إيماناً يكون له أثره في القلب

(1) رواه أحمد في المسند (4969)، والطحاوي في مشكل الآثار (201)، "إسناد حسن" وفي الإسناد الوليد بن مسلم القرشي مدلس وصرح بالسماع عن شيخه فانتفت شبهة تدليسه في هذا الإسناد.

بالحب والتوقير والتعظيم، قال تعالى: ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّـهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۚ وَاللَّـهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ** ﴾[الحديد:28]

ولابد أن يحدث هذا الإيمان في القلب أثراً بالحب والتعظيم، يقول شيخ الإسلام رحمه الله:"الإيمان وإن كان أصله تصديق القلب فذلك التصديق لابد أن يوجب حالاً في القلب وعملاً له وهو تعظيم الرسول وإجلاله ومحبته، وذلك أمر لازم. فإذا لم تحصل هذه الحال والعمل في القلب لم ينفع ذلك التصديق و لم يغن شيئاً، وإنما يمنع حصوله إذا عارضه معارض من حسد الرسول أو التكبر عليه أو الإهمال له وإعراض القلب عنه ونحو ذلك، ومتى حصل المعارض كان وجود ذلك التصديق كعدمه"[1].

ثانيها: الطاعة والاتباع له، والتحاكم إليه، والانقياد لحكمه برضى وتسليم: قال تعالى ﴿ **وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّـهِ ۚ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوا أَنفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّـهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّـهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا** ﴾[النساء:64] ﴿ **مَّن يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّـهَ ۖ وَمَن تَوَلَّىٰ فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا** ﴾[النساء:80].

﴿ **فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ** ﴾[النور:63].

وقال عز وجل : ﴿ **قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّـهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّـهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَاللَّـهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ** ﴾[آل عمران:31].

وقال: ﴿ **فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا** ﴾[النساء:65].

ثالثها: "أن يكون رسول الله صلى الله عليه وسلم أحب للمؤمن من نفسه وولده وجميع الخلق كما دل عليه قوله سبحانه وتعالى: ﴿**قُلْ إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ اللَّـهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّـهُ بِأَمْرِهِ ۗ وَاللَّـهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ**

---

(1) الصارم المسلول (519/1).

﴾[التوبة:24] مع الأحاديث الصحيحة المشهورة كما في الصحيح من قول عمررضي الله عنه: "**لاَ وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، حَتَّى أَكُونَ أَحَبَّ إِلَيْكَ مِنْ نَفْسِكَ**"[1] وقال: "**لاَ يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى أَكُونَ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنْ وَالِدِهِ وَوَلَدِهِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ**"[2][3].

رابعها: تعزيره وتوقيره "والتعزير اسم جامع لنصره وتأييده ومنعه من كل ما يؤذيه، والتوقير اسم جامع لكل ما فيه سكينة وطمأنينة من الإجلال والإكرام وأن يعامل من التشريف والتكريم والتعظيم بما يصونه عن كل ما يخرجه عن حد الوقار"[4].

والتوقير والتعظيم لرسول الله صلى الله عليه وسلم كان دأب السلف رضوان الله عليهم حتى بعد وفاته صلى الله عليه وسلم ، قال مصعب بن عبد الله :"كان مالك إذا ذكر النبى صلى الله عليه وسلم يتغير لونه وينحني حتى صعب ذلك على جلسائه، فقيل له يوماً في ذلك فقال لو رأيتم ما رأيت لما أنكرتم على ما ترون "[5].

وقال مالك عن أيوب السختياني :"غير أنه كان إذا ذكر النبي صلى الله عليه وسلم بكى حتى أرحمه، فلما رأيت منه ما رأيت من إجلاله للنبي صلى الله عليه وسلم كتبت عنه "[6]وغير ذلك كثير.

خامسها: عدم التقدم بين يديه وعدم رفع الصوت عنده وعدم دعائه وندائه بمثل ما يدعو الناس بعضهم بعضاً، قال تعالى ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّـهِ وَرَسُولِهِ ۖ وَاتَّقُوا اللَّـهَ ۚ إِنَّ اللَّـهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ** ﴾[الحجرات:1] ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ** ﴾[الحجرات:2].

---

(1) رواه البخاري(6172)، أحمد في المسند (21915)، والبيهقى في الشعب (1363)، والطبراني في الأوسط (325)"صحيح".

(2)رواه البخاري(14)، والدرامي في السنن (2658)، أحمد في المسند (12573)، وأبو يعلىفى مسنده (3009)"صحيح".

(3) الصارم المسلول (802/3).

(4) السابق (803/3).

(5) سير أعلام النبلاء (354/5-355).

(6) السابق (17/6).

سادسها: أن الله سبحانه وتعالى "حرم على الأمة أن يؤذوه بما هو مباح أن يعامل به بعضهم بعضاً تمييزاً له، مثل نكاح أزواجه من بعده فقال سبحانه وتعالى ﴿**وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّـهِ وَلَا أَن تَنكِحُوا أَزْوَاجَهُ مِن بَعْدِهِ أَبَدًا ۚ إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ عِندَ اللَّـهِ عَظِيمًا**﴾[الأحزاب:53]"[1].

سابعها: ألا نؤثر أنفسنا على رسول الله صلى الله عليه وسلم وألا نتخلف عن نصرة دينه الذي بذل عمره كله من أجله، قال سبحانه وتعالى﴿ **مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُم مِّنَ الْأَعْرَابِ أَن يَتَخَلَّفُوا عَن رَّسُولِ اللَّـهِ وَلَا يَرْغَبُوا بِأَنفُسِهِمْ عَن نَّفْسِهِ** ﴾ [التوبة:120].

ثامنها: الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم والتسليم عليه وسؤال الوسيلة له، قال تعالى ﴿ **إِنَّ اللَّـهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ ۚ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا** ﴾[الأحزاب:56] وعن عبدالله بن عمر رضي الله تعالى عنهما أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: "**إِذَا سَمِعْتُمُ الْمُؤَذِّنَ، فَقُولُوا مِثْلَ مَا يَقُولُ، ثُمَّ صَلُّوا عَلَيَّ، فَإِنَّهُ مَنْ صَلَّى عَلَيَّ صَلاَةً، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ بِهَا عَشْرًا، ثُمَّ سَلُوا اللَّهَ لِي الْوَسِيلَةَ، فَإِنَّهَا مَنْـزِلَةٌ فِي الْجَنَّةِ، لاَ تَنْبَغِي إِلاَ لِعَبْدٍ مِنْ عِبَادِ اللَّهِ، وَأَرْجُو أَنْ أَكُونَ أَنَا هُوَ، فَمَنْ سَأَلَ لِي الْوَسِيلَةَ، حَلَّتْ لَهُ الشَّفَاعَةُ**"[2].

تاسعها: التمسك بسنته، وترك الابتداع في دينه ففي حديث العرباض بن سارية قال صلى الله عليه وسلم : "فَعَلَيْكُمْ بِسُنَّتِي وَسُنَّةِ الْخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ الْمَهْدِيِّينَ عُضُّوا عَلَيْهَا بِالنَّوَاجِذِ، وَإِيَّاكُمْ وَمُحْدَثَاتِ الأُمُورِ فَإِنَّ كُلَّ بِدْعَةٍ ضَلاَلَةٌ"[3].

عاشرها: الاستجابة له في العمل بشريعته وتطبيقها في مناحي الحياة، وفى الأمر بالمعروف

(1) الصارم المسلول (205/3).

(2) رواه مسلم (579)، وأبو داود (438)، والترمذي (3577)، والنسائي في الكبرى (1631)، والبيهقى في الصغرى (137)، وابن حبان في صحيحه (1724)، والطبراني في الأوسط (9571)، و ابن خزيمه في صحيحه (419)، وأبو عوانة في مسنده (754)، و الطحاوي في شرح معانى الآثار (513)، وابن السني في عمل اليوم و الليلة (93)"صحيح".

(3) رواه الترمذي (2620)، وابن ماجة (42)، والدرامي (95)، وأحمد في المسند (16814)، والبيهقى في الكبرى (18782)، والحاكم في المستدرك(302)، والطبراني في الكبير (15052)، والمروزي في السنة (57)، وأبو نعيم في الحلية (7124)"صحيح".

والنهي عن المنكر والجهاد في سبيل الله. قال تعالى ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّـهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّـهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ**﴾ [لأنفال:24].

وأخيرا أذكر بأن رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يرضيه أن نحرف دينه أو نشوه عقيدته حتى لو كان في سبيل التعظيم له؛ لأنه صلى الله عليه وسلم لم يكن يغضب لنفسه وإنما كان يغضب إذا انتهك حد من حدود الله أو حرف شئ من دينه، فلم يكن أعز عليه من دين الله، فعلينا أن نحفظ هذا الدين، وأن نصون هذه العقيدة وأن ننفى عنها تحريف الغالين وانتحال المبطلين وتأويل الجاهلين؛ حتى نفوز برضى الله ورسوله.

ونسأل الله تعالى أن يجعلنا من أحباب رسوله الكريم، وأن يكرمنا بشفاعته، وأن يوردنا حوضه، وصلى الله على سيدنا محمد.

الفصل الثالث

الوســـيلة

الحقيقة التي تنطق بها فطرة الإنسان، ويغرد بها ضمير الوجود، ولا تجرؤ البشرية أن تنكرها إلا وهي فاقدة وعيها في سكرة الاغترار بما عندها مما تسميه حضارة أو مدنية – هي أن الإنسان إنما خلق لغاية أسمى من العيش في هذه الحياة الدنيا للدنيا وحدها، وأن هذه الغاية ليست إلا عبادة الخالق جل وعلا؛ لذلك كان غريباً ومستهجناً أن تذهل البشرية عن أبسط الحقائق وألصقها بكيانها، برغم ظهورها وفرط تبديها، وهاهو القرآن يذكرها بما تنساه ويوقظها إلى ما تغفل عنه أو تذهل عنه :

﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ مَا أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ﴿٥٧﴾ إِنَّ اللَّـــهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ ﴾[الذريات:56-58].

وبديهي–ما دام الأمر كذلك– أن يكون شرط عبودية العباد للخالق المعبود جل وعلا أن يعبدوه كما يريد لا كما يريدون، ووفق ما شرع لا وفق ما يبتدعون؛ لذلك كانت البدعة ضلالة، برغم أنها قد يراد بها التعبد للخالق تبارك وتعالى، وكان مصير كل عبادة مستحدثة الرد والإبطال، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :" مَنْ أَحْدَثَ فِي أَمْرِنَا هَذَا مَا لَيْسَ فِيهِ فَهُوَ رَدٌّ "[1].

ومن هنا كان على العبد – لكي يقوم بوظيفته على الوجه الصحيح – أن يتحرى الإصابة مثلما يتحرى الإخلاص؛ ليكون العمل حسناً لا سيئاً، ومقبولا لا مردوداً، و قد تضافرت الأدلة الشرعية على اشتراط المتابعة مع الإخلاص ليكون العمل مقبولاً عند الله عز وجل ، وعلى أن ترك الاتباع وسلوك سبيل الابتداع يحبط الأعمال مثلما يحبطها ترك الإخلاص.

وإن من كمال عبودية الخلق للخالق جل وعلا، ومن تمام ذلهم وخضوعهم وانقيادهم له؛ أن ينـــزلفوا إليه ويتقربوا، وأن يتوصلوا إليه ويتوسلوا، وأن يطلبوا المنـــزلة والدرجة والحظوة والقربة منه بما

---

(1) رواه البخاري(2513)، ومسلم (3245)، وأبو داود (3993)، وابن ماجة (14)، أحمد في المسند (25736)، والبيهقي في الكبرى (18975)، وابن حبان في صحيحه (27)، وأبو يعلى في مسنده (4526)، وأبو عوانة في مسنده (5072)، والدارقطني في السنن (3982)"صحيح".

يحبه ويرضاه من الوسائل، وأن يبتغوا إليه الوسيلة التي يرضاها؛ حباً وخوفاً و رجاءً ، و أن يتملقوه ويدخلوا عليه بكل الوسائل المشروعة؛ ليبلغوا رضوانه، وليتوصلوا إلى ما يأملون من فيض ربوبيته وجوده ورحمته.

لذلك أمر الله تبارك وتعالى عباده المؤمنين أن يبتغوا إلى ذي العرش وسيلة ترضيه وتقربهم إليه، فقال: ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّــهَ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ وَجَاهِدُوا فِي سَبِيلِهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ**﴾[المائدة:35] وأثنى على عباد صالحين اتخذهم الجاهليون أرباباً من دون الله، بأنهم يتلمسون الوسائل المشروعة تقرباً إلى الله ورجاءً في رحمته وخوفاً من عذابه، فقال: ﴿ **أُولَـٰئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ ۚ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا** ﴾ [الإسراء:57].

ولذلك أيضاً كانت الوسيلة –وهي منــزلة من الجنة أكثر قربى وأعظم حظوة من سائر المنازل– من نصيب عبد من عباد الله كان أعظمهم توسلاً وتزلفاً وتقرباً إلى الله، و هو خاتم النبيين محمد صلى الله عليه وسلم ، قال صلى الله عليه وسلم : "**إِذَا سَمِعْتُمُ الْمُؤَذِّنَ، فَقُولُوا مِثْلَ مَا يَقُولُ، ثُمَّ صَلُّوا عَلَيَّ، فَإِنَّهُ مَنْ صَلَّى عَلَيَّ صَلاَةً، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ بِهَا عَشْرًا، ثُمَّ سَلُوا اللَّهَ لِي الْوَسِيلَةَ، فَإِنَّهَا مَنــزِلَةٌ فِي الْجَنَّةِ، لاَ تَنْبَغِي إِلاَ لِعَبْدٍ مِنْ عِبَادِ اللَّهِ، وَأَرْجُو أَنْ أَكُونَ أَنَا هُوَ، فَمَنْ سَأَلَ لِي الْوَسِيلَةَ، حَلَّتْ لَهُ الشَّفَاعَةُ**"(1).

وما دامت الوسيلة ضرباً من ضروب العبودية؛ فإنها يشترط فيها الشرط الذي ذكرناه آنفاً، وهو أن تكون وفق ما شرع الله ورسوله، ولا يجوز إيقاعها على أساليب مبتدعة أو طرق مخترعة؛ لأنها عبادة، والعبادة توقيفية كما هو معلوم عند علماء أمتنا قاطبة، أي: يتوقف العباد فيها على ما شرعه المعبود جل وعلا، بلا زيادة ولا نقصان.

لكن الذي حدث هو أن هذه العبادة الجليلة وقع فيها زيادات مبتدعة، لم يكن لها في دين الله عز وجل أصل، وهذه الزيادات أخرجت الوسيلة من كونها قربة إلى الله تعالى إلى ألوان من الشركيات التي جاء ديننا بهدمها وإبطالها، كالاستعانة والاستغاثة بغير الله، وطلب المدد والغوث من

(1) سبق تخريجه (ص110) وهو "صحيح".

المخلوقين، وغير ذلك.

ووقع خلط كبير بين المشروع والممنوع من الوسائل، ووقع -كذلك- تداخل والتباس شنيع بين الوسيلة وبين الاستعانة والاستغاثة وطلب المدد، وتكونت من ذلك الخليط جملة غير مؤتلفة ولا مستساغة، و نفخ فيها الغلو حتى تورمت وصارت مرضاً عقدياً وسرطاناً فكرياً، كان له في بعض الأزمان تمدد وانتشار، و في بعضها تقلص وانحسار.

لذلك انـــزعج العلماء المخلصون، وانتبه المحققون النابهون، وانبرى منهم فريق كبير لتحرير مسألة الوسيلة، ونفض ما علق بها من هلوسة المتصوفة، فميزوا الوسيلة عن الاستغاثة والاستعانة وطلب المدد، وبينوا ما يشرع وما لا يشرع من الوسائل، وما يعد منها سنة متبعة، وما يعتبر منها بدعة مبتدعة، وحملوا على الغلاة والمحرفين، وصالوا على الجهلاء المخرقين؛ فانكمش الباطل، وانـــزوت الخرافة، وتقلص مدُّ البدعة، وأضحى سوق الصوفية كاسداً بعد أن كان – في غيبة الوعي – رائجاً.

ثم دار الزمان دورته؛ لتعود الصوفية من جديد، فتنبش في التراب، وتستخرج ما عفا عليه الزمان وطوته السنون، وتنفخ فيه ليحيا، ويكون له على ساحة الصراع صولة، وفي مزدحم الملاحم جولة، لكن لا ندري لصالح من تصول وتجول، وإلى أي غاية تريد أن تقود الناس ؟!.

فها هي تلقى بأفلاذ كبدها في خضم الميدان، وها هي رماحها تخمش أقواماً شتى، ليس منهم – بالطبع – أحد من أعداء الأمة. وها هو فضيلة الدكتور صبيح يندفع نحو ما قبر من ترهات الصوفية لينفخ الروح فيها ويحاول عن طريق (البحث العلمي!) أن يهدم القائم ويقيم المهدوم.

وقد خرج (السيد الشريف) على الناس بكتابين لا يدري أيهما أسوأ من الآخر. ولقد حاول طوال حديثه فيهما عن الوسيلة أن يطمس معالمها ويدغمها فيما ليس من جنسها، من ذلك – على سبيل المثال – أنه خلط بين الوسيلة وبين الاستغاثة وطلب المدد، مع أن البون بينهما شاسع، فالوسيلة شئ، والاستغاثة وطلب المدد شئ آخر تماماً، كما سيتضح لنا فيما بعد. فتأمل قوله في كتابه الأول :"دليلنا على طلب الاستغفار من رسول الله صلى الله عليه وسلم عند زيارة القبر الشريف والتوسل والاستغاثة وطلب المدد: القرآن والسنة وعمل الصحابة والسلف الصالح من حفاظ ومحدثين وفقهاء، وعمل أمة

محمد صلى الله عليه وسلم كلها في مختلف العصور"[1].

وقال بعد أن ذكر خبر عثمان بن حنيف –وهو في الوسيلة وسيأتي الحديث عنه– قال: "قلت: هذا نص قطعي في جواز الاستعانة والنداء والاستغاثة" وإدخال الاستغاثة والاستعانة في دلالة حديث يتحدث عن الوسيلة لون من التلبيس، حتى إذا قرأ الناس أدلة التوسل سحبوها –دون شعور – على الاستغاثة والاستعانة؛ بفعل الخلط بين المصطلحات المتباينة.

ويبدو أن هذا التلبيس دأب كثير من المعاصرين من أنصار الفكر الصوفي، فهذا واحد منهم يقول: "أما المستغيث والمتوسل فهو براء من هذه العبادة وهذا الاعتقاد" "ومجمل القول في هذه الشبهة أن التوسل والتشفع والاستغاثة كلها بمعنى واحد، وليس لها في قلوب المؤمنين معنى إلا التبرك بذكر أحباب الله تعالى، لما ثبت أن الله يرحم العباد بسببهم" " فالمنع من التوسل والاستغاثة بالكلية مصادم للأحاديث الصحيحة " "وهؤلاء المنكرون للتوسل والزيارة فارقوا الجماعة والسواد الأعظم"!.

ففي هذه الجمل يحاول الرجل أن يدغم الاستعانة في الوسيلة التي استدل على مشروعيتها بالأحاديث الدالة على التوسل المشروع، ليسحب عليها نفس الحكم، وليكون المخالف مصادماً للأحاديث الصحيحة وخارجاً عن الجماعة والسواد الأعظم.

وربما كان هذا التلبيس دأب الصوفية دائماً؛ يقول الدكتور إدريس محمود إدريس: "إذا نظرنا في كتب الصوفية نرى أنهم دائماً يوردون الأحاديث الواردة في التوسل المشروع ليحتجوا بها على جواز التوجه إلى النبي صلى الله عليه وسلم بالدعاء والاستغاثة، وعلى جواز التوسل بذاته، مع أننا إذا نظرنا إلى الأحاديث التي تتكلم عن توسل الصحابة بالنبي صلى الله عليه وسلم فإننا نراها لا تخرج عن شئ واحد ألا وهو التوسل بدعاء النبي صلى الله عليه وسلم "[2].

لذلك يجب التصدي لمثل هذه الاتجاهات، والرد علي ما تروجه من أكاذيب، وما تتبناه من أباطيل، وسوف أتناول في هذا الفصل موضوع الوسيلة بشيء من البيان، مع الرد على الدكتور

---

(1) أخطاء ابن تيمية (ص304).

(2) مظاهر الانحرافات العقدية عند الصوفية، وأثرها على الأمة الإسلامية (46/1).

صبيح فيما ذهب إليه، والله المستعان.

الوسيلة في اللغة تأتي بمعنى: الدرجة والقربة والمنــــزلة عند الملك[1].

يقال: وسل فلان إلى الله أي عمل عملاً تقرب به إليه [2]، كما تطلق على ما يتقرب به إلى الغير [3]، وتطلق أيضاً على الذريعة [4].

وعلى الحظوة والزلفة والآصرة والآخية [5].

وقد جاءت في حديث: "ثم سلوا لي الوسيلة" بمعنى الشفاعة، وبمعنى منــــزلة في الجنة هي أعلى المنازل [6]، وسميت الشفاعة العظمى في الموقف والدرجة العليا في الجنة بالوسيلة؛ لأنها ثمة القرب [7].

هذا هو المعنى اللغوي للوسيلة، وهو بالطبع بعيد كل البعد عن معنى الاستعانة والاستغاثة والدعاء وطلب المدد والغوث، أما معناها في الشرع فهو منبثق من المعنى اللغوي ومتآلف معه، وقد ذكرت الوسيلة في آيتين من كتاب الله تعالى: الأولى قول الله عز وجل : ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّـهَ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ وَجَاهِدُوا فِي سَبِيلِهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ** ﴾ [المائدة:35] والثانية: قوله تعالى ﴿ **أُولَـٰئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ ۚ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا** ﴾ [الإسراء:57].

ومن تأمل أقوال المفسرين لهاتين الآيتين تبين له المعنى الشرعي للوسيلة، وتبين له أيضاً أنه لا يختلف عن المعنى اللغوي بل يتآلف معه، ويعتضد به، فالوسيلة عندهم هي القربة[8]، وقد نقلوا هذا المعنى عن السلف، مثل مجاهد وعطاء والحسن والسدي وعبدالكريم بن كثير وغيرهم[9]، وعن بعض

---

(1) لسان العرب (724/11)، والقاموس المحيط (1379/1).
(2) مختار الصحاح (740/1).
(3) العين (98/2).
(4) الألفاظ المؤتلفة (183/1).
(5) السابق (183/1).
(6) انظر: النهاية في غريب الأثر (402/5).
(7) غريب الحديث لابن الجوزي (467/2).
(8) تفسير البغوي (120/3)، وتفسير الثعالبي (460/1)، فتح القدير (35/2).
(9) تفسير الطبري (226/6)، والقرطبي (151/6)، وابن كثير (53:54/2).

الصحابة مثل ابن عباس وحذيفة بن اليمان[1].

والمفسرون -في كثير من الأحيان- لا يتركون المعنى مبهماً في كلمة (القربة).

بل يزيدونه وضوحاً فيقولون إن الوسيلة بمعنى: -كل ما يتقرب به إلى الله تعالى من فعل الطاعات وترك المعاصي والسيئات[2].

ومن تتبع الآيات والأحاديث تبين له أن التوسل المشروع لا يخرج عن ثلاثة أنواع: التوسل بأسماء الله وصفاته، والتوسل بالعمل الصالح، والتوسل بدعاء الصالحين. وفيما يلي بيان موجز لكل نوع من هذه الأنواع :

أولاً: التوسل إلى الله تعالى بأسمائه وصفاته العلى :

يقول الله عز وجل ﴿ **وَلِلَّـــهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا ۖ وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ ۚ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ** ﴾[الأعراف:180] فهذا توجيه من المولى عز وجل لعباده أن يدعوه بالأسماء الحسنى وأن يتقربوا إليه بها، وأن يتوسلوا بها لقبول الدعاء ونيل الحظوة والدرجة.

ومن الأدعية القرآنية التي تعلمنا التوسل بأسماء الله الحسنى وصفاته العلى: ﴿ **وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا ۖ إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ** ﴾[البقرة:127] ﴿ **وَالَّذِينَ جَاءُوا مِن بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ** ﴾[الحشر:10] ﴿ **رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ** ﴾[البقرة:129].

وهناك أدعية نبوية كثيرة توسل فيها الرسول صلى الله عليه وسلم بالأسماء الحسنى والصفات العلى، وعلمنا أن نتوسل بها، منها" **اللَّهُمَّ بِعِلْمِكَ الْغَيْبَ، وَقُدْرَتِكَ عَلَى الْخَلْقِ، أَحْيِنِي مَا عَلِمْتَ**

---

(1) انظر الدر المنثور (71/3).

(2) تفسير ابن كثير (53:54/2)، تفسير النسفي (281/1)، والبيضاوي (321/1) وروح المعاني (26/15).

الْحَيَاةَ خَيْرًا لِي، وَتَوَفَّنِي إِذَا كَانَتِ الْوَفَاةُ خَيْرًا لِي..." [1].

"**اللَّهُمَّ إِنِّي عَبْدُكَ وَابْنُ أَمَتِكَ، نَاصِيَتِي فِي يَدِكَ مَاضٍ فِيَّ حُكْمُكَ، عَدْلٌ فِي قَضَاؤُكَ، أَسْأَلُكَ بِكُلِّ اسْمٍ هُوَ لَكَ سَمَّيْتَ بِهِ نَفْسَكَ، أَوْ أَنْــزَلْتَهُ فِي كِتَابِكَ، أَوْ عَلَّمْتَهُ أَحَدًا مِنْ خَلْقِكَ، أَوِ اسْتَأْثَرْتَ بِهِ فِي عِلْمِ الْغَيْبِ عِنْدَكَ، أَنْ تَجْعَلَ الْقُرْآنَ رَبِيعَ قَلْبِي**"[2].

ثانياً: التوسل إلى الله تعالى بالعمل الصالح كالإيمان والتوبة والاتباع والإخلاص وبر الوالدين والعفة، وترك المعاصي وغير ذلك، وهذا النوع من التوسل هو الذي انصرفت إليه أقوال المفسرين لقول الله عز وجل ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ وَجَاهِدُوا فِي سَبِيلِهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ** ﴾[المائدة:35].

وفي القرآن الكريم أدعية تربي المسلم على التوسل بالإيمان والاتباع والعمل الصالح، منها: ﴿ **رَّبَّنَا إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَانِ أَنْ آمِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا ۚ رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ الْأَبْرَارِ** ﴾[آل عمران:193] ﴿ **الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا إِنَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ** ﴾[آل عمران:16].

﴿ **رَبَّنَا آمَنَّا بِمَا أَنزَلْتَ وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ** ﴾[آل عمران: 53].

ومن أبرز الأمثلة في السنة على هذا الاتباع من التوسل الحديث الذي يحكي قصة الثلاثة الذين انطلقوا في سفر فآواهم المبيت إلى غار فدخلوه، فانحدرت صخرة من الجبل فسدت عليهم الغار، فدعوا وتوسلوا في دعائهم بخير أعمالهم، فتوسل الأول ببره لوالديه الكبيرين، وتوسل الثاني بعفته وتحرجه من الوقوع على ابنة عمه، وتوسل الثالث بموقفه من الأجير الذي ذهب وترك أجره، وحفظه لأجره في غيبته وتثميره له وأدائه إليه كاملاً غير منقــوص. والحديث في البخاري ومسلم عن ابن

---

(1) رواه النسائي في الكبرى (1211)، أحمد في المسند (17954)، والحاكم في المستدرك (1859)، وابن حبان في صحيحه (2010)، وابن أبي شيبة في المصنف (443)، وعبدالله بن أحمد في السنة (339)، "إسناده حسن" رجاله ثقات عدا عطاء بن السائب الثقفي وهو صدوق حسن الحديث.

(2) رواه أحمد في المسند (3583)، والحاكم في المستدرك (1812)، والطبراني في الكبير (10204)، ابن السني في عمل اليوم و الليلة (337)"صحيح".

عمر رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول :" **انْطَلَقَ ثَلاَثَةُ رَهْطٍ مِمَّنْ كَانَ قَبْلَكُمْ، حَتَّى أَوَوْا الْمَبِيتَ إِلَى غَارٍ فَدَخَلُوهُ، فَانْحَدَرَتْ صَخْرَةٌ مِنَ الْجَبَلِ فَسَدَّتْ عَلَيْهِمُ الْغَارَ، فَقَالُوا: إِنَّهُ لاَ يُنْجِيكُمْ مِنْ هَذِهِ الصَّخْرَةِ إِلاَ أَنْ تَدْعُوا اللَّهَ بِصَالِحِ أَعْمَالِكُمْ. فَقَالَ رَجُلٌ مِنْهُمْ: اللَّهُمَّ كَانَ لِي أَبَوَانِ شَيْخَانِ كَبِيرَانِ، وَكُنْتُ لاَ أَغْبِقُ قَبْلَهُمَا أَهْلاً وَلاَ مَالاً، فَنَأَى بِي فِي طَلَبِ شَيْءٍ يَوْمًا، فَلَمْ أُرِحْ عَلَيْهِمَا حَتَّى نَامَا، فَحَلَبْتُ لَهُمَا غَبُوقَهُمَا فَوَجَدْتُهُمَا نَائِمَيْنِ، وَكَرِهْتُ أَنْ أَغْبِقَ قَبْلَهُمَا أَهْلاً أَوْ مَالاً، فَلَبِثْتُ وَالْقَدَحُ عَلَى يَدَيَّ أَنْتَظِرُ اسْتِيقَاظَهُمَا حَتَّى بَرَقَ الْفَجْرُ، فَاسْتَيْقَظَا فَشَرِبَا غَبُوقَهُمَا، اللَّهُمَّ إِنْ كُنْتُ فَعَلْتُ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ وَجْهِكَ، فَفَرِّجْ عَنَّا مَا نَحْنُ فِيهِ مِنْ هَذِهِ الصَّخْرَةِ، فَانْفَرَجَتْ شَيْئًا لاَ يَسْتَطِيعُونَ الْخُرُوجَ، قَالَ النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم : وَقَالَ الْآخَرُ: اللَّهُمَّ كَانَتْ لِي بِنْتُ عَمٍّ كَانَتْ أَحَبَّ النَّاسِ إِلَيَّ، فَأَرَدْتُهَا عَنْ نَفْسِهَا، فَامْتَنَعَتْ مِنِّي حَتَّى أَلَمَّتْ بِهَا سَنَةٌ مِنَ السِّنِينَ، فَجَاءَتْنِي فَأَعْطَيْتُهَا عِشْرِينَ وَمِائَةَ دِينَارٍ، عَلَى أَنْ تُخَلِّيَ بَيْنِي وَبَيْنَ نَفْسِهَا، فَفَعَلَتْ حَتَّى إِذَا قَدَرْتُ عَلَيْهَا، قَالَتْ: لاَ أُحِلُّ لَكَ أَنْ تَفُضَّ الْخَاتَمَ إِلاَ بِحَقِّهِ، فَتَحَرَّجْتُ مِنَ الْوُقُوعِ عَلَيْهَا فَانْصَرَفْتُ عَنْهَا وَهِيَ أَحَبُّ النَّاسِ إِلَيَّ وَتَرَكْتُ الذَّهَبَ الَّذِي أَعْطَيْتُهَا، اللَّهُمَّ إِنْ كُنْتُ فَعَلْتُ ابْتِغَاءَ وَجْهِكَ فَافْرُجْ عَنَّا مَا نَحْنُ فِيهِ، فَانْفَرَجَتِ الصَّخْرَةُ غَيْرَ أَنَّهُمْ لاَ يَسْتَطِيعُونَ الْخُرُوجَ مِنْهَا، قَالَ النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم : وَقَالَ الثَّالِثُ: اللَّهُمَّ إِنِّي اسْتَأْجَرْتُ أُجَرَاءَ فَأَعْطَيْتُهُمْ أَجْرَهُمْ غَيْرَ رَجُلٍ وَاحِدٍ تَرَكَ الَّذِي لَهُ وَذَهَبَ فَثَمَّرْتُ أَجْرَهُ حَتَّى كَثُرَتْ مِنْهُ الْأَمْوَالُ، فَجَاءَنِي بَعْدَ حِينٍ، فَقَالَ: يَا عَبْدَ اللَّهِ، أَدِّ إِلَيَّ أَجْرِي، فَقُلْتُ لَهُ: كُلُّ مَا تَرَى مِنْ أَجْرِكَ مِنَ الْإِبِلِ، وَالْبَقَرِ، وَالْغَنَمِ، وَالرَّقِيقِ، فَقَالَ: يَا عَبْدَ اللَّهِ، لاَ تَسْتَهْزِئُ بِي، فَقُلْتُ: إِنِّي لاَ أَسْتَهْزِئُ بِكَ فَأَخَذَهُ كُلَّهُ، فَاسْتَاقَهُ فَلَمْ يَتْرُكْ مِنْهُ شَيْئًا، اللَّهُمَّ فَإِنْ كُنْتُ فَعَلْتُ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ وَجْهِكَ، فَافْرُجْ عَنَّا مَا نَحْنُ فِيهِ، فَانْفَرَجَتِ الصَّخْرَةُ، فَخَرَجُوا يَمْشُونَ**"(1).

ثالثا: التوسل إلى الله تعالى بدعاء الصالحين:

---

(1) رواه البخاري(2122)، ومسلم (4930)، والطبراني في مسند الشاميين(3095)، وأبو عوانة في مسنده (4428)، والبيهقى في الشعب (6811)"صحيح".

أي أن صاحب الحاجة يتقرب إلى الله تعالى ويتوسل إليه بدعاء الصالحين، فيطلب من أحد الصالحين أن يدعوا له، وقد حدث هذا على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم وخلفائه. من ذلك ما رواه أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رضي الله عنه، قَالَ: أَصَابَتِ النَّاسَ سَنَةٌ عَلَى عَهْدِ النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم، فَبَيْنَا النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم يَخْطُبُ فِي يَوْمِ جُمُعَةٍ قَامَ أَعْرَابِيٌّ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، هَلَكَ الْمَالُ وَجَاعَ الْعِيَالُ فَادْعُ اللَّهَ لَنَا، "فَرَفَعَ يَدَيْهِ وَمَا نَرَى فِي السَّمَاءِ قَزَعَةً فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ مَا وَضَعَهَا حَتَّى ثَارَ السَّحَابُ أَمْثَالَ الْجِبَالِ، ثُمَّ لَمْ يَنـــزِلْ عَنْ مِنْبَرِهِ حَتَّى رَأَيْتُ الْمَطَرَ يَتَحَادَرُ عَلَى لِحْيَتِهِ صلى الله عليه وسلم، فَمُطِرْنَا يَوْمَنَا ذَلِكَ وَمِنَ الْغَدِ وَبَعْدَ الْغَدِ وَالَّذِي يَلِيهِ حَتَّى الْجُمُعَةِ الْأُخْرَى وَقَامَ ذَلِكَ الْأَعْرَابِيُّ أَوْ قَالَ غَيْرُهُ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، تَهَدَّمَ الْبِنَاءُ وَغَرِقَ الْمَالُ فَادْعُ اللَّهَ لَنَا، فَرَفَعَ يَدَيْهِ فَقَالَ: **اللَّهُمَّ حَوَالَيْنَا وَلاَ عَلَيْنَا**، فَمَا يُشِيرُ بِيَدِهِ إِلَى نَاحِيَةٍ مِنَ السَّحَابِ إِلاَ انْفَرَجَتْ وَصَارَتْ الْمَدِينَةُ مِثْلَ الْجَوْبَةِ وَسَالَ الْوَادِي قَنَاةُ شَهْرًا وَلَمْ يَجِئْ أَحَدٌ مِنْ نَاحِيَةٍ إِلاَ حَدَّثَ بِالْجَوْدِ "[1].

ففي هذه الواقعة توسل الأعرابي بدعاء رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال له: فادع الله لنا "فدعا رسول الله صلى الله عليه وسلم فتحقق بذلك المراد.

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه: أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه إذا قحطوا استسقى بالعباس بن عبد المطلب، فقال "اللَّهُمَّ إِنَّا كُنَّا إِذَا قَحَطْنَا عَلَى عَهْدِ نَبِيِّكَ صلى الله عليه وسلم، وَاسْتَسْقَينَا بِهِ، فَسَقَيْتَنَا، وإِنا نَتَوَسَّلُ إِلَيْكَ الْيَوْمَ بِعَمِّ نَبِيِّكَ صلى الله عليه وسلم، فَاسْقِنَا قَالَ: فَسُقُوا"[2].

وهذا الحديث ليس له إلا معنى واحد، وهو أن الصحابة رضوان الله عليهم كانوا إذا قحطوا استسقوا برسول الله صلى الله عليه وسلم، أي طلبوا منه أن يدعو لهم وأن يطلب من الله السقيا والغوث، فلما مات رسول الله صلى الله عليه وسلم توسموا في العباس خيراً؛ فكانوا يستسقون به ويقدمونه للدعاء، فكان يدعوا لهم ويستسقي لهم.

ومثل هذا حدث في عهد معاوية رضي الله عنه، فقد استسقى معاوية بالأسود بن يزيد

---

(1) رواه البخاري (887)، ومسلم (1496)، والنسائي في الكبرى (1831)، أحمد في المسند (13427)، وابن خزيمه في صحيحه (1423) وأبو عوانة في مسنده (1985)، والبيهقى في الكبرى (5410) "صحيح".

(2) رواه ابن حبان في صحيحه (2937)، والطبراني في الكبير (82).

الجرشي، فعن سليم بن عامر الخبائري أن السماء قحطت، فخرج معاوية بن أبي سفيان وأهل دمشق يستسقون، فلما قعد معاوية على المنبر قال أين يزيد بن الأسود الجرشي، قال: فناداه الناس فأقبل يتخطى، فأمره معاوية فصعد المنبر فقعد عند رجليه، فقال معاوية: اللهم إنا نستشفع إليك بخيرنا وأفضلنا، اللهم إنا نستشفع إليك بيزيد بن الأسود الجرشي، يا يزيد ارفع يدك إلى الله، فرفع يزيد يديه ورفع الناس أيديهم، فما كان أوشك أن ثارت سحابة في المغرب وهب ريح فسقينا حتى كاد الناس لا يصلون إلى منازلهم"[1].

وكذلك فعل الضحاك بن قيس، حيث استسقى بدعاء يزيد بن الأسود الجرشي الذي كان يلقب بالبكاء لكثرة بكائه، فقال: قم يا بكاء فقام فدعى واستسقى[2].

هذه هي **أنواع التوسل المشروع التي لم يخالف فيها أحد من العلماء.**

أما التوسل بذات النبي صلى الله عليه وسلم أو بجاهه عند الله تعالى، أو بحق أحد من الأنبياء أو الأولياء، أو ما شابه ذلك فهذا مما اختلف فيه العلماء، فبعضهم أجازه وبعضهم منعه، لكن العبرة بالدليل.

والمطالب بالدليل هو من يقول بالمشروعية لا من يقول بالمنع؛ إذ الأصل في العبادات المنع حتى يقوم الدليل على تشريعها، فما لم يقم دليل على تشريعه لا يصح التعبد به؛ لأن "دين الإسلام مبني على أصلين عظيمين، أحدهما: ألا يعبد إلا الله وحده، والثاني: ألا يعبد إلا بشريعة نبيه ورسوله محمد صلى الله عليه وسلم ، وهذا معنى شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمد رسول الله"[3].

وعلى هذا فالقائلون بالمنع عمدتهم في الاستدلال على حكمهم هذا أنه لم يرد في الكتاب ولا في السنة ما يدل على المشروعية، بل إن بعض النصوص التي يستدل بها على مشروعية التوسل بدعاء الصالحين يفهم منها عدم مشروعية التوسل بجاههم أو حقهم أو ذواتهم –كما سيأتي عند استعراض حديث استسقاء عمر بالعباس– ودعموا استدلالهم هذا بأن هذا التوسل غير مؤثر لا في التقريب ولا في

(1) الطبقات الكبرى (444/7)، تاريخ دمشق (112/65) مختصر تاريخ دمشق (3722/1)، تاريخ الإسلام (678/1).
(2) الإصابة في تمييز الصحابة (697/6)، تاريخ دمشق (112/65).
(3) إقامة البراهين، لفضيلة الشيخ ابن باز (ص8).

إجابة الدعاء؛ يقول شيخ الإسلام رحمه الله: "قول السائل لله سبحانه وتعالى: أسألك بحق فلان وفلان من الملائكة أو الأنبياء أو الصالحين أو غيرهم أو بجاه فلان أو بحرمة فلان يقتضي أن هؤلاء لهم عند الله جاه، وهذا صحيح، فإن هؤلاء لهم عند الله منـــزلة وجاه وحرمة يقتضي أن يرفع الله درجاتهم ويعظم أقدارهم، ويقبل شفاعتهم إذا شفعوا. ويقتضي أيضاً أن من تبعهم واقتدى بهم فيما سُنَّ له الاقتداء بهم فيه كان سعيداً، ولكن ليس نفس مجرد جاههم مما يقتضي إجابة دعائه إذا سأل الله بهم"(1).

وقال أيضاً: "ما بين الله ورسوله أنه حق للعباد على الله فهو حق، لكن الكلام في السؤال بذلك، فيقال: إذا كان الحق الذي سأل به سبباً لإجابة السؤال حسن السؤال به كالحق الذي يجب لعابديه وسائليه، وأما إذا قال السائل: بحق فلان وفلان، فأولئك إذا كان لهم عند الله حق ألا يعذبهم وأن يكرمهم بثوابه ويرفع درجاتهم - كما وعدهم بذلك وأوجبه على نفسه - فليس في استحقاق أولئك ما استحقوه من كرامة الله ما يكون سبباً لمطلوب هذا السائل، فإن ذلك استحق ما استحقه .بما يسره الله له من الإيمان والطاعة، وهذا لا يستحق ما استحقه ذلك، فليس في إكرام الله لذلك سبب يقتضي إجابة هذا، وإن قال: السبب هو شفاعته ودعاؤه فهذا حق إذا كان قد شفع له ودعا له، وإذا لم يشفع له و لم يدع له لم يكن هناك سبب"(2).

ومما يدعم قول المانعين من التوسل بذوات الأنبياء والأولياء وبجاههم وحقهم أن هذا النوع من التوسل -وإن لم يكن بذاته شركاً- إلا أنه ذريعة إلى الشرك وإلى سؤال غير الله ودعائه والاستغاثة والاستعانة به، لذلك لم يكن غريباً أن يصدر من بعض المتصوفة عبارات مشحونة بالألفاظ الشركية، من مثل قول البرعي:

يا سيدي يا رسول الله يا أملـــي	يا موئلي وملاذي يوم يلقـــاني
هبني بجاهك ما قدمت من ذلـــك	جوداً ورجح بفضل منك ميزاني
واسمع دعاءي واكشف ما يساورني	من الخطوب ونفس كل أحزاني

(1) قاعدة جليلة في التوسل والوسيلة (ص64).
(2) قاعدة جليلة في التوسل والوسيلة (ص71).

فأنت أقرب من ترجى عواطفـــه ... عندي وإن بعدت داري وأوطاني[1]

وأوطـــــــــــــــــــاني[1]

ويقول صاحب البردة:

يا أكرم الخلق مالي من ألوذ بـــه ... سواك عند حلول الحادث العمم

ولن يضيق –رسول الله– جاهك بي ... إذا الكريم تحلى باسم منـــتقم[2]

وقال الميرغني مخاطباً رسول الله صلى الله عليه وسلم :

فلا تخيب رجائي أنـــت أرأف بي ... من لي سواك مزيل الغم والضرر

وأحسن ختامي إذا وافى الحمام وصل ... حبلي بحبل رجاء منك مستتر[3]

مســـــــــــــــــــتتر[3]

ويقول محمد الجمال الحلبي:

يا ملاذي يا منجدي يـــا منـــائي ... يا معاذي يا مقصدي يا رجائي

يا نصيري يا عمدتي يـــا مجـــيري ... يا خفيري يا عدتي يا شـــفائي

أنت عوني وملجـــأي وغيـــاثي ... وجلا كربتي وأنـــت غنـــائي[4]

فلست أدري ما الذي تركه أصحاب هذه الكلمات لله عز وجل ؟! وماذا يمكن أن يقال لله عز وجل أكبر من هذه الكلمات ؟!.

والذين قالوا بجواز التوسل بذوات الأنبياء والأولياء، وبحقهم وجاههم، وما شابه ذلك ليس معهم دليل صحيح، وليس لديهم سند لا من كتاب ولا سنة، وإنما أدلتهم التي استدلوا بها إما أنها أحاديث موضوعة أو ضعيفة، وإما أنها أحاديث صحيحة ولكنها في التوسل بدعاء الأنبياء والأولياء لا بذواتهم. وفيما يلي نستعرض أدلتهم ونكشف ما بها من زيف.

---

(1) ديوان عبد الرحيم البرعي (ص25).

(2) بردة المديح (ص35).

(3) الديوان الكبير لجعفر الصادق الميرغني (ص51).

(4) شواهد الحق للنبهاني (ص353).

الدليل الأول:

استسقاء عمر رضي الله عنه بالعباس بمحضر الصحابة الكرام رضي الله عنهم أجمعين، قالوا إن هذا الاستسقاء دليل على جواز الاستسقاء بالصالحين، ويعتبر إقرار الصحابة لعمر وعدم إنكارهم عليه إجماعاً.

والواقع أن هذا الصنيع من أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه، ومن الصحابة الكرام رضي الله عنهم لا يدل على ما ذهبوا إليه البتّة، بل يدل على خلاف ما ذهبوا إليه، وهو عدم مشروعية هذا النوع من التوسل؛ لأنه" لو كان التوسل هو بذاته صلى الله عليه وسلم لكان هذا أولى من التوسل بالعباس، فلما عدلوا عن التوسل به إلى التوسل بالعباس علم أن ما يفعل في حياته قد تعذر بعد موته"[1].

فالذي كان يفعل في حياة النبي صلى الله عليه وسلم هو التوسل إلى الله بدعائه كما حدث في أحاديث الاستسقاء التي سبق سردها، فلما توفي رسول الله صلى الله عليه وسلم تعذر التوسل بدعائه، فعدل الصحابة إلى التوسل بدعاء العباس، ولم يكن فعل عمر والصحابة توسلاً بذات العباس، كما لم يكن فعلهم في حياة النبي إذا أجدبوا توسلاً بذات النبي صلى الله عليه وسلم ولا بجاهه ولا سؤال لله بالنبي صلى الله عليه وسلم " ولو كان السؤال به معروفاً عند الصحابة لقالوا لعمر: إن السؤال والتوسل به أولى من السؤال والتوسل بالعباس، فَلِمَ تعدل عن الأمر المشروع الذي كنا نفعله في حياته وهو التوسل بأفضل الخلق إلى أن نتوسل ببعض أقاربه ؟ وفي ذلك ترك للسنة المشروعة، وعدول عن الأفضل وسؤال لله تعالى بأضعف السببين، مع القدرة على أعلاهما ونحن مضطرون غاية الاضطرار في عام الرمادة "[2].

ولما أسقط في أيدي الصوفية، ورأوا أن دليلهم قد انقلب عليهم راحوا يفلسفون المسألة، فقالوا إن توسل الصحابة بجاه العباس إنما هو لبيان جواز التوسل بالمفضول مع وجود الفاضل ! فانظر كيف تكون

---

(1) قاعدة جليلة في التوسل لشيخ الإسلام (ص56).

(2) قاعدة جليلة في التوسل لشيخ الإسلام (ص75).

الحذلقة ؟ ويا لها من حذلقة!!.

إن صحابة النبي صلى الله عليه وسلم لم يعرفوا يوماً من الأيام شيئاً من هذه الحذلقة المصطنعة التي إن دلت فإنما تدل على الترف والفراغ العقلي، لقد كانوا واقعيين وجادين، وعندما طلبوا العباس ليستسقوا بدعائه لم يكونوا في حال يسمح لهم بأن تخطر ببالهم مثل هذه الحذلقة الفقهية، وإنما كانوا في شدة تستدعي منهم أن يأخذوا بأقوى الأسباب وأعلاها.

ثم إن عبارة أنس رضي الله عنه تدل على أن هذا لم يقع منهم مرة واحدة، فلم يقل أنس إن عمر لما قحطوا استسقى بالعباس، وإنما قال "كانوا إذا قحطوا " وهذه العبارة بهذا الأسلوب تدل على تكرار الواقعة، فلو كان استسقاء عمر والصحابة بالعباس إنما لبيان جواز التوسل بالمفضول مع جواز الفاضل لاكتفوا بمرة واحدة.

وقد حسم الإمام ابن حجر المسألة بما رواه عن الزبير بن بكار، فقد قال في الفتح: "وقد بين الزبير بن بكار في الأنساب صفة ما دعى به العباس في هذه الواقعة، والوقت الذي وقع فيه ذلك فأخرج بإسناد له أن العباس لما استسقى به عمر قال :" اللهم إنه لم ينـــزل بلاء إلا بذنب ولم يكشف إلا بتوبة، وقد توجه القوم بي إليك؛ لمكاني من نبيك، وهذه أيدينا إليك بالذنوب ونواصينا إليك بالتوبة فاسقنا الغيث، فأرخت السماء مثل الجبل، حتى أخصبت الأرض وعاش الناس"[1].

إن استسقاء الصحابة بالعباس هو من جنس استسقائهم بالنبي صلى الله عليه وسلم ؛ ولذلك قال عمر: اللهم إنا كنا نتوسل إليك بنبينا فتسقينا، وإنا نتوسل إليك بعم نبينا فاسقنا.

ولقد كان استسقاؤهم بالنبي صلى الله عليه وسلم طلباً للدعاء منه، كما هو واضح في جميع أحاديث الاستسقاء، فلا شك أن استسقاء الصحابة بالعباس كان توسلاً بدعائه لا بذاته ولا جاهه.

الدليل الثاني: حديث عُثْمَانَ بْنِ حُنَيْفٍ: أَنَّ رَجُلا ضَرِيرًا أَتَى النَّبِيَّ صلى الله عليه وسلم ، فَقَالَ: ادْعُ اللَّهَ أَنْ يُعَافِيَنِي، قَالَ: "إِنَّ شِئْتَ أَخَّرْتُ ذَلِكَ، وَهُوَ خَيْرٌ، وَإِنْ شِئْتَ دَعَوْتُ" قَالَ أَبُو مُوسَى، قَالَ: فَادْعُهُ، وَقَالا: فَأَمَرَهُ أَنْ يَتَوَضَّأَ، قَالَ بُنْدَارٌ: فَيُحْسِنُ، وَقَالا: وَيُصَلِّي رَكْعَتَيْنِ وَيَدْعُو بِهَذَا

(1) فتح الباري (2/497).

الدُّعَاءِ: " اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ وَأَتَوَجَّهُ إِلَيْكَ بِنَبِيِّكَ مُحَمَّدٍ نَبِيِّ الرَّحْمَةِ، يَا مُحَمَّدُ إِنِّي تَوَجَّهْتُ بِكَ إِلَى رَبِّي فِي حَاجَتِي هَذِهِ فَتَقْضِي لِي، اللَّهُمَّ شَفِّعْهُ فِيَّ "[1].

وفي رواية " اللَّهُمَّ شَفِّعْهُ فِيَّ وَشَفِّعْنِي فِيهِ "[2].

هذا الحديث يستشهد به الصوفية على جواز التوسل بذات النبي صلى الله عليه وسلم ، وقد استشهد به الدكتور صبيح[3]، وأورد رواية أخرى ليؤكد بها استدلاله، وهي عند الطبراني، عَنْ عُثْمَانَ بْنِ حُنَيْفٍ أَنَّ رَجُلا "كَانَ يَخْتَلِفُ إِلَى عُثْمَانَ بْنِ عَفَّانَ رضي الله عنه فِي حَاجَةٍ لَهُ، فَكَانَ عُثْمَانُ لا يَلْتَفِتُ إِلَيْهِ وَلا يَنْظُرُ فِي حَاجَتِهِ، فَلَقِيَ ابْنَ حُنَيْفٍ فَشَكَى ذَلِكَ إِلَيْهِ، فَقَالَ لَهُ عُثْمَانُ بْنُ حُنَيْفٍ: ائْتِ الْمِيضَأَةَ فَتَوَضَّأْ، ثُمَّ ائْتِ الْمَسْجِدَ فَصَلِّ فِيهِ رَكْعَتَيْنِ، ثُمَّ قُلْ: اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ وَأَتَوَجَّهُ إِلَيْكَ بِنَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ صلى الله عليه وسلم نَبِيِّ الرَّحْمَةِ، يَا مُحَمَّدُ إِنِّي أَتَوَجَّهُ بِكَ إِلَى رَبِّي فَتَقْضِي لِي حَاجَتِي وَتَذْكُرُ حَاجَتَكَ، وَرُحْ حَتَّى أَرُوحَ مَعَكَ، فَانْطَلَقَ الرَّجُلُ فَصَنَعَ مَا قَالَ لَهُ، ثُمَّ أَتَى بَابَ عُثْمَانَ بْنِ عَفَّانَ رضي الله عنه، فَجَاءَ الْبَوَّابُ حَتَّى أَخَذَ بِيَدِهِ فَأَدْخَلَهُ عَلَى عُثْمَانَ بْنِ عَفَّانَ رضي الله عنه، فَأَجْلَسَهُ مَعَهُ عَلَى الطِّنْفِسَةِ حُنَيْفًا، فَقَالَ: حَاجَتُكَ ؟ فَذَكَرَ حَاجَتَهُ وَقَضَاهَا لَهُ، ثُمَّ، قَالَ لَهُ: مَا ذَكَرْتُ حَاجَتَكَ حَتَّى كَانَ السَّاعَةُ، وَقَالَ: مَا كَانَتْ لَكَ مِنْ حَاجَةٍ فَاذْكُرْهَا، ثُمَّ إِنَّ الرَّجُلَ خَرَجَ مِنْ عِنْدِهِ فَلَقِيَ عُثْمَانَ بْنَ حَنِيفٍ، فَقَالَ لَهُ: جَزَاكَ اللَّهُ خَيْرًا مَا كَانَ يَنْظُرُ فِي حَاجَتِي وَلا يَلْتَفِتُ إِلَيَّ حَتَّى كَلَّمْتَهُ فِيَّ، فَقَالَ عُثْمَانُ بْنُ حُنَيْفٍ: وَاللَّهِ مَا كَلَّمْتُهُ، وَلَكِنِّي شَهِدْتُ رَسُولَ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم وَأَتَاهُ ضَرِيرٌ فَشَكَى إِلَيْهِ ذَهَابَ بَصَرِهِ، فَقَالَ لَهُ النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم : فَتَصَبَّرْ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، لَيْسَ لِي قَائِدٌ وَقَدْ شَقَّ عَلَيَّ، فَقَالَ النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم : "ائْتِ الْمِيضَأَةَ فَتَوَضَّأْ، ثُمَّ صَلِّ رَكْعَتَيْنِ، ثُمَّ ادْعُ بِهَذِهِ الدَّعَوَاتِ"، قَالَ ابْنُ حُنَيْفٍ: فَوَاللَّهِ مَا تَفَرَّقْنَا وَطَالَ بِنَا الْحَدِيثُ حَتَّى دَخَلَ

(1) رواه الترمذي في السنن (3532)، والنسائي في الكبرى (10042)، أحمد في المسند (16903)، والحاكم في المستدرك (1116)، وابن خزيمه في صحيحه (1155)، ابن السني في عمل اليوم و الليلة (623) "إسناده حسن".

(2) رواه أحمد في المسند (16904)، والحاكم في المستدرك (1116) هَذَا حَدِيثٌ صَحِيحٌ عَلَى شَرْطِ الشَّيْخَيْنِ، وَلَمْ يُخَرِّجَاهُ "إسناده حسن".

(3) انظر أخطاء ابن تيمية (ص312).

عَلَيْنَا الرَّجُلُ كَأَنَّهُ لَمْ يَكُنْ بِهِ ضُرٌّ قَطُّ "[1].

ساق الدكتور صبيح هذا الخبر بروايتيه ثم علق عليه قائلاً :"قلت: هذا نص قطعي في جواز الاستعانة والنداء والاستغاثة ونداء النبي صلى الله عليه وسلم في مغيبه"[2].

هكذا !! بطريقة الدكتور صبيح الفريدة صار الخبر الآنف نصاً قطعياً – ليس في الدلالة على التوسل بذات النبي وحسب – وإنما في الدلالة على جواز الاستعانة والاستغاثة.

ولو سار الناس في استدلالهم على هذه الطريقة لصارت الأكاذيب حقائق والخرافات قطعيات، ولتبدلت قناعات الناس حتى يروا الحق باطلاً والباطل حقاً.

أين هي الاستعانة والاستغاثة أصلاً في هذا السياق حتى يكون الخبر دليلاً قطعياً على مشروعيتها؟ إنّ أشد عبارة في هذا الخبر هي: "اللهم إني أسألك وأتوجه إليك بنبينا نبي الرحمة، يا محمد إني أتوجه بك إلى ربك" وليس في هذه العبارة – البتة – ما يشير من قريب أو بعيد إلى الاستعانة والاستغاثة، فلم يقل: يا محمد اكشف الضر عني، أوردّ علي بصري، و لم يقل مثلما قال هذا الصوفي المخرف:

يا سيدي يا رسول الله خذ بيدي في كل هول من الأهوال ألقـــاه

إن كان زارك قوم لم أزر معهـــم فإن عبـــدك عاقته خطايـــاه [3]

أقصى ما يمكن أن تدل عليه هذه العبارة هو جواز التوسل بذات النبي صلى الله عليه وسلم ، ومع ذلك فليست هذه الدلالة قطعية، وسوف يتبين لنا بعد قليل أنها مرجوحة، بل ليست صحيحة؛ مما يدل على أن الدكتور صبيح ليس من أهل النظر الفقهي، ولا يملك شيئاً من أدواته، وأولى به أن يبحث له عن (حضرة) صوفية يرتل فيها شيئا من أورادهم.

وقبل أن ننظر في هذا الخبر ينبغي أولاً أن نبين حكم الزيادة الواردة عند الطبراني والتي فيها قصة الرجل الذي اختلف على عثمان بن عفان فلم يقض له حاجته حتى صلى وتوسل بالنبي صلى

---

(1) المعجم الكبير للطبراني (8230)، ودلائل النبوة للبيهقي (2425)، ومعرفة الصحابة لأبي نعيم (4525)، والعدة للكرب و و الشدة لضياء الدين المقدسي (29)"" إسناده ضعيف" فيه طاهر بن عيسى بن قيرس المصري وهو مجهول الحال.

(2) أخطاء ابن تيمية (ص313).

(3) ديوان عبدا لرحيم البرعي (ص14).

الله عليه وسلم كما نصحه عثمان بن حنيف.

هذه الزيادة تفرد بها سعيد بن شبيب، عن روح بن القاسم، ورواها عنه عبدالله بن وهب، وسعيد بن شبيب هذا "لا بأس بحديثه من رواية ابنه أحمد عنه لا من رواية ابن وهب"[1].

بشرط أن يكون قد رواها عن يونس بن يزيد لأن "لشبيب نسخة عن يونس عن الزهري أحاديث مستقيمة، وحدث عنه ابن وهب بأحاديث مناكير"[2]، وسعيد بن شبيب صدوق و"كان عنده كتب يونس بن يزيد "[3].

وكان يحدث منها، وكان "إذا روى عنه ابنه أحمد بن شبيب نسخة يونس عن الزهري إذا هي أحاديث مستقيمة"[4].

فلما قدم مصر "حدث من حفظه فغلط"[5].

لذلك "أخرج البخاري من رواية ابنه عنه عن يونس أحاديث، ولم يخرج من روايته عن غير يونس، ولا من رواية ابن وهب عنه شيئاً"[6].

ومن هنا يظهر لنا ضعف هذه القصة وعدم صلاحيتها للاحتجاج، خاصة في مجال العقيدة، الذي لا يصح فيه تسنيد رواية واهية لمناطحة المحكمات المقررة بنصوص الكتاب والسنة.

ولم يبق لنا الآن إلا أن ننظر في أصل الحديث، هل في هذا الحديث ما يدل على جواز ومشروعية التوسل بذات النبي صلى الله عليه وسلم ؟

إنّ إطلالة سريعة على هذا الحديث لتؤكد أنه بعيد كل البعد عن التوسل بذات النبي صلى الله عليه وسلم ، وأنه ليس فيه إلا التوسل بدعاء النبي صلى الله عليه وسلم وشفاعته لذلك ذكرالعلماء

---

(1) تقريب التهذيب (263/1).
(2) تهذيب الكمال (360/12)، تهذيب التهذيب (269/4).
(3) الجرح والتعديل لابن أبي حاتم (361/12).
(4) الكامل في الضعفاء (31/4).
(5) فتح الباري (409/1).
(6) فتح الباري (409/1).

في معجزات النبي صلى الله عليه وسلم دعاءه المستجاب[1].

وفي لفظ الحديث أربعة أدلة على هذا، فإن "قول الأعمى: (ادع الله يعافيني) فيه بيان واضح جلي لقصد الأعمى من المجيء، وهو أنه ما جاء إلا من أجل أن يدعو له رسول الله صلى الله عليه وسلم بالشفاء من ضره، وإن قول رسول الله صلى الله عليه وسلم مجيباً للأعمى: (إن شئت دعوت، وإن شئت صبرت) لدليل آخر على أن الأعمى ما جاء إلا من أجل الدعاء، وفيه تخيير من رسول الله صلى الله عليه وسلم بالدعاء أو الصبر، حتى إذا شاء الأعمى الدعاء دعا له، وفي تخييره هذا وعد بالدعاء إن شاءه، وإن إصرار الأعمى على الدعاء بقوله (فادعه) لدليل ثالث على أن مجيئه لم يكن إلا من أجل الدعاء، ومن إصراره يفهم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم دعا له؛ لأنه وعد بذلك إذا شاء الدعاء، وقد شاء بقوله (فادعه)، على أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أحب أن يكون للأعمى كذلك مشاركة في الدعاء، ولكن لم يترك الأعمى أن يدعو ربه بما شاء، بل علمه دعاءً خاصاً وأمره أن يدعو الله به، بالإضافة إلى دعائه صلى الله عليه وسلم ، وإن قول الأعمى في آخر الدعاء الذي علمه إياه رسول الله صلى الله عليه وسلم : (اللهم شفعه فيّ) لدليل رابع على الدعاء، والشفاعة من رسول الله صلى الله عليه وسلم لا تسمى شفاعة ولا تكون إلا بدعاء الشافع للمشفوع له، فدعاء الأعمى أن يقبل الله شفاعة رسوله فيه يدل على أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد دعا له فعلاً، والأعمى يطلب من الله قبول دعاء رسوله "[2].

فليس إذا في هذا الحديث ما يدل على التوسل بذات النبي صلى الله عليه وسلم ، ولو أننا تجاهلنا كل الأدلة السابقة وحملنا عبارة: (يا محمد إني أتوجه بك إلى ربي) على
ظاهرها لكان هذا "معطلاً لقوله فيما بعد (اللهم فشفعه فيّ وشفعني فيه) وهذا لا يجوز كما لا يخفى"[3].

لأن الشفاعة لا تكون إلا بدعاء الشافع للمشفوع.فوجب حمل العبارة على التوسل بالدعاء لا

(1) انظر قاعدة جليلة في التوسل والوسيلة (ص106، 107).

(2) التوصل إلى حقيقة التوسل المشروع والممنوع لمحمد نسيب الرفاعي (ص229).

(3) التوسل أنواعه وأحكامه/ لمحمد ناصر الدين الألباني (ص76).

بالذات.

أما الزيادة التي أفردها حماد بن سلمة وهي :" وإن كانت حاجة فافعل مثل ذلك".

فيجب حملها -إن صحت- على إتيانه صلى الله عليه وسلم في حياته، أي: إن ألمت بك حاجة فافعل مثل هذا بأن تأتي رسول الله صلى الله عليه وسلم وتطلب منه الدعاء؛ وذلك لتنسجم مع سياق الحديث.

ثم إن الزيادة قد أعلها شيخ الإسلام في (قاعدة جليلة) بتفرد حماد بن سلمة بها ومخالفته لمن هو أوثق منه وهو شعبة. ولا يقال هنا إن زيادة الثقة مقبولة؛ لأن الزيادة المقبولة مشروطة بعـــدم مخالفة الراوي لمن هو أوثق منه " فإن خولف بأرجح فالراجح المحفوظ ومقابله شاذ"[1].

فهي إذا زيادة شاذة غير مقبولة.

الدليل الثالث:

عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ مرفوعاً، قَالَ، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم : " مَنْ خَرَجَ مِنْ بَيْتِهِ إِلَى الصَّلاَةِ فَقَالَ: اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ بِحَقِّ السَّائِلِينَ عَلَيْكَ، وَأَسْأَلُكَ بِحَقِّ مَمْشَايَ هَذَا،.." الحديث [2].

فقد استدلوا بهذا الحديث على جواز التوسل بالحق، أي بحق كذا وكذا.وليس في الحديث دليل على ادعائهم؛ لسببين، **الأول**: أن الحديث ضعيف لأن في سنده عطية العوفي وهو ضعيف[3] وقال عنه ابن حجر: "صدوق يخطئ كثيراً كان شيعياً مدلساً"[4].

الثاني: وعلى فرض صحة الحديث فإنه لا ينتج مدعاهم؛ لأن التوسل فيه جنس من التوسل بالعمل الصالح وليس من جنس التوسل بالذوات أو الحياة أو ما شابه ذلك؛ " فحق السائلين عليه أن يجيبهم،

---

(1) نخبة الفكر (13/1).

(2) رواه ابن ماجة في السنن (770)، أحمد في المسند (10942)، وابن الجعد في مسنده (1725)، ابن السني في عمل اليوم و الليلة (85) "ضعيف" في إسناده الفضل بن الموفق بن أبي المتئد الثقفي وهو ضعيف الحديث وعطية بن سعد العوفي وهو ضعيف الحديث.

(3) الضعفاء والمتروكين (85/1).

(4) تقريب التهذيب (393/1).

وحق العابدين عليه أن يثيبهم، وهو حق أوجبه على نفسه لهم، كما يسأل بالإيمان والعمل الصالح الذي جعله سبباً لإجابة الدعاء، كما في قوله ﴿ **وَيَسْتَجِيبُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِ** ﴾[الشورى:26] وكما يسأل بوعده؛ لأن وعده يقتضي إنجاز ما وعده.."[1].

الدليل الرابع:

عن عمر بن الخطاب مرفوعاً "لَمَّا اقْتَرَفَ آدَمُ الْخَطِيئَةَ، قَالَ: يَا رَبِّ، أَسْأَلُكَ بِحَقِّ مُحَمَّدٍ لَمَا غَفَرْتَ لِي، فَقَالَ اللَّهُ: يَا آدَمُ، وَكَيْفَ عَرَفْتَ مُحَمَّدًا وَلَمْ أَخْلُقْهُ ؟ قَالَ: يَا رَبِّ، لأَنَّكَ لَمَّا خَلَقْتَنِي بِيَدِكَ وَنَفَخْتَ فِيَّ مِنْ رُوحِكَ رَفَعْتُ رَأْسِي فَرَأَيْتُ عَلَى قَوَائِمِ الْعَرْشِ مَكْتُوبًا لا إِلَهَ إِلا اللَّهُ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ، فَعَلِمْتُ أَنَّكَ لَمْ تُضِفْ إِلَى اسْمِكَ إِلا أَحَبَّ الْخَلْقِ إِلَيْكَ، فَقَالَ اللَّهُ: صَدَقْتَ يَا آدَمُ، إِنَّهُ لأُحِبُّ الْخَلْقِ إِلَيَّ ادْعُنِي بِحَقِّهِ، فَقَدْ غَفَرْتُ لَكَ وَلَوْلا مُحَمَّدٌ مَا خَلَقْتُكَ "[2].

ففي هذا الحديث تصريح بالتوسل بحق النبي محمد صلى الله عليه وسلم ، إلا أن هذا الحديث لا تقوم به حجة، فقد رواه الحاكم في المستدرك وقال صحيح الإسناد، فتعقبه الذهبي بقوله " قلت: بل موضوع، وعبد الرحمن واه، وعبد الله بن أسلم الفهري لا أدري من ذا " ورواه الطبراني في المعجم الصغير، بسند تفرد فيه عبد الرحمن بن زيد، وهو متهم بالوضع، ومن دونه في السند قال عنهم الهيثمي "فيه من لم أعرفهم" بل فيه ثلاثة مجهولون.

ثم إن هذا الحديث فيه ما يخالف القرآن، فإن الله عز وجل لم يغفر لآدم لتوسله بمحمد صلى الله عليه وسلم ، وإنما غفر له بكلمات تلقاها آدم فتاب بها إلى الله فتاب الله عليه وغفر له، قال تعالى: ﴿ **فَتَلَقَّىٰ آدَمُ مِن رَّبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ** ﴾ [البقرة:37] قال ابن عباس: ﴿ **فَتَلَقَّىٰ آدَمُ مِن رَّبِّهِ كَلِمَاتٍ** ﴾ قال أي رب ألم تخلقني بيدك؟ قال: بلى، قال: ألم تنفخ فيّ من روحك؟ قال: بلى، قال: أي رب ألم تسكني جنتك؟ قال: بلى، قال: ألم تسبق رحمتك غضبك؟ قال: بلى، قال: أرأيت إن تبت وأصلحت أراجعي أنت إلى جنتك؟ قال: بلى، قال فذلك قوله (فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ

---

(1) قاعدة جليلة (ص62).
(2) رواه الحاكم في المستدرك (4169)، والبيهقي في دلائل النبوة (2251) "موضوع".

كَلِمَاتٍ) قال الحاكم صحيح الاسناد ووافقه الذهبي، وهذا يأخذ حكم المرفوع ولا شك؛ لأنه مما لا مجال للاجتهاد فيه بل هو أمر غيبي لا يعرف إلا من قبل النبي صلى الله عليه وسلم . ولأن قائله هو من دعا له رسول الله صلى الله عليه وسلم : " اللَّهُمَّ فَقِّهْهُ فِي الدِّينِ، وَعَلِّمْهُ التَّأْوِيلَ"[1].

الدليل الخامس:

جملة من الأحاديث التي لا أصل لها، مثل حديث: "توسلوا بجاهي فإن جاهي عند الله عظيم" وقد بين شيخ الإسلام في قاعدة جليلة بطلان هذا الخبر.

هذه هي أهم أدلة الصوفية على جواز التوسل بذات النبي صلى الله عليه وسلم وبجاهه وحقه، وهي أدلة واهية لا تقوم على ساق، ويبدو أن الصوفية كلما سقط دليل من أدلتهم تشبثوا بآخر، حتى آل بهم في هذا الزمان إلى أن لاذوا ببيوت العنكبوت، وتعلقوا بحبال بالية، وطفقوا يجمعون أخباراً من هنا ومن هناك لا تدل من قريب أو من بعيد على ما يدعون.

من ذلك أن الدكتور صبيح نقل عن البداية والنهاية وتاريخ الطبري قصة زينب رضي الله عنها عندما مرت بأخيها الحسين صريعاً وهي تقول " يا محمداه، يا محمداه، صلى عليك ملائكة السماء، هذا الحسين بالعراء، مزمل بالدماء، مقطع الأعضاء، يا محمداه، وبناتك سبايا."[2].

وإنه لعيب كبير أن يصدر هذا الفهم من رجل ينتسب إلى العلم، إن هذا الكلام من زينب رضي الله عنها لو عرض على ألوف العقلاء لم يختلف اثنان منهم على أنه لا علاقة له بالاستغاثة أو الاستعانة، وأنه ليس إلا نوعاً من الشكوى، ولوناً من ألوان التعبير عن الأسى والحزن، وضرباً من ضروب التفجع.

ولو كانت –رضي الله عنها– مستغيثة برسول الله صلى الله عليه وسلم فلماذا لم تستغث به من قبل عندما استحر القتل بآل البيت وأفرد الحسين بين سيوف البغاه المتكاثرة؟ لماذا لم يرفع نساء آل البيت أكف الضراعة والاستغاثة وهم يرون الدائرة تضيق حول شباب آل البيت ؟ لماذا لم يستغيثوا ساعتها بنبيهم أن ينقذ آل بيته ؟.

---

(1) رواه أحمد في المسند (2913)" صحيح".

(2) خصوصية وبشرية النبي ﷺ (ص211).

وفي كتاب: أخطاء ابن تيمية، وتحت عنوان (مسألة التوسل) [1]، وبعد مدخل رديء في معناه ومبناه، أخذ يتساءل تساؤلات لا علاقة لها بالعلم و الفقه، فمن تساؤلاته الغريبة:"إذا كانت أحاديث التوسل ضعيفة فهل يروي علماء الأمة شركاً وكفراً ؟" "وهل هناك نصوص من القرآن والسنة فيها تصريح بتحريم التوسل ؟" " وهل يعقل أنه لم يوفق إلى معرفة هذا الحكم إلا ابن تيمية ؟" " وهل يعقل أن يسكت علماء الأمة طوال ثمانية قرون عن شرك وكفر ثم لا يتكلم إلا ابن تيمية ؟"

ونحن مضطرون إلى إجابته عن هذه التساؤلات الفارغة، وإن كانت لا تستحق الالتفات؛ لأنه سطرها في كتاب منشور، فاكتست برداء العلم، والعلم منها براء، وزينت للناظرين مع أنها لا ينظر إليها.

أقول: **أولاً**: إن ابن تيمية لم يقل بأن التوسل شرك أو كفر، وإنما قال ببدعية التوسل بذوات الصالحين وجاههم، وعدم مشروعيته، وإنما الشرك يكون في الاستغاثة والاستعانة وطلب المدد، ومهما حاول الدكتور صبيح وأضرابه طمس الحقائق وتلبيس الأمور على الناس فسوف يظل الفارق واضحاً بين الأمرين.

ثانياً :إن علماء الأمة الذين رووا هذه الأخبار الضعيفة والموضوعة لم يرووها على أنها صحيحة أو حسنة، وإنما رووها على أنها ضعيفة، ونبهوا على ضعفها أو وضعها، ومن لم ينبه منهم اكتفى بذكر الإسناد، ومن أسند فقد خرج من العهدة.

ثالثاً :من الذي قال إنه لم يوفق إلى الحكم بعدم مشروعية هذا النوع من التوسل إلا ابن تيمية رحمه الله ؟ ألأنه أول من اشتهر بإذاعة هذا الحكم وإشاعته يكون هو أول قائل به، ويكون كل من سبقه من العلماء قائلين بخلافه ؟.

إنّ الحكم متقرر قبل ابن تيمية، وإن أول من راعى هذا الحكم صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فعدول الصحابة عن التوسل بالنبي صلى الله عليه وسلم بعد مماته إلى التوسل بالعباس رضي الله عنه دليل على أنهم لا يرون التوسل بالجاه أو بالذات مشروعاً، ولو كان مشروعاً لما عدلوا

(1) أخطاء ابن تيمية (ص328).

عن الاستسقاء برسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الاستسقاء بالعباس. كل ما في الأمر أهم لم يصرحوا بأنه غير مشروع لأن هذا الحكم كان مقررا بالبداهة، ولا يحتاج إلى بيان، وهم لا يتكلمون إلا فيما ظهرت الحاجة إلى الكلام فيه.

والسبب في أن ابن تيمية اشتهر بالكلام في هذه المسألة هو أنه أعطاها اهتماما كبيراً بسبب تفشي التوسل في زمانه، حتى صار ذريعة للاستغاثة بغير الله عز وجل ، ولو كان هذا الانحراف الخطير ظهر في أزمان مبكرة لوجدنا من علماء السلف من اعتنى به كاعتناء ابن تيمية أو أشد، كما أنه لو ظهر القول بخلق القرآن قبل أحمد لما كان أحمد متفرداً بموقفه دون الشافعي ومالك وأبي حنيفة.

ومن استشعر من العلماء السابقين خطرا في هذه المسألة نبه وتكلم على قدر ظهور الخطر في زمانه، فقد" كره أبو حنيفة وصاحباه أن يقول الرجل: أسألك بحق فلان أو بحق أنبيائك أو رسلك، أو بحق البيت الحرام، ونحو ذلك؛ إذ ليس لأحد على الله حق، وكذلك كره أبو حنيفة ومحمد أن يقول الداعي:اللهم أسألك بمعاقد العز من عرشك، وأجازه أبو يوسف لما بلغه من الأثر فيه"[(1)].

رابعاً: أما أنه ليس في القرآن أو السنة نص يحرم التوسل بذات النبي صلى الله عليه وسلم فليس دليلا على المشروعية؛ لأن التوسل من جنس العبادات لا العادات، وهما مختلفان؛ فالأصل في العادات الإباحة إلا ما ورد دليل بتحريمه، والأصل في العبادات التوقف إلا ما قام الدليل على تشريعه، وهذه قاعدة مقررة في الأصول لا يصح لعالم تصدر للتأليف أن يغفل عنها جهلاً، أو يتغافل عنها تضليلاًوتلبيساً.

فعدم ورود دليل بالتحريم هنا ليس دليلاً على المشروعية، ولكن عدم ورود دليل على التشريع يعتبر دليلاً على عدم المشروعية؛ إذ العبادات توقيفية. وقد سبق أن بينا أنه ليس في الكتاب ولا في السنة شيء يدل على مشروعية هذا النوع من التوسل، وما أورده المعارضون من شبهات اعتقدوها أدلة بينا بطلانها.

وعلى طريقته في التهافت على المرويات التي لا تفيد أورد الدكتور صبيح هذا الخبر: حَدَّثَنَا أَبُو الْجَوْزَاءِ أَوْسُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ، قَالَ: " قَحَطَ أَهْلُ الْمَدِينَةِ قَحْطًا شَدِيدًا، فَشَكَوْا إِلَى عَائِشَةَ، فَقَالَتْ: انْظُرُوا

(1) شرح الأخبار للزبيدي (285/2).

قَبْرَ النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم ، فَاجْعَلُوا مِنْهُ كُوَوًا إِلَى السَّمَاءِ حَتَّى لاَ يَكُونَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ السَّمَاءِ سَقْفٌ، قَالَ: فَفَعَلُوا، فَمُطِرْنَا مَطَرًا حَتَّى نَبَتَ الْعُشْبُ، وَسَمِنَتِ الْإِبِلُ حَتَّى تَفَتَّقَتْ مِنْ الشَّحْمِ، فَسُمِّيَ عَامَ الْفَتْقِ"[1].

وقد أبطل ابن تيمية رحمه الله هذا الخبر، وبين أنه كذب[2]، وأوضح أن السنة المشهورة عن الصحابة هي الدعاء والخروج إلى الصحراء للاستسقاء والصلاة، وقال: "ولو صح ذلك لكان حجة ودليلاً على أن القوم لم يكونوا يقسمون على الله بمخلوق، ولا يتوسلون في دعائهم بميت ولا يسألون الله به، وإنما فتحوا القبر لتنـــزل الرحمة عليه، ولم يكن هناك دعاء يقسمون به عليه، فأين هذا من هذا"[3].

ومقصود ابن تيمية من هذا الكلام واضح كل الوضوح، وهو أنّ هذه الواقعة –على فرض صحتها– ليس فيها توسل بالنبي صلى الله عليه وسلم ولا إقسام على الله به؛ إذ أن عائشة لم تأمرهم بدعاء معين يقولونه، ولم يرد في هذه القصة أنهم توسلوا بدعاء معين أو قالوا كلاماً معيناً؛ كل ما في الأمر أنهم فتحوا على القبر؛ لتنزل الرحمة (وهي المطر) عليه؛ فكان هذا الصنيع منهم سبباً في نزول المطر إكراماً لرسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ فأين هذا من التوسل الذي يقولون به؟!.

وأزيد الأمر وضوحاً فأقول: إن عائشة رضي الله عنها تعلم منـــزلة النبي صلى الله عليه وسلم عند ربه، وإكرام الله عز وجل له، فاجتهدت هذا الاجتهاد، وأشارت على الناس أن يفتحوا كوواً إلى السماء فوق القبر؛ حتى يصيب قبر رسول الله صلى الله عليه وسلم من المطر، فلعل الله عز وجل يمطر الناس لأجل أن قبر رسول الله صلى الله عليه وسلم سيناله من هذه الرحمة؛ إكراماً لرسول الله صلى الله عليه وسلم وبياناً لفضله، وهو اجتهاد –إن صحت الواقعة– يدل على حسن الحدس والتوقع وحسن الظن بالله عز وجل . وليس في هذا ما يشير من قريب أو بعيد إلى التوسل.

ولو كان المقصود هو التوسل، أو هو شفاعة النبي صلى الله عليه وسلم وهو في قبره، فهل فتح كوة في السقف شرط لصعود الدعاء والاستسقاء من القبر الشريف إلى علياء السماء، وهل

(1) رواه الدرامي (92)، مشكاة المصابيح للخطيب التبريزي (5950)"ضعيف".
(2) الرد على البكري (164/1)، (91:89/1).
(3) الرد على البكري (164/1).

السقف مانع من اتصال العباد بربهم جل وعلا ؟!.

ولو كانت هذه القصة صحيحة فلماذا لم تشتهر مثلما اشتهر عام الرمادة مثلاً، مع توافر الدواعي لنقلها ولماذا لم يتكرر هذا في تاريخ الأمة برغم تكرر الجدب؟ وما دام هذا الدواء مجرباً لماذا لم تلجأ الأمة كلما أجدبت إلى تكرار هذا الصنيع؟ إن هذه القصة ليست صحيحة، والضعف ضارب في متنها وسندها، ففي سندها سعيد بن زيد وهو ضعيف[1] و فيه أبو النعمان وقد اختلط في أخر عمره، وهذا الخبر لا يدري هل سمعه الدارمي منه قبل الاختلاط أم بعده، فليس إذن حجة[2].

وبرغم كل هذا وجدنا الدكتور صبيح –وكأنه يقف على أرض صلبة– يتهجم على شيخ الإسلام، ويستنكر عليه، وتحت عنوان " للعقلاء فقط " يقول: وجود حائط أو سقف لا يمنع نـــزول الرحمة "[3].

ولعله لم يخطر ببال سيد العقلاء أن الرحمة هنا المقصود بها المطر، وهذا واضح من السياق، وهو معنى مشهور في كتاب الله، قال تعالى ﴿ **فَانظُرْ إِلَىٰ آثَارِ رَحْمَتِ اللَّهِ كَيْفَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمُحْيِي الْمَوْتَىٰ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ** ﴾[الروم:50] ونقول للعقلاء أيضاً :"إن السقف لا يمنع صعود الدعاء والرجاء والشفاعة والوسيلة؛ فلماذا فتحوا كوة في السقف ؟".

وبعد هذا أخذ أسلوب فضيلة الدكتور في الانحدار قائلاً: "ويا ترى أيأثم الصحابة لتأخرهم عن عمل كوة عدة سنين لحرمانهم قبر النبي صلى الله عليه وسلم من الرحمة أم لا؟ وما هذا الهراء ؟"[4].

ولقد أكثر من نقل مرويات على هذا المستوى، وأسرف في الشتائم الموجهة لشيخ الإسلام وغيره، ويكفي في الرد عليه في هذه المسألة ما قدمنا؛ لالتزامنا الاختصار بقدر الإمكان في هذه الرسالة الموجزة السريعة.

والآن أنتقل إلى ما هو أخطر، ألا وهو موضوع الاستغاثة.

---

(1) انظر: التوسل للألباني (128/1)، مشكاة المصابيح (294/2).
(2) التوسل للألباني (128/1).
(3) أخطاء ابن تيمية (ص299).
(4) أخطاء ابن تيمية (ص300).

الفصل الرابع

الدعاء والاستغاثة والاستعانة

إن الذي ينظر في كتاب الله عز وجل ، ويطالع سنة النبي صلى الله عليه وسلم تتضح له حقيقة هامة، وهي أن الكتاب والسنة معنيان عناية كبيرة بحماية جناب التوحيد، وبسد كل الذرائع المفضية إلى الشرك.

وإن من أخطر الدعوات على دين الإسلام تلك الدعوات التي تخالف منهج القرآن والسنة، وتخالف مقصود الشارع، وتتساهل وتبالغ في التفريط فيما يتعلق بمسألة التوحيد.

ولقد راعنا عودة الصوفية من جديد تدعو إلى الاستغاثة والاستعانة بالأنبياء والأولياء، وإلى دعائهم من دون الله عز وجل ، وأزعجتنا أيما إزعاج صحوة ذلك المارد العابث (المهرج) الذي ملأ الدنيا من قبل دجلا فارغا وهلوسة عابثة.

ومن خلال مطالعتي لكتابات الدكتور صبيح لاحظت أنه قد اجترأ على الباب الذي كان قد سد من زمن بعيد، وأخذ يقرعه ويركله بثورة لا تبشر بخير؛ لذا وجب أن أبين حكم الاستغاثة والاستعانة والدعاء وطلب المدد من غير الله عز وجل .

وها هو البيان:

الاستغاثة (لغة)[1]: طلب الغوث، وطلب الإعانة والنصر، وهي أيضاً نداء من يخلص من شدة ويعين على دفع بلية، وغاثه وأغاثه: أي نصره وأعانه وكشف شدته، واستغاث: استنصر واستعان، والغياث: ما أغيث به.

والاستعانة (لغة): طلب الإعانة من الغير[2]، والعون: الظهير [3]، وتقول أعنته واستعنته

(1) المعجم الوسيط (ص665)مادة (غوث).
(2) التعاريف (58/1).
(3) القاموس المحيط (1571/1).

واستعنت به [1]، والاستعانة فيها معنى: التقوى والاعتضاد [2]، والاستغاثة والاستصراخ [3].

والدعاء (لغة): الرغبة إلى الله عز وجل [4]، ودعوت الله أدعوه دعاء :ابتهلت إليه بالسؤال، ورغبت فيما عنده من الخير [5]، ودعا الله: رغب إليه وابتهل ورجا منه الخير[6]، والدعاء واحد الأدعية[7]، وادعوا شهدائكم: استغيثوا بهم[8]، كما يطلق الدعاء ويراد به معاني أخرى كالنداء والحث على فعل شيء، وأيضاً يطلق على العبادة [9].

هذه هي معاني (الاستغاثة والاستعانة والدعاء) في اللغة التي نــزل بها القرآن الكريم، ونطقت بها السنة المطهرة، ومن تأمل هذه المعاني وجدها -جميعاً- تصدر عن أصل واحد، وتنطلق إلى غاية واحدة، وتتآلف وتتكامل، ووجدها - كلها -.

ترجع إلى معنى: الطلب والرجاء والرغبة والاستصراخ والضراعة والاعتضاد.

هذه هي المعاني المتقاربة المتكاملة للدعاء والاستعانة والاستغاثة، وهي تنفصل تمام الانفصال عن معنى الوسيلة، فالوسيلة هي الدرجة والحظوة، وهي الوصلة والذريعة، وهي العمل الذي يتقرب العبد به إلى الله تعالى ليقبل دعاءه، فهي ليست الدعاء بل هي ذريعة لقبول الدعاء، وهي ليست الاستغاثة ولا الاستعانة بل هي وصلة إلى الله تعالى وقربة إليه لعله يجيب استغاثة المستغيث واستعانة المستعين.

من هنا افترق حكم الوسيلة عن حكم الاستغاثة والاستعانة والدعاء وطلب المدد.وقد سبق بيان حكم الوسيلة، وأنها تنقسم إلى أربعة أقسام :ثلاثة منها مشروعة، وواحد ممنوع غير مشروع.

أما حكم الدعاء والاستغاثة والاستعانة فهو حكم واحد لا تردد فيه ولا اختلاف عليه، وهو

---

(1) لسان العرب (298/13) مادة عون.
(2) تاج العروس (2123/1).
(3) تاج العروس (1825/1).
(4) لسان العرب (367/3).
(5) المصباح المنير (ص118).
(6) المعجم الوجيز (ص228).
(7) مختار الصحاح (ص206).
(8) لسان العرب (366/3).
(9) فتح الباري (94/11).

أن الدعاء عبادة، وكذلك والاستغاثة والاستعانة، وأن دعاء غير الله شرك، وكذلك والاستغاثة والاستعانة بغير الله فيما لا يقدر عليه إلا الله وفيما اختص الله عز وجل نفسه به.

والدليل على أن الدعاء والاستغاثة والاستعانة بغير الله شرك بديهي جداً، وبسيط وواضح، وقوي وصارم، وهو أن الدعاء – ويدخل في معناه والاستغاثة والاستعانة وطلب المدد- عبادة، والعبادة لا تكون إلا لله عز وجل ، بل إن الدعاء مخ العبادة ولبها لذلك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " الدُّعَاءُ هُوَ الْعِبَادَةُ "، ثُمَّ قَرَأَ هَذِهِ الآيَةَ ﴿ **وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ ۚ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ** ﴾[غافر:60][1].

فقول النبي صلى الله عليه وسلم "الدُّعَاءُ هُوَ الْعِبَادَةُ" معناه: "هو العبادة الحقيقة التي تستأهل أن تسمى عبادة؛ لدلالته على الإقبال على الله والإعراض عما سواه، بحيث لا يرجو ولا يخاف إلا إياه "[2] "[2] وأكد النبي صلى الله عليه وسلم هذا المعنى بالآية الكريمة التي حثت على الدعاء وسمته عبادة ﴿ **إِنَّ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي** ﴾ قال السدي أي عن دعائي [3].

ومن الآيـــات التي تؤكد هذا المعنى بالربط بين الدعاء والعبـــادة قـــول الله عز وجل ﴿ **وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ وَأَدْعُو رَبِّي عَسَىٰ أَلَّا أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي شَقِيًّا ﴿٤٨﴾ فَلَمَّا اعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ ۖ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا** ﴾[مريم 48-49] فما سماه في صدر الآية دعاء سماه في آخرها عبادة. وكذلك قول الله عز وجل ﴿ **وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُو مِن دُونِ اللَّـهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَن دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ ﴿٥﴾ وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ** ﴾ [الاحقاف:5-6].

ومادام الدعاء –وفي معناه الاستعانة والاستغاثة- عبادة بهذه المنـــزلة وهذه الأهمية؛ فإن صرفها

---

(1) رواه أبوداود في السنن (1267)، والترمذي في السنن (3190)، والنسائي في الكبرى (10958)، وابن ماجة في السنن (3826)، أحمد في المسند (17981)، والحاكم في المستدرك (1741)، والبخاري في الأدب المفرد (713)، وابن حبان في صحيحه (897)، والطبراني في الصغير (1039)، وابن أبي شيبة في المصنف (27645)، وأبو داود الطيالسي في مسنده (832)، والبزار في مسنده (2801)، وأبو نعيم في الحلية (11866)، والبيهقي في الشعب (1109) "صحيح".

(2) عون المعبود (247/4) باب الدعاء و تحفة الأحوذي 246/8 وفيض القدير (540/3).

(3) تفسير الطبري (72/11)، القرطبي (303/2).

لغير الله شرك، وشأنها في ذلك شأن سائر العبادات كالسجود والركوع والصلاة، بل هي أولى من كل هذه العبادات- بما أنها مخ العبادة- بأن يفرد الله بها، وألا تصرف إلى غيره.

من أجل ذلك شدد القرآن في النهي عن دعاء غير الله تعالى- ويدخل في حكمه الاستعانة والاستغاثة بغير الله فيما لا يقدر عليه إلا الله – فقال تعالى: ﴿ **وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ اللَّـهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ ۖ فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ الظَّالِمِينَ** ﴾ [يونس:106]، والظلم هنا هو الشرك؛ لقوله تعالى﴿ **إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ** ﴾.

وقال الله عز وجل : ﴿ **قُلْ أَنَدْعُو مِن دُونِ اللَّـهِ مَا لَا يَنفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَىٰ أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَانَا اللَّـهُ كَالَّذِي اسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ فِي الْأَرْضِ حَيْرَانَ لَهُ أَصْحَابٌ يَدْعُونَهُ إِلَى الْهُدَى ائْتِنَا ۗ قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّـهِ هُوَ الْهُدَىٰ ۖ وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ** ﴾[الأنعام:71] وقال: ﴿ **أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ ۗ أَإِلَـٰهٌ مَّعَ اللَّـهِ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ** ﴾[النمل:62] ومن أجل ذلك أيضاً أكد القرآن على حقيقة أن الله تعالى وحده هو النافع الضار، القابض الباسط؛ حتى لا يلجأ العباد بالدعاء والاستغاثة والاستعانة إلا إليه؛ فقال تعالى: ﴿ **وَإِن يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ** ﴾ وقال عز وجل : ﴿ **مَّا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا ۖ وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِن بَعْدِهِ ۚ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ** ﴾[فاطر:2].

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لابن عباس "... **إِذَا سَأَلْتَ فَاسْأَلِ اللَّهَ، وَإِذَا اسْتَعَنْتَ فَاسْتَعِنْ بِاللَّهِ..** "[1].

وفي فاتحة الكتاب يقرأ المسلم في صلاته كل يوم ﴿ **إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ** ﴾ والتقديم والتأخير فائدته التخصيص، أي: لا نعبد إلا أنت ولا نستعين إلا بك.

(1) رواه الترمذي في السنن (2454)، أحمد في المسند (2569)، والحاكم في المستدرك (6340)، والطبراني في الكبير (12823)، وابن أبي عاصم في السنة (248)، وأبو يعلىفي مسنده (2530)، والآجري في الشريعة (442)، وأبو نعيم في الحلية (1144)، والبيهقى في الشعب (191)، ابن السني في عمل اليوم و الليلة (419) "صحيح".

ولقد عجبت أشد العجب مما قاله أحد المعاصرين المدافعين عن الصوفية؛ حيث قال -بعد أن ساق الآيات الناهية عن دعاء غير الله-: "والدعاء يأتي لمعاني شتى، وهو في هذه الآيات كلها بمعنى العبادة، والمسلمون لا يعبدون إلا الله تعالى وليس فيهم من اتخذ الأنبياء والأولياء آلهة، أو جعلهم شركاء لله تعالى؛ حتى تعمهم هذه الآيات، ولا اعتقد أنهم يستحقون العبادة، ولا أنهم يخلقون شيئاً، بل إنهم اعتقدوا أنهم عبيد لله مخلوقون له، وما قصدوا من التوسل بهم إلى الله تعالى إلا التبرك بهم لكونهم أحباب الله المقربين"[1].

وقال أيضاً -معلقاً على حديث: "**إِنَّ الدُّعَاءَ هُوَ الْعِبَادَةُ**"[2].

"فإن قوله صلوات الله عليه وسلامه: "الدُّعَاءُ هُوَ الْعِبَادَةُ" يدل دلالة واضحة على أن العبادة في هذا الحديث مقصورة على الدعاء فقط، بمعنى أن الدعاء هو العبادة، وأن العبادة ليست إلا الدعاء، وهذا معنى خاص، خص فيه الحديث قصر العبادة على الدعاء، والاستغاثة ليست كذلك؛ فقياسها على هذا الحديث قياس على غير بابه؛ إذ ليس كل دعاء عبادة. والدليل على أن المراد من الدعاء في الحديث هو دعاء الله تعالى لا مطلق الدعاء ما حققه كثير من اللغويين وصرحوا به أن السؤال أحد أقسام الطلب وهو طلب الأدنى من الأعلى، فإذا كان من الله تعالى سمى سؤلاً ودعاء، فإذا كان لا يجوز أن يقال للطلب من غيره تعالى مجرد دعاء، فبالأحرى ألا يقال لذلك الطلب دعاء بمعنى العبادة "[3].

والنتيجة التي يريد أن يخلص إليها من هذا السياق المظلم هي أن الآيات لم تنه عن دعاء غير الله؛ لأن الدعاء فيها – جميعاً – معناه العبادة، لا الدعاء، أي أن الله نهي فيها عن عبادة غيره لا عن دعاء غيره ! وأن الحديث – كذلك – لا يدل على أن دعاء غير الله عبادة؛ لأن المقصود من الدعاء في الحديث هو دعاء الله لا مطلق الدعاء، فيكون دعاء الله فقط هو العبادة، أما دعاء غير الله فليس عبادة!.

(1) (ص103) تحت عنوان (شبهة انكار التوسل والاستغاثة).

(2) رواه ابن ماجه (3828)، و الحاكم في المستدرك (1802)، والبخاري في الأدب المفرد (714)، والبيهقي في شعب الإيمان (1105)"صحيح".

(3) (ص114).

وإنني – قبل أن أصول وأكر – أعترف وأقر بأنني لم أقف في حياتي على مثل هذا الذكاء الفائق وهذه القدرة العالية على المناورة والمداورة والالتفاف وعلى إلباس الباطل ثوب الحق، مع لباقة تغلف اللجاج والصفاقة.

وللرد على هذا الباطل الذي يركب بعضه بعضاً أقول :

أولاً :إن ما زعمه بأن جميع هذه الآيات لم يأت فيها الدعاء إلا بمعنى العبادة قول غير دقيق، ولا ينتسب إلى البحث العلمي، فجميع هذه الآيات وغيرها مما يستدل به على أن دعاء غير الله شرك جاء فيها الدعاء بمعنى الطلب، وجاء فبها أيضاً بمعنى العبادة. وها هي أقوال بعض المفسرين في تفسير بعض الآيات المذكورة آنفاً :

يقول ابن كثير في تفسير قول الله عز وجل : ﴿ **وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُو مِن دُونِ اللَّـــهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَن دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ** ﴾[الأحقاف: 5] يقول :" أي لا أضل ممن يدعو من دون الله أصناماً ويطلب ما لا يستطيعه إلى يوم القيامة"[1].

ويقول الإمام الشوكاني في تفسير الآية نفسها: "أي لا أحد أضل منه ولا أجهل فإنه دعا من لا يسمع فكيف يطمع في الإجابة فضلاً عن جلب نفع أو دفع ضر"[2].

وقال الزمخشري: "ومن أضل: معنى استفهام، فيه إنكار أن يكون في الضلال أبلغ ضلالاً من عبدة الأصنام حيث يتركون دعاء السميع المجيب القادر على تحصيل كل بغية ومرام، ويدعون من دونه جماداً لا يستجيب لهم"[3].

وفي تفسير قول الله عز وجل : ﴿ **قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا** ﴾[الإسراء: 56] يقول الزمخشري: " أي: ادعوهم فهم لا يستطيعون أن يكشفوا عنكم الضر من مرض أو فقر أو عذاب"[4].

---

(1) تفسير ابن كثير (196/4).

(2) فتح القدير (20/5).

(3) الكشاف (1192/1).

(4) الكشاف (687/1).

ويقول الإمام البغوي:" ذلك أن المشركين أصابهم قحط شديد حتى أكلوا الكلاب والجيف، فاستغاثوا برسول الله صلى الله عليه وسلم ليدعوا لهم."(1).

وسبب النـــزول الذي ذكره البغوي ذكره كذلك القرطبي :" لما ابتليت قريش بالقحط وشكوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأنـــزل الله هذه الآية: أي ادعوا الذين تعبدون من دون الله وزعمتم أنهم آلة "(2).

وفي تفسير قول الله عز وجل ﴿ **وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ اللَّـــهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ ۖ فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ الظَّالِمِينَ** ﴾[يونس:106] قال الشوكاني :" أي لا تدع من دون الله على حال من الأحوال ما لا ينفعك ولا يضرك بشيء من النفع أو الضر إن دعوته، ودعاء من هكذا حاله لا يجلب نفعاً ولا يقدر على ضر "(3).

ويقول الإمام الألوسي: "وإذا كان كذلك فلا رجوع إليه عن شأنه في الدارين، ومعنى (فإن فعلت) فإن اشتغلت بطلب المنفعة ودفع المضرة من غير الله تعالى"(4).

وفي تفسير قول الله عز وجل ﴿ **وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُم بِشَيْءٍ** ﴾[الرعد: 14].

قال الإمام القرطبي: "﴿ **لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُم بِشَيْءٍ** ﴾ أي لا يستجيبون لهم دعاء ولا يسمعون لهم نداء. ضرب الله عز وجل الماء مثلاً ليأسهم من الإجابة لدعائهم لأن العرب تضرب لمن سعى فيما لا يدركه مثلاً بالقابض الماء باليد "(5).

ففي جميع هذه التفاسير جاء الدعاء بمعنى الدعاء صراحة، ولم يذكر واحد ممن نقلنا عنهم أن الدعاء في هذه الآيات بمعنى عبادة غير الله تعالى.

---

(1) تفسير البغوي (100/1).
(2) تفسير القرطبي (243/10).
(3) فتح القدير للشوكاني (690/2).
(4) روح المعاني (200/11).
(5) تفسير القرطبي (256/9).

صحيح أن بعض المفسرين –كالطبري و الزمخشري– فسر الدعاء في بعض هذه الآيات بالعبادة، مثل قول الزمخشري في تفسير قول الله عز وجل ﴿ **وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ** ﴾[غافر: 60] قال" اعبدوني" والدعاء بمعنى العبادة في القرآن كثيرة"[1].

وقول الطبري في تفسير قول الله عز وجل ﴿ **وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ** ﴾ [غافر: 60] قال "اعبدوني وأخلصوا لي العبادة دون من تعبدون من دوني"[2].

لكن هؤلاء المفسرين أنفسهم ذكروا الرأي الآخر، فهذا الطبري ينقل عن السدي في تفسير قول الله عز وجل ﴿ **وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ ۚ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ** ﴾[غافر: 60] قال: إن الذين يستكبرون عن دعائي[3].

وهذا يستلزم أن يكون الدعاء الذي ذكر في صدر الآية بمعنى الدعاء صراحة لا بمعنى العبادة.

ويقول الزمخشري: "ويجوز أن يريد الدعاء والاستجابة على ظاهرها، ويريد.

بعبادتي دعائي؛ لأن الدعاء باب من أبواب العبادة ومن أفضل أبوابها "[4].

ثم إن المفسرين الذين فسروا الدعاء في بعض الآيات بالعبادة لم ينطلقوا من التفريق بين الدعاء والعبادة ونفي الأول وإقرار الثاني، وإنما انطلقوا من التأليف بين المعنيين وإطلاق الأول وإرادة الثاني، أي إطلاق الخاص وإرادة العام. والعام يشتمل أول ما يشتمل على الخاص الذي أطلق ليدل عليه وليرشد إليه. والدليل على ذلك أن الإمام الطبري بعد أن فسر الدعاء بالعبادة في قول الله عز وجل ﴿ **وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي** ﴾ ساق أحاديث منها: عن النعمان بن بشير قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "قال الله تبارك وتعالى: إِنَّ عِبَادَتِي دُعَائِي، ثُمَّ تَلا هَذِهِ الآيَةَ: ﴿ **وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ ۚ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي** ﴾" قَالَ: "عَنْ دُعَائِي"[5].

---

(1) الكشاف (1133/1).

(2) تفسير الطبري (72/11).

(3) تفسير الطبري (72/11).

(4) الكشاف (1133/1).

(5) تفسير الطبري (72/11) برقم (28044) إسناد شديد الضعف فيه يوسف بن الغرق بن أبي لمازة وهو منكر الحديث.

وعن ثابت: قلت لأنس: يا أبا حمزة أبلغك أن الدعاء نصف العبادة؟ قال: بل هو العبادة كلها"(1).

والدليل على ذلك أيضاً قول الزمخشري :"والمراد بالدعاء العبادة؛ لأنه منها ومن وسائطها، ومنها قوله صلى الله عليه وسلم "الدُّعَاءُ هُوَ الْعِبَادَةُ " (2).

هذا معناه أن من فسر الدعاء بالعبادة أطلق الخاص وأراد العام؛ وهذا العام يشتمل أول ما يشتمل على الخاص الذي كان علماً عليه.

ثانياً :إن تفسير الدعاء في الآيات بمعنى بالعبادة خلاف الظاهر وخلاف المعنى اللغوي، والأولى حمل النص على ظاهره ما لم توجد قرينة ترجح مخالفة الظاهر، وكذلك الأولى اتفاق المعنى مع اللغة لأن القرآن نـــزل بلغة العرب ولسانهم، ولا تجوز مخالفة المعنى اللغوي الظاهر إلا بدليل، ولو أننا رجعنا إلى قول الله عز وجل ﴿ **وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ ۚ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ** ﴾ لوجدنا أن القرينة التي حملت المفسرين على مخالفة السياق ومشهور اللغة هي أن الذي عبر عنه بالدعاء في أول الآية عبر عنه بالعبادة في آخرها، وهذه القرينة غير كافية؛ لأن دلالتها على تفسير الدعاء بالعبادة ليست بأولى من دلالتها على تفسير العبادة بالدعاء؛ إذ التعبير عن الدعاء بالعبادة أولى من التعبير عن العبادة بالدعاء.

والتعبير عن الدعاء بالعبادة له تفسير مقبول وسبب معقول وهو أن الدعاء لب العبادة ومخها وأعظم شيء فيها ويشتمل على معظم معانيها، أو لأن الدعاء فيه الخضوع والذل وهما جوهر العبادة، قال العلامة المناوي: "وسماه –أي الدعاء– عبادة؛ ليخضع الداعي ويظهر ذله ومسكنته وافتقاره، إذ العبادة ذل ومسكنة وخضوع"(3).

ومن العلماء من حمل الدعاء في صدر الآية على ظاهره وحمل العبادة في آخر الآية على ظاهرها، ثم ربط بينهما رباطاً غاية في المعقولية، يقول الشيخ تقي الدين السبكي :" الأولى حمل

---

(1) تفسير الطبري (72/11).

(2) الكشاف (734/1).

(3) فيض القدير (540/3).

الدعاء في الآية على ظاهره، وأما قوله بعد ذلك (عن عبادتي) فوجه الربط أن الدعاء أخص من العبادة، فمن استكبر عن العبادة استكبر عن الدعاء "[1].

ومن العلماء من سلك في الجمع طريقاً أدق، فاعتبر أن الآية مشتملة للمعنيين، وأن الدعاء قصد به معناه الظاهر وقصد به أيضاً معنى العبادة، وأن الاستجابة قصد بها معناها الظاهر وقصد بها أيضاً معنى ظهور أثر العبادة، يقول الإمام النووي رحمه الله: "والدعاء يطلق على سؤال العبد من الله حاجته، وهو معناه في اللغة، ويطلق على عبادة الله على طريق الكناية؛ لأن العبادة لا تخلو من دعاء المعبود بنداء تعظيمه والتضرع إليه؛ وهذا إطلاق أقل شيوعاً من الأول.والاستجابة تطلق على إعطاء المسؤل لمن سأله وهو أشهر إطلاقاً، وتطلق على أثر قبول العبادة بمغفرة الشرك وبحصول الثواب على أعمال الإيمان.فلما جمعت الآية بين الفعلين على تفاوت في شيوع الإطلاق في كليهما علمنا أن المراد الدعاء والعبادة، وأن الاستجابة أريد بها قبول الدعاء وحصول أثر العبادة، ففعل (ادعوني) مستعمل في معنييه بطريق عموم المشترك، وفعل (استجب) مستعمل في حقيقته ومجازه.وذلك من الإيجاز والكلام الجامع"[2].

وكذلك قال شيخ الإسلام: "قيل: (ادعوني) اعبدوني وأطيعوا أمري استجب دعاءكم، وقيل سلوني أعطكم، وكلا المعنيين حق"[3].

والقرينة الثانية التي حملت بعض العلماء على تفسير الدعاء بمعنى العبادة في الآيات التي عبرت بالدعاء في أولها وبالعبادة في آخرها كقول الله عز وجل : ﴿ **وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ ۚ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ** ﴾[غافر: 60] هي حديث: "إن الدعاء هو العبادة"، وهذا الحديث يصلح قرينة لتفسير العبادة بمعنى الدعاء في تلك الآيات أكثر من صلاحيته لتفسير الدعاء بمعنى العبادة؛ لأن معنى "إِنَّ الدُّعَاءَ هُوَ الْعِبَادَةُ" هو: أن الدعاء معظم العبادة ولب

---

(1) تحفة الأحوذي (220/9).

(2) التحرير والتنوير (3771/1) بتصرف بسيط.

(3) اقتضاء الصراط المستقيم (411/1).

العبادة وأهم شيء في العبادة كحديث " **الْحَجُّ عَرَفَةُ**"[1].

يقول الإمام ابن حجر في باب الدعوات من كتابه فتح الباري:" وقالت طائفة: الأفضل ترك الدعاء والاستسلام للقضاء، وأجابوا عن الآية بأن آخرها دلّ على أن المراد بالدعاء العبادة لقوله: ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ** ﴾[غافر: 60] واستدلوا بحديث النعمان بن بشير عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "إِنَّ الدُّعَاءَ هُوَ الْعِبَادَةُ" ثم قرأ ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ** ﴾. وأجاب الجمهور: أن الدعاء من أعظم العبادة، فهو كالحديث الآخر :" الْحَجُّ عَرَفَةُ " أي معظم الحج وركنه الأكبر "[2].

ونخلص من كل ما سبق إلى أن الدعاء في الآيات الناهية عن دعاء غير الله عز وجل ، ومنها الآيات التي عبرت في أولها بالدعاء وفي آخرها بالعبادة، أن الدعاء فيها يحمل على ظاهره وأن العبادة هي التي تفسر بمعنى الدعاء، هذا هو الراجح، و هذا هو الموافق لظاهر السياق ومشهور اللغة؛ فإن لم نقل بهذا وقلنا بما قاله الإمام تقي الدين السبكي من حمل الدعاء على ظاهره والعبادة على ظاهرها مع الربط بينهما برابط مناسب فلا ضير.

فإن لم نقل بهذا ولا ذاك أمكن أن نقول بما قال به الإمام النووي رحمه الله وكذلك ابن تيمية وغيرهما من الجمع بين المعنيين، وأن الآيات التي عبر في أولها بالدعاء وفي آخرها بالعبادة متضمنة للمعنيين معاً؛ كأسلوب من أساليب الإيجاز في كتاب الله عز وجل .

والقول بأي واحد من هذه الأقوال لا يتعارض مع الاستدلال بالآيات على منع تحريم التوجه بالدعاء لغير الله واعتباره شركاً.

وحتى لو اضطررنا إلى القول المرجوح وهو حمل الدعاء في الآيات على معنى العبادة، فإن هذا

(1) رواه الترمذي في السنن (813)، والنسائي في الكبرى (3899)، وابن ماجة في السنن (3014)، أحمد في المسند (18396)، والحاكم في المستدرك (1639)، وابن أبى شيبة في المصنف (16046)، وابن خزيمه في صحيحه (2643)، وأبو داود الطيالسى في مسنده (1393)، والدارقطني في السنن (2213)، والآجري في الشريعة ()، وأبو نعيم في الحلية ()، والبيهقى في الشعب ()، والبيهقى في الكبرى (9124)، ومشكاة المصابيح للخطيب التبريزي (2714) "صحيح".

(2) فتح الباري (94/11) وانظر عمدة القاري (276/22).

أيضاً لا يتعارض مع ما قدمنا؛ لأن الذي دعا العلماء إلى حمل الدعاء على معنى العبادة هو أن الدعاء من العبادة، بل هو معظمها، فلا ريب أن العبادة التي حملوا عليها الآيات مشتملة على الدعاء، بل إن دخوله فبها أولى من غيره من سائر العبادات؛ وعندئذ تبقى الآيات شاهدة على تحريم الدعاء لغير الله عز وجل ، وأنه من الشرك ولا شك.

ثالثاً :زعمه أن الدعاء في الحديث يراد به دعاء الله تعالى لا مطلق الدعاء؛ بحجة أن الدعاء لا يكون إلا من الأدنى للأعلى – يجاب عنه بأن الذي يدعو من دون الله ولياً أو نبياً، ويستغيث به إنما يفعل ذلك لكونه في حسّه أعلى منه، والمشركون الذين دعوا الأصنام والأوثان واستغاثوا بها سمى فعلهم هذا دعاء؛ لأنهم لم يشعروا في ذوات أنفسهم أنها أدنى منهم ولا مساوية لهم، بل شعروا بأنها أعلى منهم؛ وأنها آلهة تنفع وتضر، وبالجملة فإن من دعا غير الله من نبي أو ولي أو صنم أو غير ذلك إنما فعل ما فعل لكونه يستشعر علوه.

ثم إن الدعاء في الحديث سمى عبادة لأن "الدعاء معظم العبادة، كما قال صلى الله عليه وسلم الحج عرفة: أي معظم الحج الوقوف بعرفة، أو لأن في الدعاء إظهار العجز والاحتياج من نفسه، والاعتراف بأن الله تعالى قادر على إجابته، كريم لا يبخل، ولا احتياج له إلى شيء حتى يدخره لنفسه ويمنعه من عباده، وهذه الأشياء هي العبادة بل مخها "[1].

قال العلامة المناوي "قال القاضي: إنما الحكم بأن الدعاء هو العبادة الحقيقية التي تستأهل أن تسمى عبادة من حيث أنه يدل على أن فاعله مقبل بوجهه إلى الله، معرض عما سواه، لا يرجو ولا يخاف إلا منه"[2].

وهذا يدل على قول النبي صلى الله عليه وسلم "**إِنَّ الدُّعَاءَ هُوَ الْعِبَادَةُ**"[3].

له عند العلماء تفسير مقبول مما يجعلنا لا نضطر إلى مثل هذه التأويلات البعيدة التي يراد منها إبطال الاستدلال بالحديث على أن الدعاء من أجلّ العبادات ومن ثم يكون صرفها لغير الله شرك

(1) تحفة الأحوذي (220/9) بتصرف.
(2) فيض القدير (540/3).
(3) سبق تخريجه (ص147) وهو"صحيح".

أكبر.

نعود بعد هذه الجولة الشاقة التي أتعبنا فيها ذلك الذكي الألمعي إلى الدكتور صبيح؛ لنراه لا يزال يجدف في لجة من المغالطات والأوهام تجديفاً عبثياً، لا يزيده إلا إيغالاً في التيه الكبير الذي لجّ فيه.

ففي مواضع من كتابه (أخطاء ابن تيمية) يورد أقوالاً لشيخ الإسلام، يبين فيها أن الاستعانة والاستغاثة لا تكون إلا بالله، مثل قوله: "والله تعالى أرسل الرسل بأنه لا إله إلا هو، فتخلو القلوب من محبة ما سواه بمحبته وبرجائه، وعن سؤال ما سواه بسؤاله، وعن العمل لما سواه بالعمل له، وعن الاستعانة بما سواه بالاستعانة به"[1].

وغير ذلك من الأقوال الناصعة المستقيمة التي أوردها ثم جعل يهيل عليها.

الشبهات، ويثير فوقها المزاعم والأغاليط .

انظر إليه وهو يجري وراء السراب، ويجهد نفسه في جمع أحاديث وأخبار وآثار ومرويات؛ يظنها تنتج له ما يدعيه من جواز الاستعانة والاستغاثة بغير الله تعالى! وكعادته يتعب نفسه في جمع ما لا مدخل له في الموضوع، ويشقي القارئ وراءه بغير طائل!

وها هي بعض أدلته التي يستدل بها[2].

روى الإمام أحمد أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم أَضْجَعَ أُضْحِيَتَهُ لِيَذْبَحَهَا، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم لِرَجُلٍ: " **أَعِنِّي عَلَى أُضْحِيَتِي**" فَأَعَانَهُ [3].

وعن خبيب بن يساف قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "**ارْجِعْ، فَلَنْ أَسْتَعِينَ بِمُشْرِكٍ**"[4].

وبمفهوم المخالفة فلو كان خبيب مسلماً لاستعان به رسول الله صلى الله عليه وسلم .

---

(1) مجموع الفتاوى (319/18).

(2) انظر(أخطاء ابن تيمية) (ص44:48)، (ص318)، (ص346:347)، (ص354).

(3) رواه الحافظ نور الدين الهيثمي في بغية الباحث عن زوائد مسند الحارث (404)، والبوصيري في إتحاف الخيرة المهره بزوائد المسانيد العشرة (5146).

(4) رواه ابن سعد في الطبقات (4380) "إسناده حسن".

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "**وَاللَّهُ فِي عَوْنِ الْعَبْدِ مَا كَانَ الْعَبْدُ فِي عَوْنِ أَخِيهِ**"[1].

وفي حديث نـــزول عيسى -برواية ابن عساكر- جاء في آخرها أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "**ثُمَّ لَئِنْ قَامَ عَلَى قَبْرِي، فَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ لأُجِيبَنَّهُ**"[2].

وأخرج مسلم عَنْ أَبِي مَسْعُودٍ: " أَنَّهُ كَانَ يَضْرِبُ غُلاَمَهُ، فَجَعَلَ يَقُولُ أَعُوذُ بِاللَّهِ، قَالَ: فَجَعَلَ يَضْرِبُهُ، فَقَالَ: أَعُوذُ بِرَسُولِ اللَّهِ، فَتَرَكَهُ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم : **وَاللَّهِ لَلَّهُ أَقْدَرُ عَلَيْكَ مِنْكَ عَلَيْهِ، قَالَ: فَأَعْتَقَهُ**"[3].

وفي حديث الْحَارِثِ بْنِ يَزِيدَ الْبَكْرِيِّ، فيه قوله لرسول الله صلى الله عليه وسلم أَعُوذُ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ أَنْ أَكُونَ كَوَافِدِ عَادٍ "[4].

وفي البخاري ومسلم عن أبي هريرة مرفوعاً :" **لاَ أُلْفِيَنَّ أَحَدَكُمْ يَجِيءُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى رَقَبَتِهِ بَعِيرٌ لَهُ رُغَاءٌ، يَقُولُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَغِثْنِي**"[5].

وروى أخباراً أخرى كثيرة، وجميعها على نفس هذا النسق، وفي نفس هذا المعنى، تركناها اختصاراً؛ إذ كلها تدور حول نفس المعنى بلا زيادة.

وبرغم هذت الجهد الذي بذله، وبرغم التعب والنصب، فشل سعادة الدكتور فشلاً ذريعاً في الوصول إلى غايته، و لم يفلح في إثبات مدعاه؛ لأن جميع ما ساقه ليس فيه دليل واحد ينتج المدعى لا

---

(1) رواه مسلم (4871)، وأبو داود في السنن (4298)، والترمذي في السنن (1342)، والنسائي في الكبرى (7015)، وابن ماجة في السنن (221)، والدرامي في السنن ()، أحمد في المسند (7249)، والحاكم في المستدرك (8251)، وابن حبان في صحيحه (539)، والطبراني في الأوسط (1994)، وابن أبي شيبة في المصنف (25112)، وأبو نعيم في الحلية (11862)، والبيهقى في الشعب (10761)"صحيح".

(2) رواه أبو يعلىفى مسنده (6548)، والبوصيري في إتحاف الخيرة المهره بزوائد المسانيد العشرة(7078)، و تاريخ دمشق لابن عساكر (20682).

(3) رواه ومسلم (3142)"صحيح".

(4) رواه أحمد في المسند (15636)، والطبري في تاريخه (220)، والطبري في جامع البيان عن تأويل آى القرآن (13645)"إسناده حسن".

(5) رواه البخاري (2861)، مسلم (3415)، أحمد في المسند (9300)، وابن حبان في صحيحه (4956)، وابن أبي شيبة في المصنف (31823)، والبيهقى في الكبرى (16815)"صحيح".

من قريب ولا بعيد.

فهذه الأخبار اشتملت على الاستعانة والاستغاثة والاستعاذة بالمخلوق فيما يقدر عليه، وفيما ليس مما اختص الله به نفسه، ومثل هذا لا يعد شركاً، وجميع ما ذكر من الأمثلة خارج عن محل النـــزاع وموضع الاستدلال.

أما الشرك الذي تحدث عنه العلماء –ومنهم شيخ الإسلام– فهو الاستغاثة بغير الله فيما لا يقدر عليه إلا الله، أو الاستعانة بغير الله فيما هو مما اختص الله به نفسه، أو دعاء غير الله وسؤاله بالغيب، "أما سؤال الحي الحاضر بما يقدر عليه، والاستعانة به في الأمور التي يقدر عليها فليس ذلك من الشرك، بل ذلك من الأمور العادية الجائزة بين المسلمين، كما قال الله تعالى: ﴿ **فَاسْتَغَاثَهُ الَّذِي مِن شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ** ﴾ الآية "[1].

وكل من أنعم الله عليه بنعمة الإدراك لا يشق عليه أن يدرك "أن دعاء غير الله وسؤاله نوعان، **أحدهما:** سؤال الحيّ الحاضر ما يقدر عليه، مثل سؤاله أن يدعو له وأن ينصره أو يعينه بما يقدر عليه، فهذا جائز، كما كان الصحابة رضي الله عنهم يستشفعون برسول الله صلى الله عليه وسلم في حياته فيشفع لهم، ويسألونه الدعاء فيدعو لهم، فالمخلوق يطلب منه من هذه الأمور ما يقدر عليه منها كما قال تعالى في قصة موسى: ﴿ **فَاسْتَغَاثَهُ الَّذِي مِن شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ** ﴾ وقال تعالى: ﴿ **وَإِنِ اسْتَنصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمُ النَّصْرُ** ﴾ وكما ورد في الصحيحين أن الناس استشفعوا بآدم ثم بنوح ثم بإبراهيم ثم بموسى ثم بعيسى ثم بمحمد صلى الله عليه وسلم . **والنوع الثاني** :سؤال الميت والغائب وغيرهما مما لا يقدر عليه إلا الله مثل سؤال قضاء الحاجات وتفريج الكربات وإغاثة اللهفات، فهذا من المحرمات المنكرة باتفاق المسلمين. وهذا مما يعلم بالضرورة أنه ليس من دين الإسلام.فإن هذا من الشرك الأكبر الذي كفر الله به المشركين "[2].

ومثل هذه الشبهات أثارها من قبل بعض الصوفية، ورد عليهم العلماء الربانيون، فقد "قال

---

(1) إقامة البراهين (ص11).

(2) النبذة الشريفة النفسية / حمد بن ناصر آل معمر (ص10).

الشيخ صنع الله الحلبي الحنفي في كتابه (سيف الله على من كذب على أولياء الله) :"والاستعانة تجوز في الأسباب الظاهرة العادية من الأمور الحسية، من قتال أو إدراك عدو أو سبع أو نحوه، كقولهم: يالزيد، ياللمسلمين، بحسب الأفعال الظاهرة بالفعل، وأما الاستغاثة بالقوة والتأثير أو في الأمور المعنوية من الشدائد كالمرض وخوف الغرق والضيق والفقر، وطلب الرزق ونحوه فمن خصائص الله لا يطلب فيها من غيره"[1].

ولقد وجدنا أن هذا التحريف ديدن كثير من أنصار الصوفية حتى في هذا العصر، فهذا أحدهم يستدل على جواز الاستعانة بغير الله بما روى عن ابن عمر لما خدرت رجله مرة، فقيل له: اذكر أحب الناس إليك، فقال: وامحمداه، فانطلقت رجله.

وقد أثيرت هذه الشبهة من قبل فأجيب عنها بكلام الشهاب الخفاجي في كتابه (شرح الشفاء) وجاء فيه: "لأن الناس جربوا في الخدر أن من أصابه إذا ذكر محبوبه زال بسهولة؛ لأن بمسرته تنتعش الحرارة الغريزية، فيندفع الخدر. وفيه يقول أبو العتاهية:

وتخدر في بعض الأحايين رجلــه فإن لم يقل يا عتب لم يذهب الخدر"[2]

الخـــــــــــــدر"[2]

ولقد انحدر بعضهم في اللهث وراء الترهات حتى استدل بقول النبي صلى الله عليه وسلم في الذكر إذا رأى الهلال "ربي وربك" وقال: "وفي هذا خطاب للجماد"! أي أنه يجوز نداء الجماد فمن باب أولى يجوز نداء الأنبياء والأولياء والاستغاثة بهم.

ومادام الأمر وصل إلى هذه الحد من السفه فلسنا مستعدين لمجاراة السفاهة ومجاراة أهل الجدل واللجاج والسفسطة الفارغة.

لم يبق إلا مسألة واحدة، تتداخل فيها الوسيلة مع الاستغاثة والاستعانة، وهي أن الصوفية يزعمون أن المتوسل بذوات الأنبياء والصالحين، والمستغيث بهم في قبورهم إنما يفعل ذلك لأنهم في

---

(1) الرد على شبهات المستعنين بغير الله (ص63:64).

(2) الرد على شبهات المستعنين بغير الله (ص95:96).

قبورهم أحياء، فإذا ما توسل بهم أو استغاث بهم فإنهم يدعون له ويشفعون له وهم في قبورهم.

وهذا (عجن) لا ثمرة له إلا الخبال، من قال إنّ حياة الأنبياء والأولياء والشهداء في البرزخ يترتب عليها جواز الاستشفاع بهم وطلب دعائهم ؟ نحن لا ننكر أنهم أحياء في قبروهم، ولكن لا أحد ينكر أن حياتهم في قبورهم حياة برزخية، وأن انتقالهم إليها يقطع الصلات إلا ما ورد دليل باستثنائه من القاعدة كعرض الأعمال عليهم، وكرد النبي صلى الله عليه وسلم السلام على من سلم عليه.

ولو كان التوسل بهم جائزاً، وطلب دعائهم في قبورهم وارداً لما عدل الصحابة رضوان الله عليهم بعد وفاة نبيهم صلى الله عليه وسلم إلى الاستسقاء بالعباس رضي الله عنه. ثم إن في هذا الصنيع مفسدة كبيرة تستدعي سد الذرائع وهي "أن دعاءهم وطلب الشفاعة منهم في هذه الحال يفضي إلى الشرك بهم، ففيه هذه المفسدة راجحة، فكيف ولا مصلحة فيه، بخلاف الطلب منهم في حياتهم وحضورهم؛ فإن لا مفسدة فيه؛ لأنهم ينهونهم عن الشرك"[(1)].

وأخيراً أقول: إنه لا مصلحة في الدعوة إلى الاستغاثة بغير الله، أو دعاء غير الله، بل المفسدة تظلل وتجلل هذه الدعوة، ولا يصح التساهل والاستهتار بأمر كهذا من أمور العقيدة وأصول الدين؛ فإن "القرآن ناطق بخطر الدعاء، وبأنه لا يجوز أن يوجه لأحد من الأحياء ولا من الأموات سواء كانوا أنبياء أو صالحين أو غيرهم، وسواء كان الدعاء بلفظ الاستغاثة أو بغيرها، فإن الأمور الغير مقدورة للعباد لا تطلب إلا من خالق العباد ومنشئ البشر، فكيف والدعاء عبادة، وهي مختصة به سبحانه "[(2)].

---

(1) قاعدة جليلة في التوسل والوسيلة (ص38).

(2) غاية الأماني في الرد على النبهاني، للألوسي (ص252/251) بتصرف.

الفصل الخامس

الزيـــــــارة

من الأمور المعلومة في دين الله عز وجل بيقين أن المحرمات ليست على درجة واحدة من الخطورة؛ لأنها ليست متساوية فيما يترتب عليها من مفاسد ومضار؛ لذلك تفاوتت فيما بينها في درجة التحريم، فهناك الكبائر الموبقات وهناك الصغائر واللمم، والكبائر الموبقات تتفاوت وتتباين بحسب حجم المفاسد والشرور التي تكتنف كل واحدة منها.

ومن المعهود في شريعة الله عز وجل أنها تحيط الموبقات العظام بأسوار عالية من التعاليم والتدابير الشرعية، حتى يكون الناس على يقظة منها، وذلك على سبيل الاحتياط وسد الذرائع، فلو نظرنا على سبيل المثال إلى جريمة الزنا، لوجدنا أن الشرع أحاطها بجملة كبيرة من الأحكام التي تقي الناس من السقوط في جب الفاحشة، منها: تحريم النظر إلى ما حرم الله، وتحريم مصافحة الأجنبية، وإيجاب الحجاب، وغير ذلك من الأحكام والآداب. ومثلها في هذا الاحتياط جريمة الربا.

ولا ريب أن الشرك بالله عز وجل هو أعظم الموبقات على الإطلاق؛ لذلك لا رجاء في أن يغفره الله عز وجل لمن مات عليه، بينما لا ينقطع رجاء الموحدين في مغفرة الله عز وجل لذنوبهم مهما تعاظمت وتكاثرت، قال تعالى: ﴿ **إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَاءُ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدِ افْتَرَىٰ إِثْمًا عَظِيمًا** ﴾[النساء: 48].

وعن أَنَسُ بْنُ مَالِكٍ، قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم يَقُولُ: "**قَالَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى" يَا ابْنَ آدَمَ إِنَّكَ لَوْ أَتَيْتَنِي بِقُرَابِ الْأَرْضِ خَطَايَا ثُمَّ لَقِيتَنِي لاَ تُشْرِكُ بِي شَيْئًا لأَتَيْتُكَ بِقُرَابِهَا مَغْفِرَةً** "[(1)].

ومن هنا عمد الشارع الحكيم إلى سد كل المنافذ والسبل المؤدية إلى ذلك الظلم العظيم، وبالغ في الاحتياط وسد الذرائع، حماية للعباد من أعظم أسباب الضياع والهلاك، إذ ليس ثم سبب للضياع

(1) رواه الترمذي في السنن (3492)، والطبراني في الأوسط (4437)، وأبو نعيم في الحلية (2234)، والخطيب التبريزي في مشكاة المصابيح (2336) "صحيح".

الهلاك يقارب الشرك بالله العظيم، قال تعالى: ﴿ **وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّـهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ** ﴾ [الحج: 31].

وكيف لا يكون هذا مسلك الشارع الحكيم وقد اكتوت البشرية من قبل بنار التساهل والتهاون فيما لا يصح فيه التساهل أو التهاون، روي البخاري في صحيحه عن ابن عباس رضي الله عنهما في قول الله عز وجل : ﴿**وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا** ﴾ [نوح: 23]، قال: "**هذه أسماء رجال صالحين فلما هلكوا أوحى الشيطان إلى قومهم أن انصبوا إلى مجالسهم التي كانوا يجلسون فيها أنصابا، وسموها بأسمائهم، ففعلوا، فلم تعبد، حتى هلك أولئك ونسي العلم عبدت**" [1].

وقد أورد المفسرون[2] هذه القصة في تفسير الآية المذكورة عن بعض السلف مثل محمد بن كعب ومحمد بن قيس.

ومن الأمثلة الشاهدة على حماية الشارع الحكيم لجناب التوحيد أن رسول الله صلى الله عليه وسلم منع أن يذبح لله في مكان يذبح فيه لغير الله، فعن ثَابِتُ بْنُ الضَّحَّاكِ، قَالَ: "نَذَرَ رَجُلٌ عَلَى عَهْدِ رَسُولِ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم أَنْ يَنْحَرَ إِبِلاً بِبُوَانَةَ [3]، فَأَتَى النَّبِيَّ صلى الله عليه وسلم ، فَقَالَ: إِنِّي نَذَرْتُ أَنْ أَنْحَرَ إِبِلاً بِبُوَانَةَ، فَقَالَ النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم : هَلْ كَانَ فِيهَا وَثَنٌ مِن أَوْثَانِ الْجَاهِلِيَّةِ يُعْبَدُ ؟، قَالُوا: لاَ، قَالَ: هَلْ كَانَ فِيهَا عِيدٌ مِنْ أَعْيَادِهِمْ ؟، قَالُوا: لاَ، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم : أَوْفِ بِنَذْرِكَ، فَإِنَّهُ لاَ وَفَاءَ لِنَذْرٍ فِي مَعْصِيَةِ اللَّهِ، وَلاَ فِيمَا لاَ يَمْلِكُ ابْنُ آدَمَ "[4].

ومن ذلك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم نهي أمته أن تصنع عند قبره ما يكون ذريعة

---

(1) رواه البخاري (4636).

(2) راجع تفسير الطبري (53/12)، القرطبي (264/18)، ابن كثير (548/4)، والبغوي (232/1)، وزاد المسير(369/8)، وفتح القدير(423/5).

(3) ببوانة: موضع أسف مكة دون يلملم.

(4) رواه أبوداود في السنن (2885)، والطبراني في الكبير (1326)، والبيهقي في الصغرى (1850).

للشرك، فقال: "لاَ تَتَّخِذُوا قَبْرِي عِيدًا"[1].

وتضرع إلى ربه عز وجل قائلا: " اللَّهُمَّ لا تَجْعَلْ قَبْرِي وَثَنًا يُعْبَدُ "[2].

وذلك لأن بعض الأمم السابقة كان سبب ضلالها الغلو في تعظيم قبور الأنبياء والصالحين (فخشى رسول الله صلى الله عليه وسلم على أمته أن تصنع كما صنع بعض من مضى من الأمم، كانوا إذا مات لهم نبي عكفوا على قبره كما يصنع بالصنم، فقال صلى الله عليه وسلم : "اللهم لا تجعل قبري وثنا" يصلى إليه ويسجد نحوه ويعبد، فقد اشتد غضب الله على من فعل ذلك، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يحذر أمته من سوء صنيع الأمم قبله) [3].

ومن ذلك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم نهي أن يتخذ قبره أو قبر غيره مسجداً فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إِنَّ مِنْ شِرَارِ النَّاسِ مَنْ تُدْرِكُهُمُ السَّاعَةُ وَهُمْ أَحْيَاءٌ، وَمَنْ يَتَّخِذُ الْقُبُورَ مَسَاجِدَ "[4].

وعَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، عَنِ النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم قَالَ فِي مَرَضِهِ الَّذِي مَاتَ فِيهِ: "لَعَنَ اللَّهُ الْيَهُودَ، وَالنَّصَارَى اتَّخَذُوا قُبُورَ أَنْبِيَائِهِمْ مَسْجِدًا"، قَالَتْ: وَلَوْلاَ ذَلِكَ لأَبْرَزُوا قَبْرَهُ غَيْرَ أَنِّي أَخْشَى أَنْ يُتَّخَذَ مَسْجِدًا"[5].

وعنها أَنَّ أُمَّ حَبِيبَةَ، وَأُمَّ سَلَمَةَ ذَكَرَتَا كَنِيسَةً رَأَيْنَهَا بِالْحَبَشَةِ فِيهَا تَصَاوِيرُ، فَذَكَرَتَا لِلنَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم ، فَقَالَ: "إِنَّ أُولَئِكَ إِذَا كَانَ فِيهِمُ الرَّجُلُ الصَّالِحُ فَمَاتَ، بَنَوْا عَلَى قَبْرِهِ مَسْجِدًا وَصَوَّرُوا فِيهِ

---

(1) رواه أحمد في المسند (8606)، وابن أبي شيبة في المصنف (7303)، وعبدالرزاق في المصنف (6557)، وأبو نعيم في الحلية (8856)، و الهيثمي في مجمع الزوائد (5847)، والبوصيري في إتحاف الخيرة المهره بزوائد المسانيد العشرة (1185)"إسناده حسن".

(2) سبق تخريجه.

(3) التمهيد لابن عبد البر(45/5).

(4) رواه ابن حبان في صحيحه (7004)، والطبراني في الكبير (10266)، وابن أبي شيبة في المصنف (272)، وابن خزيمه في صحيحه (771) "إسناده حسن".

(5) رواه البخاري(1251) "صحيح".

تِلْكَ الصُّوَرَ، فَأُولَئِكَ شِرَارُ الْخَلْقِ عِنْدَ اللَّهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ"[1].

ففي هذه الأحاديث حذر النبي صلى الله عليه وسلم أمته من اتخاذ القبور مساجد ومن بناء مساجد على قبور الأنبياء والصالحين، سدا للذريعة المؤدية إلى الشرك بالله (وكان ذلك في مرض موته، إشارة إلى أنه من الأمر المحكم الذي لا ينسخ بعده) [2].

ولقد التزم الصحابة الكرام رضوان الله عليهم بأمر النبي صلى الله عليه وسلم وصدعوا به، ولكن وقعت الضرورة وقامت الحاجة إلى توسيع المسجد، فدخلت حجرة السيدة عائشة وفها القبر الشريف في المسجد، فاحتاط الصحابة وبنوا على القبر حيطانا مرتفعة مستديرة حوله لئلا تصل إليه العوام فيؤدي إلى ذلك المحذور، ثم بنوا جدارين بين ركني القبر الشمالي، حرفوهما حتى التقيا حتى لا يمكن أحد أن يستقبل القبر)[3].

ومن ذلك أنه صلى الله عليه وسلم نهي عن الصلاة في المقبرة وعن إيقاد السرج على القبور وعن ترداد النساء عليها، بل أمر بتسوية كل قبر مشرف، وبطمس التماثيل، فعن عبد الله بن عمرو أن رسول الله صلى الله عليه وسلم " نَهي عَنِ الصَّلاةِ فِي الْمَقْبَرَةِ "[4].

وعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ، قال: "لَعَنَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم زَائِرَاتِ الْقُبُورِ، وَالْمُتَّخِذَاتِ عَلَيْهَا الْمَسَاجِدَ وَالسُّرُجَ 24 "صحيح".

وعن أبي الهياج الأسدي قال: قال لي على بن أبي طالب **"ألا أبعثك على ما بعثني عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم أن لا تدع تمثالا إلا طمسته ولا قبرا مشرفا إلا سويته"**[5].

---

(1) رواه البخاري(412)، ومسلم (824)، والنسائي في الكبرى (775)، أحمد في المسند (23699)، وابن أبى شيبة في المصنف (7309)، وابن خزيمه في صحيحه (772)، وأبويعلى في مسنده (4560)، وأبوعوانة في مسنده (915)، والبيهقى في الكبرى (6701)"صحيح".

(2) عمدة القاري (174/4) وانظر الفتح (525/1).

(3) عمدة القاري (174/4).

(4)رواه ابن حبان في صحيحه (2368) "إسناده صحيح".

(5) رواه ابن أبى شيبة في المصنف (7310)، ، وأبوداود الطيالسى في مسنده (2848)، وابن الجعد في مسنده (1291)، والبيهقى في الكبرى (6686) رجاله ثقات.

هذه الشواهد وغيرها تدل على مقصود الشارع الحكيم في حماية جناب التوحيد، وسد الذرائع المفضية إلى الشرك، وعليه فلا يصح التساهل فيما شدد الشارع فيه واحتاط له بكافة التدابير، ولا يسوغ التهاون فيا يجب الاحتياط فيه واليقظة له.

لاسيما وقد وقع كثير مما حذر رسول الله صلى الله عليه وسلم أمته منه، ومما خشي عليها من مغبته، فها هم المسلمون قد خالفوا تعاليم نبيهم صلى الله عليه وسلم ، وبنوا على قبور الصالحين أضرحة، واتخذوا عليها المساجد والسرج، ونصبوا حولها الأعياد والموالد، فأفضى هذا بكثير منهم إلى الشرك بالله العظيم (ولا أري مثلا لذلك أقرب من المسلمين الذين يلتجئون في حاجاتهم ومطالبهم إلى سكان القبور، ويتضرعون إليهم تضرعهم للإله المعبود، فإذا عتب عليهم في ذلك عاتب قالوا: إنا لا نعبدهم، وإنما نتوسل بهم إلى الله، كأنهم لا يشعرون أن العبادة ما هم فيه، وأن أكبر مظهر لألوهية الإله المعبود أن يقف عباده بين يديه ضارعين خاشعين يلتمسون إمداده ومعونته، فهم في الحقيقة عابدون لأولئك الأموات من حيث لا يشعرون)[1].

وماذا يمكن أن يقول العبد لله عز وجل أكثر من قول العبادي مخاطبا الرفاعي عند قبره:

يا رفاعي وقعت في اعتابك	فتدارك عبدا يلوذ ببابك
يا رفاعي يا غوث كل البرايا	لا تضيع طفلا جميلا الرجا بك
أنت غوث الوجود ومفتاح كنز الـ	وجود والخير سح من ميزابك
فتحرك بهمة وأغثني	وتذكر تشرفي بانتسابك[2]

ولقد استفحل هذا الأمر حتى ظهرت أضرحة تزار وتعبد من دون الله عز وجل دون أن يكون هناك دليل على أن ساكنها هو ذاك الذي يقصدونه بالزيارة والعبادة، وكأنه (لا يلزم أن يكون الولي المقام الضريح باسمه قد ثبت وجوده في ذلك المكان، بل لا يلزم أن يكون وطئت قدمه أرض تلك البلاد أصلا، ومن هنا ظهرت أضرحة مزعومة ومكذوبة في طول البلاد وعرضها، وتعددت الأضرحة للولي الواحد في

(1) النظرات المنفلوطي صمقال: دمعة على الإسلام.

(2) الكنـز المظلم العبادي (ص62/61)، انظر: الرفاعية لعبد الرحمن ومشقية(ص130).

أكثر من قطر، ولتسويغ ذلك الخطل نسجوا خرافة واضحة الزور والبهتان، فقالوا: الأرض لأجسام الأولياء كالماء للسمك، فيظهرون في أماكن متعددة)[1].

ومن أخطر تداعيات هذا الزلزال الذي أصاب الأمة الإسلامية في صميم دينها تلك الموالد التي تقام كل عام حول الأضرحة، وتلك المناظر المخزية والأفعال الشنيعة المردية التي تفعل هناك، حيث يقبل الناس من كل فج عميق، فيعكفون حول الضريح و(ينصبون خياما كثيرة، وصواوين ومطابخ، وقهاوي، ويجتمع العالم الأكبر مع أخلاط الناس خواصهم وعوامهم، وفلاحي الأرياف وأرباب الملاهي والملاعب والغواني والبغايا والقرادين والحواة، فيملأون الصحراء والبستان ويطئون القبور ويتغوطون فيها، ويزنون ويلوطون ويلعبون ويرقصون ويضربون بالطبول والزمور ليلا ونهارا)[2].

إلى حد أن اكتست قرى كثيرة بالقدسية، لا لشيء إلا لوجود الضريح فيها وقيام المولد بها، فعلى سبيل المثال: (أضحت قرية أم عبيد مسقط رأس الشيخ أحمد الرفاعي عند الرفاعية البقعة المقدسة، والبلد الحرام، الذي يتقرب الخلائق بزيارته إلى الله تعالى، ويتوجه إليه أصحاب الحوائج والكربات لرفع حوائجهم وكرباتهم، وذكروا أن أمر قدسيتها قد تم بمقتضى وعد إليها.فزعموا أن الأمر الإلهي قد صور إلى الرفاعي بأن ينادي بالناس من كل حدب وصوب ليحجوا إليها، ففعل مثلما فعل إبراهيم عليه السلام حين نادى في الناس بالحج)[3].

ولقد سمنت صناديق النذور الموضوعة في الأضرحة، وتورمت جيوب الخدام، وانتفخت بطونهم، بما يتدفق على هذه الصناديق من نذور ما أريد بها وجه الله خالصا؛ حتى قال الشاعر حافظ إبراهيم:

أحياؤنا لا يرزقون بدرهم		وبألف ألف يرزق الأموات

من لي بحظ النائمين بحفرة		قامت على أحجارها الصلوات

والله الذي لا إله غيره إن هذا لهو عين الضياع الذي خافه رسول الله صلى الله عليه وسلم

---

(1) مقال (فسطاط الخرافة) خالد محمد حامد، من كتاب دمعة على التوحيد ص.

(2) تاريخ الجبرتي(304/1).

(3) الرفاعية، لعبد الرحمن دمشقية (ص120).

على أمته وهو يكابد سكرات الموت، وهو ذات الخطر الذي اجتهد صلى الله عليه وسلم في سد الذرائع المؤدية إليه، ووالله الذي لا إليه غيره (لن يسترجع المسلمون سالف مجدهم، ولن يبلغوا ما يريدون لأنفسهم من سعادة الحياة وهناءها إلا إذا استرجعوا قبل ذلك ما أضاعوا من عقيدة التوحيد، وإن طلوع الشمس من مغربها، وانصباب ماء النهر في منبعه أقرب من رجوع الإسلام إلى سالف مجده ما دام المسلمون يقفون بين يدي الولي كما يقفون بين يدي الله، ويقولون له كما يقولون لله.وإن الله أغير على نفسه من أن يسعد قوما يزدرونه، ويحتقرونه ويتخذونه وراءهم ظهريا، فإذا نـــزلت بهم جائحة أو ألمت بهم ملمة ذكروا الحجر قبل أن يذكروه، ونادوا الجذع قبل أن ينادوه[1].

لأجل ذلك كله يجب أن نكون مع كل من يحتاط في أمر التوحيد والعقيدة، وضد كل من يتهاون أو يتساهل فيه، ويجب أن نعيد النظر في كل قول لا يستقيم مع اتجاه الشارع في الاحتياط وسد الذرائع المفضية إلى الشرك بالله العظيم.

ولقد أعتبر كثير من العلماء أن السفر وشد الرحال وإعمال المطي بغرض زيارة قبر النبي صلى الله عليه وسلم أو قبر غيره من الأنبياء والصالحين من المسائل التي نهي عنها رسول الله صلى الله عليه وسلم ومنعها سداً لذريعة الشرك بالله عز وجل ، واستدلوا بالحديث الصحيح: "لاَ تُشَدُّ الرِّحَالُ إِلاَ إِلَى ثَلاَثَةِ مَسَاجِدَ، الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ، وَمَسْجِدِ الرَّسُولِ صلى الله عليه وسلم ، وَمَسْجِدِ الْأَقْصَى"[2].

ومن الواضح أنهم لم يمنعوا الزيارة، وإنما منعوا شد الرحال لغرض الزيارة وحسب.

من هؤلاء العلماء القاضي عياض والجويني والقاضي حسين، وغيرهم [3]، ومنهم أيضا شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله، واعتبر هؤلاء العلماء أن المستثنى منه يعم المساجد وغيرها من البقاع التي

---

(1) من مقال (دمعة على الإسلام) للمنفلوطي بتصرف بسيط، النظرات (ص).

(2) رواه البخاري(1122)، ومسلم (2480)، وأبوداود في السنن (1741)، والترمذي في السنن (300)، والنسائي في الكبرى (771)، وابن ماجة في السنن (1399)، والدرامي في السنن (1391)، أحمد في المسند (10830)، وابن حبان في صحيحه (1651)، والطبراني في الكبير (2117)، وابن أبي شيبة في المصنف (17719)، وأبويعلى في مسنده (1144)، الحميدي في مسنده (724)، وأبوداود الطيالسى في مسنده (1432)، و الطحاوي في مشكل الآثار (491)، وأبو نعيم في الحلية (14534)، والبيهقى في الشعب ()، والبيهقى في الكبرى (18592)"صحيح".

(3) انظر فيض القدير(403/6).

تقصد لقداستها، واستدلوا على ذلك بحديث سفر أبي هريرة إلى الطور، وفيه: " قَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ: فَلَقِيتُ بَصْرَةَ بْنَ أَبِي بَصْرَةَ الْغِفَارِيَّ، فَقَالَ: مِنْ أَيْنَ أَقْبَلْتَ ؟ فَقُلْتُ: مِنَ الطُّورِ، فَقَالَ: لَوْ أَدْرَكْتُكَ قَبْلَ أَنْ تَخْرُجَ إِلَيه مَا خَرَجْتَ إِلَيْهِ، سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم يَقُولُ: "**لا تُعْمَلُ الْمَطِيُّ إِلا إِلَى ثَلاثَةِ مَسَاجِدَ**."الحديث [1].

"فقد فهم الصحابي الذي روى الحديث أن الطور وأمثاله من مقامات الأنبياء مندرجة في العموم، وأنه لا يجوز السفر إليها كما لا يجوز السفر إلى مسجد غير المساجد الثلاثة" [2].

ومما يؤيد ما ذهبوا إليه أن الاستثناء هنا مفرغ، والمستثنى منه في المفرغ يقدر بأعم العام [3]، فيكون التقدير: لا تشد الرحال إلى موضع [4].

وحتى على فرض أن التقدير: لا تشد الرحال إلى مسجد، وأن المستثنى منه هو المساجد وحسب فإن هذا يدل بطريق الأولى على منع السفر وشد الرحال لزيارة غير المساجد من الأماكن الفاضلة كقبور الأنبياء والصالحين "فإذا كان السفر إلى بيت من بيوت الله غير المساجد الثلاثة لا يجوز مع أن قصده لأهل مصره يجب تارة ويستحب أخرى – وقد جاء في قصد المساجد من الفضل مالا يحصى – فالسفر إلى بيوت الموتى من عباده أولى ألا يجوز" [5].

وهذا الرأي يتفق تمام الاتفاق مع اتجاه الشارع الحكيم إلى سد كل المنافذ المفضية إلى الشرك، لاسيما وأن (أهل الجاهلية كانوا يقصدون مواضع معظمة بزعمهم يزورونها ويتبركون بها وفيه من التحريف والفساد ما لا يخفى) [6]وكذلك كان اليهود والنصارى يفعلون، وأمة الإسلام مطالبة بمجانبة سنن الجاهليين.

---

(1) رواه النسائي في الكبرى (1744)، وأحمد في المسند (23218)، وابن حبان في صحيحه (2841)، ومالك في الموطأ(239)، الحميدي في مسنده (920)، و الطحاوي في مشكل الآثار (489)، والبيهقى في الصغرى (288)"صحيح".

(2) اقتضاء الصراط المستقيم(328/1).

(3) تحفة الأحوذي(241/2).

(4) تنوير الحوالك (101/1)، شرح السيوطي لسنن النسائي(37/2).

(5) اقتضاء الصراط المستقيم(328/1).

(6) عون المعبود(12/6).

وقال كثير من العلماء بأن شد الرحال إلى قبر النبي صلى الله عليه وسلم وإلى قبور الصالحين غير محرم، وأن المستثنى منه لا يعم، بل هو خاص بالمساجد، (واستدلوا بما لا ينهض، وتأولوا أحاديث الباب بتأويل بعيد، ولا ينبغي التأويل إلا بعد أن لا ينهض على خلاف ما أولوه الدليل)(1).

والأحاديث التي استدلوا بها لم يصح منها حديث واحد، من هذه الأحاديث:

"مَنْ زَارَ قَبْرِي وَجَبَتْ لَهُ شَفَاعَتِي"(2).

"مَنْ زَارَنِي بَعْدَ مَوْتِي فَكَأَنَّمَا زَارَنِي فِي حَيَاتِي"(3).

"مَنْ حَجَّ وَلَمْ يَزُرْنِي فَقَدْ جَفَانِي"(4).

"مَنْ جَاءَنِي زَائِرًا لا تُعْمِلُهُ حَاجَةٌ إِلا زِيَارَتِي، كَانَ حَقًّا عَلَيَّ أَنْ أَكُونَ لَهُ شَفِيعًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ"(5).

وجميع هذه الأحاديث ضعيفة بل أغلبها موضوع، ولم يصح في هذا الباب شيء(6).

وكان شيخ الإسلام ابن تيمية من أشد المتحمسين لمنع السفر وشد الرحال وإعمال المطي من أجل زيارة القبر الشريف وسائر قبور الأنبياء والصالحين، وكذلك جميع الأماكن الفاضلة. والذي ينبغي أن يفهم أن ابن تيمية لم يحرم الزيارة، وإنما حرم شد الرحال لأجل الزيارة وحدها، أما من شد الرحال بقصد إتيان مسجد الرسول صلى الله عليه وسلم وزار القبر الشريف فلا بأس بذلك، بل هو مستحب ومندوب.

وقد أنكر بعض العلماء مثل تقي الدين السبكي رحمه الله على شيخ الإسلام منعه السفر وشد الرحال بقصد زيارة القبر الشريف، وامتحن شيخ الإسلام لأجل ذلك وسجن، وانبرى البعض الآخر

---

(1) سبل السلام (89/1).

(2) رواه البيهقي في الشعب (3977)، والجرجاني في الكامل في ضعفاء الرجال(7853)، والفتني في تذكرة الموضوعات(491)، والشوكاني في الفوئد المجموعة (324)، والهيثمي في مجمع الزوائد (5841)، وفي ضعيف الجامع (5607) "موضوع".

(3) رواه الدارقطني في السنن (2366)، والبيهقي في الشعب (3970)، والسيوطي في اللآلىء المصنوعة في الأحاديث الموضوعة (1557)، وفى السلسلة الضعيفة (1021) "باطل".

(4) رواه والشوكاني في الفوئد المجموعة في الأحاديث الموضوعة (324)"موضوع".

(5) رواه الطبراني في الأوسط (4688) " إسناده ضعيف ".

(6) انظر: تلخيص الحبير (266/2-267)، تذكرة الموضوعات(532/1-535)، تخريج أحاديث الأحياء (210/1-211)، السلسلة الضعيفة (89/3)، إرواء الغليل(335/4).

للدفاع عنه مثل الحافظ ابن عبد الهادي رحمه الله ودار في البلاد الشامية والمصرية جدل واسع حول هذه المسألة.

ومن خلال دراستي لهذه المسألة في كتب شيخ الإسلام، وفي كتب غيره من أهل العلم لاحظت الآتي:

أولا: أن شيخ الإسلام رحمه الله عندما تحدث عن منع السفر وشد الرحال إلى غير المساجد الثلاثة تحدث حديثا عاما، ولم يخص القبر الشريف بالحديث، وإنما تناول حديثه كل الأماكن التي يقصدها الناس بالتعظيم والتبرك، فيقول – رحمه الله تعالى – (أما السفر إلى بيت القدس للصلاة فيه والاعتكاف وقراءة القرآن والذكر أو الدعاء فمشروع مستحب باتفاق علماء المسلمين.وأما السفر إلى مجرد زيارة قبر الخليل أو غيره من مقابر الأنبياء والصالحين ومشاهدهم وآثارهم فلم يستحبه أحد من أئمة المسلمين الأربعة ولا غيرهم. بخلاف المساجد الثلاثة)[1].

ويقول: (وأما المشاهد التي على القبور سواء جعلت مساجد أو لم تجعل والمقامات التي تضاف إلى بعض الأنبياء والصالحين، أو المغارات والكهوف أو غير ذلك مثل الطور الذي كلم الله عليه موسى، ومثل غار حراء الذي كان النبي صلى الله عليه وسلم يتحنث فيه قبل نـــزول الوحي عليه، والغار الذي ذكره الله في قوله: ﴿ **ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ** ﴾ [التوبة: 40]، والغار الذي بجبل قايسون بدمشق الذي يقال له مغارة الدم، والمقامان اللذان بجانبيه الشرقي والغربي يقال لأحدهما مقام إبراهيم ويقال للأخر مقام عيسى، وما أشبه هذه البقاع والمشاهد في شرق الأرض وغربها فهذه لا يشرع السفر إليها لزيارتها)[2].

ثانيا: أنه لم يحرم الزيارة، وإنما حرم شد الرحال بقصد زيارة القبور والمشاهد، أما الزيارة فقد قسمها إلى زيارة شرعية وزيارة بدعية، وحدد البدعية بأوصاف تدل على أنه لم يحرم أصل الزيارة، فيقول: (وأما الزيارة البدعية فهي التي يقصد بها أن يطلب من الميت الحوائج أو يطلب منه الدعاء

(1) مجموع الفتاوي(27/20-21).
(2) الفتاوي الكبير(2/441).

والشفاعة، أو بقصد الدعاء عند قبره لظن القاصد أن ذلك أجوب للدعاء، فالزيارة على هذه الوجوه كلها مبتدعة، لم يشرعها النبي صلى الله عليه وسلم ولا فعلها الصحابة لا عند قبر النبي صلى الله عليه وسلم ولا عند غيره)[1].

فكلام شيخ الإسلام عن الزيارة يتناول الأحكام المتعلقة بها وليس فيه ما يدل على منعه وتحريمه للزيارة، وإنما هو يقسمها إلى زيارة شرعية وزيارة بدعية، فأما الشرعية فهي مستحبة وأما البدعية فهي محرمة، وفي ضمن هذه الأحكام ذكر حكم السفر وشد الرحال إلى غير المساجد الثلاثة.

ثالثا: أنه لا يتحدث عن شد الرحال وحسب وإنما يتحدث عن كل البدع التي تفعل عند القبور وينطلق في حديثه من معالجة واقع مرير وخطير، فهو لا يتحدث عن أمر لم يقع، ولا يتناول قضية علمية محبوسة بين دفاف الكتب، ولكنه يعاني معالجة انحراف كبير بنذر بضياع التوحيد وانهدام أمر العقيدة، يقول رحمه الله (وهذا أمر قد وقع فيه الغلاة في المشايخ المنتسبين إلى السنة والشيعة، حتى أن الواحد من هؤلاء في بيته يصلي لله الصلاة المفروضة بقلب غافل لاه، ويقرأ القرآن بلا تدبر ولا خشوع، وإذا زار قبر من يغلو منه بكى وخشع واستكان وتضرع وانتحب ودمع..)[2].

وقال (ولهذا يجري هؤلاء دعاء الموتى عند القبور وغير القبور ويتوجهون إليهم ويستعينون بهم ويقولون إن أرواحنا إذا توجهت إلى روح المقبور في القبور اتصلت به ففاضت عليها المقاصد من جهته، وكثير منهم ومن غيرهم من الجهال يرون الصلاة والدعاء عند قبور الأنبياء والصالحين من أهل البيت وغيرهم أفضل من الصلوات الخمس والدعاء في المساجد وأفضل من حج بيت الله العتيق)[3].

ويقول: (ولهذا يحبون سماع القصائد أعظم مما يحبون سماع القرآن، ويجتهدون في دعاء مشايخهم والاستعانة بهم عند قبورهم وفي حياتهم في مغيبهم أكثر مما يجتهدون في دعاء الله والاستعانة به في

(1) قاعدة جليلة في التوسل والوسيلة (ص26).
(2) مجموع الفتاوي(441/2).
(3) الرد على النطقيين(104/1).

المساجد)[1].

وقال: (وهذا يجري لمن يدعو المخلوقين من النصارى ومن المنتسبين إلى الإسلام، يدعوهم عند قبورهم أو مغيبهم، ويستغيثون بهم) [2].

فهذا واقع أليم كان شيخ الإسلام يعاني معالجته ويكابد مقاومة ما فيه من انحراف وزيغ عن الصراط المستقيم.

رابعا: (أن شيخ الإسلام اتكأ في قوله هذا على الآتي:

1- قيام الدليل الصحيح على منع شد الرحال إلى غير المساجد الثلاثة، وهو أحاديث شد الرحال، وتساقط وتهاوي كل الأدلة التي يستند إليها من قال بالجواز. فقد اثبت رحمه الله بالاستدلال الصريح أن حديث شد الرحال (تناول المنع من السفر إلى كل بقعة مقصودة)[3]، وأثبت كذلك أن الأحاديث التي يستند إليها المجيزون لم يصح منها شيء وأن المرويات التي ينسبها المتصوفة إلى بعض السلف لا تنهض لمقاومة الثابت من سنة المعصوم صلى الله عليه وسلم (وما يعارض النقل الثابت عن المعصوم بنقل غير ثابت عن غير معصوم إلا من يكون من الضالين)[4].

2-أن الإتباع الذي هو مقتضى شهادة أن محمدا رسول الله صلى الله عليه وسلم يقتضى ألا تفعل ما لم يفعله رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا صحابته ولا السلف رضوان الله عليهم يقول **رحمه الله**: (وبالجملة فمعنا أصلان عظيمان، أحدهما: ألا نعبد إلا الله، والثاني ألا نعبده إلا بما شرع.وهذان الأصلان هما تحقيق شهادة ألا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله)[5]، ويقول: (وذلك لأن المتابعة أن يفعل مثل ما فعل على الوجه الذي فعل، فإذا فعل فعلاً على وجه العبادة شرع لنا أن نفعله على وجه العبادة، وإذا قصد تخصيص مكان أو زمان بالعبادة خصصناه بذلك، كما كان يقصد أن

(1) منهاج السنة النبوية(329/5).

(2) مجموع الفتاوي(284/14).

(3) مجموع الفتاوي(210/27).

(4) مجموع الفتاوي(333/1).

(5) قاعدة جليلة فالتوسل والوسيلة(ص117).

يطوف بالكعبة.وأما ما فعله بحكم الاتفاق و لم يقصده مثل أن ينـــزل بمكان ويصلي فيه، لكونه تزل لا قصدا لتخصيصه به بالصلاة والنـــزول فيه، فإذا قصدنا تخصيص ذلك المكان بالصلاة فيه أو النـــزول لم نكن متبعين، بل هذا من البدع التي كان ينهي عنها عمر بن الخطاب.)[1].

ويقول: (وثبت أن عمر رضي الله عنه كان في بعض الأسفار فرأي قوما يتناوبون مكانا يصلون فيه، فقال ما هذا ؟ فقالوا: مكان صلى فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال: أتريدون أن تتخذوا أثرا لأنبياء لكم مساجد؟ أنما هلك من كان قبلكم بهذا، من أدركته الصلاة فليصل وإلا فليمض)[2]. ويقول: (لم يفعل ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولا أحد من أصحابه، ولا من أئمة الدين الذين يقتدي بهم المسلمون في دينهم، ولا أمر بذلك ولا أستحبه رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا أحد من أصحابه ولا أئمة الدين، بل لا يعرف هذا عن أحد من أهل العلم والدين من القرون المفضلة التي أثنى عليها رسول الله صلى الله عليه وسلم من الصحابة والتابعين وتابعيهم ولا من أهل الحجاز ولا من اليمن ولا الشام ولا العراق ولا مصر ولا المغرب ولا خراسان، وإنما حدث بعد ذلك)[3].

ويقول: (وإذا كان غار حراء الذي كان أهل مكة يصعدون إليه للتعبد فيه ويقال إن عبد المطلب سن لهم ذلك وكان النبي صلى الله عليه وسلم قبل النبوة يتحنث فيه، وفيه نـــزل على الوحي أولا، لكن من حين نـــزل الوحي عليه ما صعد رسول الله صلى الله عليه وسلم إليه بعد ذلك ولا قربه، لا هو لا أصحابه، وقد أقام بمكة بعد النبوة بضع عشرة سنة، لم يزره و لم يصعد إليه وكذلك المؤمنون معه بمكة، وبعد الهجرة أتى بمكة مرارا في عمرة الحديبية وعام الفتح وأقام بها قريبا من عشرين يوما، وفي عمرة الجعرانة و لم يأت غار حراء ولا زاره).

ويقول: (فمن المعلوم بالاضطرار أن الدعاء عند القبور لو كان أفضل من الدعاء عند غيرها، أو هو أحب إلى الله وأجوب لكان السلف أعلم بذلك من الخلف، ولكانوا أسرع إليه، فإنهم كانوا

---

(1) مجموع الفتاوي.

(2) مجموع الفتاوي(151/27).

(3) مجموع الفتاوي(251/27).

أحظى بما يحبه الله ويرضاه، وأسبق إلى طاعته ورضاه، ولكان النبي صلى الله عليه وسلم ببين ذلك، ورغب فيه؛ فإنه أمر بكل معروف ونهي عن كل منكر، وما ترك شيئا يقرب إلى الجنة إلا وقد حث أمته عليه، ولا شيئا يقرب إلى النار ألا وحذر أمته منه، وقد ترك أمته على المحجة البيضاء ليلها كنهارها لا ينــــزوي عنها بعده إلا هالك، فكيف وقد نهي عن هذا الجنس وحسم ما دونه بلعنه ونهيه عن اتخاذ القبور مساجد)[1].

ويقول (وقد كان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم لما فتحوا هذه البلاد: بلاد الشام والعراق ومصر وخراسان والمغرب وغيرها، لا يقصدون هذه البقاع ولا يزورونها ولا يقصدون الصلاة والدعاء فيها، بل كانوا مستمسكين بشريعة نبيهم يعمرون المساجد. وكذلك قبر الخليل لما فتح المسلمون البلاد كان عليه السور السليماني، ولا يدخل إليه أحد ولا يصلي أحد عنده، بل كان المسلمون يصلون بقربة الخليل بمسجد هناك، وكان الأمر على ذلك على عهد الخلفاء الراشدين ومن بعدهم)[2].

3-أن المعهود على الشارع الحكيم الاحتياط في أمر التوحيد، وسد كل الذرائع المؤدية إلى الشرك فينبغي أن يسير المسلمون على هذه الطريقة ولا يخالفوها.

يقول رحمه الله: (ولهذا اتفق السلف على أنه لا يستلم قبر من قبور الأنبياء وغيرهم ولا يتمسح به، ولا يستحب الصلاة عنده، ولا قصده للدعاء عنده أوبه، لأن هذه الأمور كانت من أسباب الشرك وعبادةالأوثان، كما قال تعالى: ﴿ **وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا** ﴾ [نوح: 23]، قال طائفة من السلف، هؤلاء كانوا قوما صالحين في قوم نوح، فلما ماتوا عكفوا على قبورهم ثم صوروا تماثيلهم فعبدوهم)[3].

ويقول: (وأما بعد موته فيخاف الفتنة والإشراك به كما أشرك بالمسيح والعزيز وغيرها عند قبورهم، ولهذا قال النبي صلى الله عليه وسلم " لاَ تُطْرُونِي كَمَا أَطْرَتِ النَّصَارَى ابْنَ مَرْيَمَ فَإِنَّمَا أَنَا

(1) مجموع الفتاوي(123/27).
(2) الفتاوي الكبرى(441/2).
(3) مجموع الفتاوي(31/27).

عَبْدُهُ، فَقُولُوا: عَبْدُ اللَّهِ وَرَسُولُهُ " أخرجاه في الصحيحين، وقال: " اللَّهُمَّ لا تَجْعَلْ قَبْرِي وَثَنًا يُعْبَدُ "، وقال " لَعَنَ اللَّهُ الْيَهُودَ، وَالنَّصَارَى اتَّخَذُوا قُبُورَ أَنْبِيَائِهِمْ مَسْجِدًا" يُحَذِّرُ مَا صَنَعُوا " [1].

ويقول: (وأما الزيارة البدعية وهي زيارة أهل الشرك من جنس زيارة النصارى الذين يقصدون دعاء الميت والاستعانة به وطلب الحوائج عنده فيصلون عند قبره ويدعون به فهذا ونحوه لم يفعله أحد من الصحابة ولا أمر به رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا استحبه أحد من سلف الأمة وأئمتها بل قد سد النبي صلى الله عليه وسلم باب الشرك، ففي الصحيح أنه قال في مرض موته: " لَعَنَ اللَّهُ الْيَهُودَ، وَالنَّصَارَى اتَّخَذُوا قُبُورَ أَنْبِيَائِهِمْ مَسْاجِد يُحَذِّرُ مَا صَنَعُوا " [2].

4- أنه يجب الاستمساك بالأصل ما لم ينقل عنه ناقل صحيح (وأصل هذا الباب أنه ليس في شريعة الإسلام بقعة تقصد لعبادة الله فيها بالصلاة والدعاء والذكر والقراءة ونحو ذلك إلا مساجد المسلمين ومشاعر الحج، وأما المشاهد التي على القبور سواء جعلت مساجد أو لم تجعل أو المقامات التي تضاف إلى بعض الأنبياء والصالحين أو. فهذه لم يشرع السفر إليها لزيارتها.)[3].

هذه الملاحظات تنتج الآتي:

1- أن الذين خاضوا في حق شيخ الإسلام بسبب موقفة هذا من البدع التي اكتنفت الزيارة قد أساءوا الظن به، وأكثروا عليه، وأخطأوا فهم مراده، فهو لم يحرم الزيارة، كيف وهو القائل: (وأما من سافر إلى مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم ليصلي فيه ويسلم على النبي صلى الله عليه وسلم وصاحبيه رضي الله عنه فمشروع كما ذكر باتفاق العلماء)[4].

وإنما حرم شد الرحال لمجرد زيارة القبر الشريف، وهو لم يخص قبر رسول الله صلى الله عليه وسلم وإنما تناول في حديثه قبور الأنبياء والصالحين وجميع البقاع التي تزار وتقصد، وهو كذلك لم يخص مسألة شد الرحال كبدعة من البدع التي اكتنفت الزيارة وإنما تكلم عن جميع البدع المستحدثة

(1) مجموع الفتاوي(333/1).
(2) مجموع الفتاوي(327/24).
(3) الفتاوي الكبرى(441/2).
(4) مجموع الفتاوي(205/27).

في شأن الزيارة كالتمسح بالأضرحة، والاستغاثة بأصحابها والاستشفاع بهم. إلخ) ثم هو قد أنطلق من معالجة واقع منحرف ينذر بضياع التوحيد وانهيار بنيان العقيدة بسبب غلو بعض الناس في القبور، وسار على سنن الشرع في سد الذرائع المفضية للشرك وحماية جناب التوحيد، وتمسك بالأصل العام وبما كان عليه سلف الأمة الكرام.

فلا يصح لأحد أن يتهمه بأنه ينتقص رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أو أنه لا يحب للمسلمين أن يزوروا نبيهم ولا أن يصلوه، ولا أنه يدعو إلى قطع الصلة بين المسلمين ونبيهم، وغير ذلك من الاتهامات التي لا دليل عليها.

وكذلك لا يجوز للدكتور صبيح أن يشن غارته المحمومة، ويرمي شيخ الإسلام بهذا الكلام الذي يشبه نواح المستأجرة: (ادعى ابن تيمية أنه لا يجوز شد الرحال لك يا رسول الله صلى الله عليه وسلم وأن الصحابة استغنوا عن السلام عليك وأنهم تركوك هملا، يزورون آباءهم ولا يزوروك. وكأن ابن تيمية يقول لرسول الله صلى الله عليه وسلم : السفر لك أنت لا، أما المسجد حيطان وأبواب وحصر وسجاجيد فنعم، أما لك فسأجعل أمتك تتشكك في زيارتك، وسأحرمهم من بركتك.وسأكسب كل يوم رجالا وخاصة عند آخر الزمان.ويخرج نشء صغير. شيوخهم ليس لهم هم إلا التكفير.)(1) "ابن تيمية يقلل من جناب النبي صلى الله عليه وسلم .وكأنه بينه وبين النبي صلى الله عليه وسلم وأهل بيته ثأرا"(2).

إلى غير ذلك من الكلام الساقط الصغير الذي لا يعلق بالعلوم إلا كعلوق الغبار الحقير بأثواب الحرير.

2-النتيجة الثانية هي رجحان رأي شيخ الإسلام وغيره ممن قال بمنع شد الرحال إلى غير المساجد الثلاثة، لقوة الأدلة من السنة الصحيحة ومن رعاية مقاصد الشرع الشريف، ومن اعتبار المصلحة الظاهرة في سد الذرائع المفضية إلى عبادة قبور الأنبياء والصالحين، لاسيما وقد ظهرت في

(1) أخطاء ابن تيمية(ص157).
(2) السابق (ص69).

الأزمان الأخيرة مظاهر كثيرة للشرك الذي جاء الإسلام بهدمه.

وعليه فلا يصح أن تقابل هذا الأدلة القوية بمرويات لا تنهض مهما كثرت لمناطحة النصوص الصحيحة الصريحة المرفوعة إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، من مثل ما أورده صاحب: (شبهات إنكار زيارة قبور الأنبياء الصالحين والرد عليها). من ذلك: "عن الحسن البصري قال: وقف حاتم الأصم على قبره صلى الله عليه وسلم فقال: يا رب إنا زرنا قبر نبيك فلا تردنا خائبين، فنودي: يا هذا ما أذنا لك في زيارة قبر حبيبنا إلا وقد قبلناك، فارجع أنت ومن معك من الزوار مغفوراً لكم)[1].

"وقال ابن أبي فديك: سمعت بعض من أدركت من العلماء و الصلحاء يقول: بلغنا أن من وقف عند قبر النبي صلى الله عليه وسلم فقال هذه الآية ﴿ **إِنَّ اللَّـــهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ ۚ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا** ﴾ [الأحزاب: 56]؛ وقال: صلى الله عليك يا رسول الله، حتى يقولها سبعين مرة، ناداه ملك صلى الله عليك يا فلان، و لم تسقط لك حاجة"[2].

ومن مثل استدلالات صبيح الغريبة التي سنأتي عليها بعد قليل فكل هذه المرويات لم تنتهض لدفع ما استدل به شيخ الإسلام رحمه الله فيجب على الأمة أن نترجم عليه لحرصه على الذب عن العقيدة وتفي الخبث عنها، ولا أرى الذين يخوضون في حقه إلا في موقف مشين.

والآن نتعرض لاستدلالات الدكتور صبيح على خلاف ما ذهب إليه شيخ الإسلام، وإن كانت في حقيقة الأمر لا تستحق الالتفات: من هذه الاستدلالات أنه أورد حديث موسى عليه السلام وملك الموت، وفيه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "فَلَوْ كُنْتُ، ثَمَّ لَأَرَيْتُكُمْ قَبْرَهُ إِلَى جَانِبِ الطَّرِيقِ عِنْدَ الْكَثِيبِ الْأَحْمَرِ"[3].

ثم علق قائلا: (ووجه الدلالة أنه لو كان معرفة قبر موسى عليه السلام ليس لها فائدة ما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم "فلو كنت عنده لأرتبكم قبره" والنبي صلى الله عليه وسلم لا

---

(1) (ص132).

(2) (ص132).

(3) رواه البخاري(1260)، ومسلم (4379)، وأحمد في المسند (7974)، وابن حبان في صحيحه (6359)"صحيح".

يدل أمته إلا على ما فيه الخير والصلاح)[1].

وحسب الدكتور صبيح أن هذا وجه دلالة، وتصور أن الرسول صلى الله عليه وسلم دل أمته على قبر موسى ليزوروه ويشدوا الرحال إليه، وهذا فهم عليل، لأن قول النبي صلى الله عليه وسلم "فلو كنت عنده لأرتبكم قبره"، ليس إلا مجرد تصديق لاستجابة الله عز وجل دعوة موسى عليه السلام، عندما سأل الله عز وجل أن يدنيه من الأرض المقدسة رمية بحجر، مثلما تحكي حكاية فيها لون من الغرابة لدى السامع ثم نقول لو أننا هناك لأريتك كذا كذا.

ومن هذه الاستدلالات العجيبة أنه أورد حديث الإسراء والمعراج في صحيح مسلم عن ثابت البناني عن أنس مرفوعا: "أتيت – وفي رواية– مَرَرْتُ عَلَى مُوسَى لَيْلَةَ أُسْرِيَ بِي، عِنْدَ الْكَثِيبِ الْأَحْمَرِ، وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي قَبْرِهِ "[2]، واستدل به على أن رسول الله صلى الله عليه وسلم شد الرحال إلى قبور الأنبياء ومن ثم يكون شد الرحال إلى قبورهم وقبور الصالحين مشروع ومستحب)[3].

ونسي فضيلة الدكتور أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يشد رحاله في رحلة الإسراء والمعراج لزيارة قبر موسى عليه السلام، وإنما مر به مرورا، أما السفر وشد الرحال فكان إلى المسجد الأقصى، والآية الكريمة حددت غاية سفره صلى الله عليه وسلم : ﴿ **سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى** ﴾ [الإسراء: 1].

ومن استدلالاته التي تثير الغثيان أنه أورد حديث نـــزول عيسى عليه السلام، وفي إحدى رواياته (ثم لئن قام على قبري فقال يا محمد لأجبته)، ثم علق قائلا: "ومعنى ذلك أن نبي الله عيسى عليه السلام

---

(1) أخطاء ابن تيمية (ص186).

(2) رواه مسلم (4383)، والنسائي في الكبرى (1310)، وأحمد في المسند (12267)، والطبراني في الأوسط (8017)، وابن أبي شيبة في المصنف (34838)، وأبويعلى في مسنده (3276)، والطحاوي في مشكل الآثار (4405)، وأبو نعيم في الحلية (8709)، والبيهقي في دلائل النبوة (703) "صحيح".

(3) السابق(ص185).

سيسأل النبي صلى الله عليه وسلم والنبي صلى الله عليه وسلم سيجيبه، ويرد عليه"[1].

ثم أخذ يورد معاني الإجابة من كتب المعاجم ليستدل بها على أن قول النبي صلى الله عليه وسلم "لأجيبه"يستلزم أن ما صدر من موسى كان دعاءً عند القبر! من ذلك ما جاء في التعاريف: "الإجابة موافقة الدعوة فيما طلب بها".

ويا لها من جرأة! جعلت صاحبها يتجاهل أن هذا المعنى الذي أورده هو واحد فقط من معاني الإجابة، وأن من معانيها ما جاء في لسان العرب، وأورده هو في نفس الصفحة التي أورد فيها المعنى السابق، ولكن لم يعول عليه، وهو أن "الإجابة رجع الكلام"وهذا هو المعنى الذي يتعين حمل الكرم عليه، تنــزيها للرسل الكرام عن الشرك بالله العظيم الذي قال: ﴿ **وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ** ﴾ [الزمر: 65].

وعلى مدى إحدى عشرة صفحة من كتابه السيئ "أخطاء ابن تيمية"، وأورد عشرات الأخبار والآثار التي ظن أنها ستدعم ما ذهب إليه من (الآراء!) وسوف أسوق بعضها؛ لا للرد عليها- فهي لا تستحق الرد – وإنما ليعرف القرئ كيف يستدل سعادة (المؤلف!) :

"الطبراني في المعجم الأوسط 202/3، حدثنا إبراهيم قال حدثنا مرار بن حموية الهمداني قال حدثني يحيى بن سعيد أبو زكريا المدني حافظ قبر الرسول صلى الله عليه وسلم قال حدثني محمد بن صالح.الخ"1هـ.

"كتاب الزهد لابن أبي عاصم369/1، حدثنا عبد الله بن أحمد أخبرت عن عبد الله من المبارك أن امرأة قالت لعائشة رحمها الله: اكشفي لي عن قبر رسول الله صلى الله عليه وسلم فكشفت لها عنه، فبكت حتى ماتت ".

"التمهيد لابن عبد البر229/12، لما توفي رسول الله صلى الله عليه وسلم بقى فضل قبره ومسجده، والمدينة لا ينكر فضلها".

"حلية الأولياء 262/9، قال أبو سليمان الداراني: لما حج أويس دخل المدينة فلما وقف على

(1) أخطاء ابن تيمية(ص186).

باب المسجد قيل له: هذا قبر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال: فغشي عليه، فلما أفاق قال: أخرجوني فليس بلادي بلداً محمد صلى الله عليه وسلم في مدفون".

"مشاهير علماء الأمصار لابن حيان 3/1، الصقع الأول: قال الإمام أبو حاتم (ابن حبان) رحمه الله: نبدأ من هذا الصقيع بالمدينة لأنها مهبط الوحي، ومعدن الرسالة، وبها صلى الله عليه وسلم كثيراً، ومنها انتشر الإسلام وظهر أعلام الدين وبها قبر رسول الله صلى الله عليه وسلم وضجيعيه أبي بكر وعمر" إلى غير ذلك من الأقوال الكثيرة[1] التي حشا بها الصفحات والتي ليس فيها خبر واحد يمت بأدنى صلة إلى ما أثاره من قضايا باطلة، كمشروعية شد الرحال إلى قبور الأنبياء والصالحين، ومشروعية الاستغاثة بهم والدعاء وغير ذلك.

وظن الدكتور صبيح أنه يستطيع الرد على أدلة شيخ الإسلام؛ فاندفع نحوه وجعل يناقشه ويتطاول عليه قائلا: "فإن استدل بقول رسول الله صلى الله عليه وسلم "اللَّهُمَّ لا تَجْعَلْ قَبْرِي وَثَنًا يُعْبَدُ" قلنا له هذا يدل على الغشاوة والعمى، فإن دعاء الأنبياء مستجاب بإجماع الأمة".وحتى ابن تيمية لا يجادل في أن دعاءهم مستجاب، فلا خوف من الزيارة"!!.

نقول نعم..دعوة الأنبياء مستجابة لا شك في ذلك وقد هيأ الله تعالى لحماية قبر نبيه من هذا المصير الأليم من يهشون عنه جهالات الجهلاء واندفاعات الحمقى، وينفون عنه ما يثيره المتنطعون الغلاة من سخافات وانحرافات وضلالات، وكان في مقدمة هؤلاء العلماء الربانيين الذين يحفظ الله بهم الملة، شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله، والشيخ محمد بن عبد الوهاب رحمه الله وغيرهما من العلماء الذي ينفون عن دين الله تحريف الغالين وانتحال المبطلين وتأويل الجاهلين، وبهم حفظ الله دينه، وحفظ كذلك قبر نبيه صلى الله عليه وسلم من أن يصير وثنا يعبد، وسوف تستمر مسيرة الدفاع عن السنة والذب عن القبر الشريف، تحقيقا لدعوة النبي صلى الله عليه وسلم " اللَّهُمَّ لا تَجْعَلْ قَبْرِي وَثَنًا يُعْبَدُ ".

ثم انظر إليه وهو يرد استدلال شيخ الإسلام بحديث " لاَ تَتَّخِذُوا قَبْرِي عِيدًا "فيقول "فمعناه – كما

(1) كتاب أخطاء ابن تينمية (ص61:72).

يعلمه الأطفال– هو ما يحدث في الأعياد من اللهو واللعب"[1].

أقول: هذا ما يعلمه الأطفال عن الأعياد، فإن كان الدكتور صبيح مكتفيا بهذا المعنى فهذا شأنه، وليس له أن يحمل الناس على ما اكتفى به.

ولقد أكثر الدكتور صبيح من نقل روايات ومواقف وأحداث وأقوال وقصص وحكايات، وشق على نفسه في استخراج مالا طائل منه، ومالا يمكن أن تدفع به الأدلة الثابتة من السنة الصحيحة ومن مقاصد التشريع، فباء بعد الكد الفظيع بالفشل الذريع، وهذا ما جناه على نفسه، وما جنى أحد عليه.

وليته خرج بعد هذا سالما، بل عاد من رحلته البئيسة محملا بما لا تقدر على حمله الجبال الرواسي من ظلم وتجن على علم من أعلام الأمة الإسلامية، فنسأل الله العلى القدير أن يلهمه التوبة من ذلك الخوض الذي خاضه وذلك التجني الذي تحمله.

وهذا الضعف الظاهر والتهافت البين سمة عامة في كل استدلالات المتصوفة، ولم يوجد منهم في أي عصر من العصور من يستطيع أن يقيم على مسألة من مسائلهم التي خالفوا فيها السنة الصحيحة دليلا مقنعا، اللهم إلا الشبهات والترهات.

تأمل – على سبيل المثال –كيف يورد أحدهم إشكالا على حديث " لَعَنَ اللَّهُ الْيَهُودَ، وَالنَّصَارَى اتَّخَذُوا قُبُورَ أَنْبِيَائِهِمْ مَسْجِدًا"، ويعترض عليه بأن اليهود وصفوا ربهم بالنقائص وعصوا رسلهم وآذوهم وقتلوا بعضهم، فكيف يتصور منهم أن يتخذوا قبورهم مساجد[2].

سبحان الله، الحديث ثابت في الصحيحين، والنبي هو الذي أخبرنا بهذا، فلا شك في وقوع ما أخبر النبي صلى الله عليه وسلم به، أما كيف أنهم اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد وقد آذوهم من قبل، فهذا شأنهم في تناقضهم، وهذا ما فعله الشيطان معهم، وقد رأينا مثل هذا حدث في الأمة الإسلامية، فقد خذل الشيعة عليا رضي الله عنه والحسين رضي الله عنه ثم غلو فيهما بعد ذلك غلوا فاحشا،

(1) أخطاء ابن تيمية (ص184).

(2) انظر رسالة إعلام الراكع الساجد(ص61-65).

وسبوا من أجلهما صحابة النبي صلى الله عليه وسلم .

وتأمل أيضاً رد صاحب كتاب (إحياء المقبور): بعد أن ذكر العلة التي نص عليها العلماء من نهي النبي صلى الله عليه وسلم عن اتخاذ القبور مساجد وهي خوف الفتنة والشرك، قال "وإذا ثبت ذلك فالعلة المذكورة قد انتفت برسوخ الإيمان في نفوس المؤمنين وتنشئتهم على التوحيد الخالص. وبانتفاء العلة ينفي الحكم المترتب عليها وهو كراهة اتخاذ المساجد والقباب على قبور الأولياء والصالحين"(1).

هذا هو الفقه الذي يريد الرجل أن يغرضه على الناس: فويل للفقه – إذن – إن كان مثل هذا اللغو فقها.

إن العلة التي يقول إنها انتفت لم تنتف بعد، ولا يمكن أن تنتفي، لأن العلة هي حذف الوقوع في الشرك، وهي علة دائمة غير منقطعة، لأن الشيطان لا يفتر عن الإغواء، وإذا كان النبي صلى الله عليه وسلم قد نهي صحابته عن هذا، وهم أعلى الأمة إيمانا وأعظمها صلاحا وأبعدها عن فتنة الشيطان، فكيف بمن بعدهم، بل كيف بالأجيال المتأخرة التي فشا فيها الجهل؟!.

ثم إن هذا الحديث قد قاله رسول الله صلى الله عليه وسلم في مرضه الذي مات فيه، وقد اكتملت تربية الصحابة، واكتمل التشريع، و لم يعد شيء من أمر الدين خافيا، فهل يخشى على هؤلاء الصحابة الكرام ثم لا يخشى على من بعدهم؟!.

هذه هي الصوفية، وهذه هي أدلتها ومعتقداتها، ولا يجوز للمسلم إذا أنس من طائفة تهاونا في أمر العقيدة وتلاعبا بالنصوص وتحايلا على الشرع لا يجوز له أن يتبعهم ولا أن يعول علي أقوالهم، لأن الاقتداء عندئذ سيكون عن هوى، وكل ما كان عن هوى فهو مرفوض في دين الله غير مقبول عند الله.

---

(1) إحياء المقبور(ص19).

الفصل السادس

الموقف من الصوفية

اختلف الباحثون اختلافًا كبيرًا في منشأ تلك الفرقة المسماة بـــ (الصوفية) وذلك الاتجاه المسمى بـــ (التصوف)، فمنهم من يرى أن الصوفية لا علاقة لها بالإسلام، وأنها منتزعة من أفكار ومذاهب وأديان شتى، فللبوذية فيها نصيب، وللرهبنة فيها نصيب، وكذلك لليهودية وغيرها، ومنهم من قال إن التصوف وليد أفكار مختلطة من الإسلام والبوذية والمزدكية والمانوية والمجوسية واليهودية والنصرانية والفلسفات اليونانية والأفلوطينية وغيرها[1].

والصواب أن الصوفية نشأت في بدايتها كصورة من صور الزهد واشتهر من المتصوفة من أبناء الطبقة الأولى أعلام كبار، كالحارس المحاسبي والجنيد وغيرهما، عرفوا بالزهد والعبادة والورع، غير أن السف أنكروا عليهم شيئًا من التعمق والتشدد والوساوس التي لم يأمر بها الشارع[2]، ولم يؤثر عنهم تخليطًا في العقيدة، ولا تحريفًا في الشريعة، ولقد كان عبدالقادر الجيلاني الذي انغمس في الصوفية إلى النخاع سلفيًا على مذهب أحمد في الفقه والاعتقاد[3].

وظلت الصوفية على هذا النحو لا تثير قلقًا، سوى بعض الهواجس التي كانت تظهر وتختفي عند بعض العلماء النابهين أمثال أحمد رحمه الله الذي كان يرى أن فيها زيادة على ما كان عليه صحابة النبي صلى الله عليه وسلم ومن تلاهم من السلف، ولكن لم يمنعه هذا من تعظيمهم وإجلالهم.

من ذلك أنه ذات مرة ذكر في مجلسه معروف الكرخي، فقال بعض من حضره: هو قصير العلم، فقال أحمد: أمسك عافاك الله، وهل يراد بالعلم إلا ما وصل إليه معروف؟"[4] "وعن عبد الله بن أحمد قال: قلت لأبي: هل كان مع معروف شيء من العلم، فقال لي: يا بني، كان معه رأس

(1) انظر: التصوف المنشأ والمصادر (ص49).
(2) انظر: الصوفية نشأتها وتطورها (ص29).
(3) انظر: التصوف والاتجاه السلفي (ص20).
(4) طبقات الحنابلة (381/1).

العلم: خشية الله؟"(1).

تلك كانت المرحلة الأولى للصوفية "ثم جاءت المرحلة الثانية أو الطبقة الثانية، فمهدت للانحراف الكبير عندما تبنت مصطلحات خاصة بها، فيها إبهام وغموض؛ مما يسوغ تفسيرها كل حسبما يريده، وحسبما تملي عليه أهواؤه، ولم يعلموا أن من أسباب ضلال من ضل من الأمم السابقة هو عدم تحديد معاني بعض الكلمات تحديدًا دقيقا"(2).

ومع ظهور عصر الترجمة ودخول كثير من الفلسفات في حياة المسلمين ظهرت الطبقة الثالثة وبدأت المرحلة الثالثة للصوفية، وهي المرحلة التي شهدت تخليطًا شديدًا؛ مما أسس لفرقة لا تكاد تمت إلى الأوائل بصلة اللهم إلا الاسم وحسب، وإن كان في بعضهم خير إلا أن تيار الانحراف كان عارمًا، بحيث لم يترك فرصة لأي نبتة للخير تستقر على أرض الصوفية.

ولأجل هذا الاختلاف بين المتقدمين منهم والمتأخرين وجدنا العلماء المنصفين يفرقون في الحكم بين هؤلاء وهؤلاء، وكان على رأس المنصفين من علماء الأمة شيخ الإسلام وتلميذه ابن القيم رحمهما الله تعالى، فبرغم هذه الحملة الشديدة التي شنتها مدرسة ابن تيمية على الصوفية لم نجد تعميمًا للحكم ولا غمطًا لحق السابقين الأوائل من الصوفية.

يقول ابن تيمية رحمه الله: "تنازع الناس في طريقهم، فطائفة ذمت الصوفية والتصوف وقالوا أنهم مبتدعون خارجون عن السنة، ونقل عن طائفة من الأئمة في ذلك من الكلام ما هو معروف، وتبعهم على ذلك طوائف من أهل الفقه والكلام، وطائفة غلت فيهم وادعوا أنهم أفضل الخلق وأكملهم بعد الأنبياء، وكلا طرفي هذه الأمور ذميم، والصواب أنهم مجتهدون في طاعة الله كما اجتهد غيرهم من أهل الطاعة ففيهم السابق المقرب بحسب اجتهاده وفيهم المقتصد الذي هو من أهل اليمين. ومن المنتسبين إليهم من هو ظالم لنفسه عاص لربه، وقد انتسب طوائف من أهل البدع والزندقة، ولكن عند المحققين من أهل التصوف ليسوا منهم، كالحلاج مثلاً، فإن أكثر مشايخ الطرق أنكروه

---

(1) طبقات الحنابلة (381/1).

(2) الصوفية نشأتها وتطورها (ص31).

وأخرجوه عن الطريق مثل الجنيد بن محمد سيد الطائفة"[1].

ثم تأمل حكمه على تفسير أبي عبد الرحمن السلمي، الذي فيه فضيلة الشيخ محمد حسين الذهبي: "له كتاب يقال له حقائق التفسير، وليته لم يصنفه؛ فإنه تحريف وقرمطة، ودونك الكتاب فسترى العجب"[2].

يقول ابن تيمية رحمه الله عن هذا الرجل وعن كتبه: "وكان الشيخ أبو عبد الرحمن رحمه الله فيه من الخير والزهد والدين والتصوف ما يحمله على أن يجمع من كلام الشيوخ والآثار التي توافق مقصودة كل ما يجده، فلهذا يوجد في كتبه من الآثار الصحيحة والكلام المنقول ما ينتفع به في الدين، ويوجد فيها من الآثار السقيمة والكلام المردود ما يضر من لا خبرة له"[3].

ويقول عن كتاب إحياء علوم الدين للغزالي رحمه الله: "وأما ما في الإحياء من الكلام في المهلكات مثل الكلام على الكبر والعجب والرياء والحسد ونحو ذلك فغالبه منقول من كلام الحارس المحاسبي في الرعاية، ومنه ما هو مقبول، ومنه ما هو مردود، ومنه ما هو متنازع فيه، والإحياء فيه فوائد كثيرة، لكن فيه مواد مذمومة، فإنه فيه مواد فاسدة من كلام الفلاسفة تتعلق بالتوحيد والنبوة والمعاد. وفيه أشياء من أغاليط الصوفية وترهاتهم، وفيه مع ذلك من كلام المشايخ الصوفية العارفين المستقيمين في أعمال القلوب الموافق للكتاب والسنة من غير ذلك من العبادات والآداب ما هو موافق للكتاب والسنة ما هو أكثر مما يرد منه"[4]، والمتابع لأقوال ابن تيمية عن الغزالي رحمهما الله تعالى يجده رفيقًا لطيفًا في أغلب المواضع، ويستيقن "بأن دوره بإزاء آرائه كان قاصرًا على تنقيتها من الشوائب التي رآها "لا تستقيم مع الكتاب والسنة"[5].

ومن أقوال ابن تيمية أيضًا التي تدل على اعتداله وتجرده: "وهذه القصائد الملحنة والاجتماع

---

(1) مجموع الفتاوى (11/17-18).

(2) التفسير والمفسرون (2/386).

(3) مجموع الفتاوى (11/578).

(4)مجموع الفتاوى (10/551-552).

(5) ابن تيمية والتصوف (ص237).

عليها لم يحضرها أكابر الشيوخ كالفضيل بن عياض وإبراهيم بن أدهم والكرخي"[1].

ومنها قوله: "والثابت الصحيح عن أكابر المشايخ يوافق ما كان عليه السلف، وهذا هو الذي يجب أن يذكر، فإن في الصحيح المحفوظ عن أكابر المشايخ مثل الفضيل بن عياض وابي سليمان الداراني ويوسف بن أسباط وحذيفة المرعشي ومعروف الكرخي والجنيد بن محمد وسهل بن عبد الله التستري وأمثال هؤلاء ما يبين حقيقة مقالات المشايخ"[2].

وهذا الموقف المعتدل هو ذاته موقف الإمام ابن القيم رحمه الله، ويكفي في الدلالة على هذا أنه شرح كتاب الهروي رحمه الله (منازل السائرين) في كتابه المشهور (مدارج السالكين)، وقد اختلف معه في أشياء، ولكنه لم يغمطه حقه، انظر إليه وهو يقول عنه –وقد اختلف معه في مسألة– " ولا توجب هذه الزلة من شيخ الإسلام –أي: الهروي– إهدار محاسنه وإساءة الظن به، فمحله من العلم والإمامة والمعرفة، والتقدم في طريق السلوك المحل الذي لا يُجهل، وكل أحد مأخوذ من قوله ومتروك، إلا المعصوم محمد صلى الله عليه وسلم ، والكامل من عُدّ خطؤه، ولاسيما في مثل هذا الحال الضنك والمعترك الصعب الذي زلت فيه أقدام وضلت فيه أفهام"[3].

وانظر إليه وهو يقتبس من رأس من رؤوس الصوفية: "ومدار حسن الخلق مع الحق ومع الخلق على حرفين ذكرهما عبد القادر الكيلاني فقال: "كن مع الحق بلا خلق، ومع الخلق بلا نفس" فتأمل ما أجمل هاتين الكلمتين مع اختصارهما، وما اجمعهما لقواعد السلوك ولكل خلق جميل"[4].

وقد كان هذا الاعتدال في الحكم على الصوفية وإنصاف المشايخ السابقين الأولين منهم هو ديدن الحنابلة الكبار، برغم شدتهم على المبتدعة، فعلى سبيل المثال يقول ابن رجب عن الهروي: "وكان سيدًا عظيمًا وإمامًا عالمًا عارفًا، وعابدًا زاهدًا، ذا أحوال ومقامات وكرامات ومجاهدات، كثير السهر بالليل، شديد القيام في نصر السنة، والذب عنها، والقمع لمن خالفها، وجرى له بسبب

(1) مجموع الفتاوى (534/11).
(2) الاستقامة (81/1).
(3) مدارج السالكين (198/1).
(4) السابق (309/2).

ذلك محن عظيمة، وكان شديد الانتصار لمذهب أحمد"[1].

حتى أبناء الحركة الوهابية التي عرفت بشدها على الابتداع في مجال العبادة رأيناهم لا يظلمون القوم ولا يغمطونهم حقهم، فتأمل على سبيل المثال قول عبد الله بن الشيخ محمد بن عبد الوهاب رحمهما الله تعالى: "ولا ننكر الطريقة الصوفية، وتنـــزيه الباطن من الرذائل والمعاصي المتعلقة بالقلب والجوارح، ما استقام صاحبها على القانون الشرعي، والمنهج القويم المرعي".

ذلك هو موقف رموز السلفية من مشايخ الصوفية المعتدلين، أما موقفهم من المبتدعين فكان حازمًا وصارمًا، وهذا هو الواجب على كل عالم غيور على دين الله وعلى سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وصوفية اليوم غلب عليهم التأثر بأقوال المتأخرين، وإن كان القليل منهم يحاول التماس طرق الأوائل، ولكن الغالب عليهم هو التخليط، ومن تأمل أحوالهم وجد أن "منهم العوام الجهلة، الذين لا يعرفون إلا الأذكار الجماعية والتماس البركات من الشيخ، ومنهم الغلاة الذين يعتقدون بما يقوله ابن عربي وابن الفارض، ومنهم علماء في الفقه ولكنهم ينتسبون إلى طريق من الطرق المشهورة"[2].

لذلك وجب أن نبين المآخذ والمثالب التي نبه عليها العلماء حتى نكون على معرفة صحيحة بحال الصوفية.

مآخذ ومثالب الصوفية:

1- تبني مصطلحات مخترعة وغير محددة المعالم، ويمكن فهمها واستعمالها على غير ما أراد واصفوها، وهذا باب واسع من أبواب الانحراف، فما من طائفة وضعت مصطلحات فضفاضة إلا وكانت هذه المصطلحات سببًا في ضلالها وانحرافها، "وقد وقع الصوفية في هذه المشكلة، فتحدثوا عن الفناء والبقاء والصحو والمحو والتجريد والتفريد. إلى آخر هذه المخترعات، وهي ألفاظ مجملة تحتمل الحق والباطل"[3] لذلك أنكر عليهم السلف رضوان الله عليهم ذلك، فيقول الذهبي رحمه الله: "فإن

(1) الذيل على طبقات الحنابلة (50/1).
(2) الصوفية نشأتها وتطورها (ص96).
(3) الصوفية نشأتها وتطورها (ص32).

الفناء والبقاء من ترهات الصوفية، دخل من بابه كل إلحادي زنديق، وأراد قدماء الصوفية بالفناء نسيان المخلوقات وفناء النفس عن التشاغل بما سوى الله، ولا يسلم إليهم هذا أيضًا، بل أمرنا الله ورسوله بالتشاغل بالمخلوقات ورؤيتها والإقبال عليها وتعظيم خالقها"[1].

ولقد كان مصطلح الفناء أكبر المصطلحات أثرًا في الصوفية وكان كذلك أوسع الأبواب التي دخل منها الزنادقة والمبتدعون، برغم أن الشيخ عبد القادر الجيلاني قصد بها معنى في غاية الجمال، يقول رحمه الله معبرًا عن مقام الفناء "أُخرج من نفسك، وتنح عنها، وانعزل عن ملكك وسلم الكل لله"[2]. إلا أن هذا المعنى الجميل لم يعد موجودًا بعد ذلك، فقد أفرغ المصطلح المخترع من معناه وملئ أكثر من مرة بمعاني مخالفة للعقيدة، فبعد أن كان المراد به هو الفناء عن إرادة السوي، أي الفناء عن قصد ما سوى الله، صار يعنى الفناء عن شهود السوي، ثم أخيرًا الفناء عن وجود السوي، وهذا المعنى الثالث هو الذي مهد لظهور نظرية وحدة الوجود ونظرية الاتحاد والحلول عند زنادقة الصوفية "ومن المؤكد أن الشيخ -الجيلاني- لم يكن يتوقع أن أصحاب وحدة الوجود سيتخذونه سندًا لهم ومعقدًا لمذهبهم، فأوقع المدافعين عنه فيما بعد في حرج لهذا السبب"[3] ولا تزال الصوفية تخترع كل يوم مصطلحات جديدة، وهي لا تبالي بخطر هذه المصطلحات المخترعة المجملة.

2- أن الصوفية ابتدعت تقسيمًا لدين الله عز وجل كان سببًا عظيما من أسباب الشرود والضلال، فقد وضع الصوفية مصطلحى: الشريعة والحقيقة، وفرقوا بينهما، وكان الأوائل منهم يعنون بذلك أن الشريعة تقويم للظاهر وأن الحقيقة تقويم للباطن، ثم جاء من بعدهم واعتبروا الشريعة حظ العوام والحقيقة حظ الخواص، وزعموا أن من بلغ الحقيقة لم يلزمه الالتزام بالشريعة، وسموا الفقهاء علماء الرسوم وأفضى بهم هذا إلى التفريق بين ظاهر الشرع وباطنه، وبين ظاهر القرآن وباطنه، وسموا تفسيراتهم الباطنية إشارات وهذه بعض أقوالهم: "العلوم ثلاثة: ظاهر وباطن وباطن الباطن، كما أن الإنسان له ظاهر وباطن وباطن الباطن، فعلم الشريعة ظاهر، وعلم الطريقة باطن،

---

(1) سير أعلام النبلاء (3930/15).

(2) عن كتاب التصوف والاتجاه السلفي في العصر الحديث (ص36).

(3) السابق (ص6).

وعلم الحقيقة باطن الباطن"[1] "أهل الظاهر هم أهل الخبر واللسان، وعلماء الباطن هم أرباب القلوب والجنان، وعلم الظاهر حكم، وعلم الباطن حاكم، والحكم موقوف حتى يأتي الحاكم ويحكم فيه"[2] "سئل بعض العلماء عن علم الباطن أي: شيء هو فقال سر من سر الله سبحانه وتعالى يقذفه في قلوب عباده، لم يطلع عليه ملكًا ولا بشرًا"[3].

"وما خلق الله سبحانه وتعالى أشق ولا أشد من علماء الرسوم على أهل الله المختصين بخدمته العارضين به من طريق الوهب الإلهي الذين منحهم أسراره في خلقه وفهمهم معاني كتابه وإشارات خطابه، فهم لهذه الطائفة مثل الفراعنة للرسل"[4].

هذه التفرقة بين الحقيقة والشريعة تفرقة مخترعة "ولم يكن المسلمون في أول عهدهم بالإسلام ليقروا هذه التفرقة أو يفكروا فيها، ولكنها بدأت بالشيعة الذين قالوا إن لكل شيء ظاهرًا وباطنًا، وإن للقرآن ظاهرًا وباطنًا، بل إن لكل آية فيه وكل كلمة ظاهرًا وباطنًا، ينكشف الباطن للخواص من عباد الله الذين اختصهم الله بهذا الفضل. وقد اتبع الصوفية طريقة التأويل هذه واستعملوا أساليب ومصطلحات الشيعة إلى حد كبير، ومما سبق تدرك مبلغ الصلة الوثيقة بين التصوف والتشيع" وهذه الصلة بين التصوف والتشيع قبيحة من القبائح التي ينبغي أن نفردها بالحديث.

3- الصلة الوثيقة بين الفكر الصوفي والفكر الشيعي:

إنّ "المطلع على حقيقة مذاهب الصوفية وعلى حقائق مذاهب التشيع يجد أن المذهبين ينبعان من أصل واحد تقريبًا، ويهد فان في النهاية إلى غاية واحدة، ويشتركان في عامة العقائد والشرائع التي ينتحلها كل منهم"[5] و إنّ أوجه التلاقي بين الفرقتين كثيرة وكبيرة وجوهرية، وتعتبر شاهدًا قويا على الصلة الوثيقة بينهما، من هذه الأوجه ما يلي:

---

(1) الفتوحات الإلهية لابن عجينة، انظر الصوفية المنشأ والمصادر (ص245).
(2) قوت القلوب (158/1).
(3) السابق (120/1).
(4) الفتوحات المكية لابن عربي (279/1).
(5) الفكر الصوفي في ضوء الكتاب والسنة (ص391).

أ- أن كلا الفرقتين يبالغ في التشيع لآل البيت وفي الطعن على من خالفهما، ويغلون فيهم غلوًا كبيرًا، وأكثر الصوفية يقدمون الأئمة المنصوص عليهم عند الشيعة على سائر الأولياء.

ب- أن الإمامة عند الشيعة تقابلها الولاية عند الصوفية، وأن ما قاله الشيعة في أئمتهم قاله الصوفية في الأولياء.

جـ- أن كلا الفريقين قسم الدين إلى حقيقة وشريعة، وقسم النصوص إلى ظاهر وباطن، واتبع في تأويل القرآن الطريقة الباطنية التي تجعل لكل نص باطنًا يخالف ظاهره لا يدركه إلا الخواص أهل الحقائق.

د- ادعاء العلوم الخاصة، فالشيعة ادعوا أن عندهم مصادر للعلوم سوى الكتاب والسنة وكذلك الصوفية اعتمدوا على الكشف والإلهام والجميع يدعون أن عندهم من العلم ماليس عند أهل الرسوم وفقهاء الظاهر.

هـ- تقديس القبور والمشاهد والقباب، والغلو في الصالحين، والولع بالموالد، وما شابه ذلك من البدع القبورية التي انغمس فيها الفريقان إلى النخاع.

ويضاف إلى شهادة الواقع التي ذكرناها شهادة أخرى وهي شهادة التاريخ فإن كثيرًا من الباحثين أثبتوا أن أول ظهور لاسم الصوفية كان في الكوفة بلد التشيع وان الذين أطلق عليهم لقب الصوفية في بادئ الأمر كانوا من الشيعة وهم: عبدك الصوفي الشيعي وجابر ابن حبان الكيميائي المشهور وأبو هاشم الكوفي الذي اتهم بالدهرية والزندقة(1).

وقد شهد بهذا -في حق (عبدك)- واحد من الشيعة هو الدكتور قاسم غني، وكذلك شهد به بعض المستشرقين مثل (ما سينيون) (2).

4- فساد منهج التلقي:

أغلب الصوفية لا يعتدون بأصول التشريع عند أهل السنة، ولا يطمئنون إلى أدلة الكتاب

(1) انظر: الفكر الصوفي في ضوء الكتاب والسنة (ص389-391)، الصلة بين التصوف والتشيع للدكتور كامل مصطفي الشيبي (ص272)، والصوفية المنشأ والمصادر (ص138-139).
(2) انظر: الصوفية المنشأ والمصادر (ص139-143).

والسنة وما ينبثق عنهما، وإنما يتركون هذا كله لأهل (الرسوم!) ويقولون لهم: "أخذتم علمكم ميتًا عن ميت وأخذنا علمنا عن الحي الذي لا يموت، يقول أحدكم: حدثنا فلان عن فلان، وأين فلان؟ قالوا: مات، وأما أحدنا فيقول: حدثني قلبي عن ربي"(1)، وقد نسب الشعراني إلى أبي الفضل الأحمدي أنه قال: "لا تقطعوا بما علمتموه من الكتاب والسنة ولو كان حقًا في نفسه"(2).

وفي اعتقادهم أن المفتوح عليه من شيوخ الصوفية ليس بحاجة إلى دراسة العلم من الكتب، ولا حفظ المتون ولا الأسانيد؛ كيف "وكلام الحق سبحانه وتعالى يسمعه المفتوح عليه إذا رحمه الله عز وجل سماعًا خارقًا للعادة، فيسمعه من غير حرف ولا صوت، ولا إدراك لكيفية، ولا يختص بجهة دون جهة، بل يسمعه من سائر الجهات، بل ومن سائر جواهر ذاته، وكما لا يخص السماع جهة دون أخرى كذلك لا يخص جارحة دون أخرى، يعني أنه يسمعه من جميع جواهره وسائر أجزاء ذاته"(3).

لأجل ذلك كان لهم مصادر للتلقي تختلف تمام الاختلاف عن مصادر التشريع الإسلامي المتفق عليها والمختلف فيها، وتتلخص هذه المصادر في الآتي:

أ- **الكشف**: وبه يتم الأخذ عن رسول الله صلى الله عليه وسلم مباشرة "ولا يعنون به الأخذ عن سنته المشرفة من الكتب المصنفة في ذلك كالصحاح والمسانيد. بل هذا خاص بأهل (الرسوم!)، أما الكمل فإنهم يجتمعون بالنبي صلى الله عليه وسلم يقظة بعد موته ويشافهونه بالخطاب ويشافههم النبي صلى الله عليه وسلم أيضًا ويسألونه عن الأحاديث التي وقع الطعن فيها من جهة طريقها وضعفها الحفاظ فيصححها لهم، بل ويردون عنه الأحاديث ويستمدون منه المعرفة والأحكام الشرعية والوقائع المستقبلية ويستشيرونه في كل الأمور."(4).

وقد يكون الكشف بالتلقي عن غير النبي صلى الله عليه وسلم ، يكون بالتلقي عن الخضر الذي

---

(1) ينسب هذا القول إلى أبي يزيد البسطامي، انظر: الفكر الصوفي في ضوء الكتاب والسنة (ص392)، والصوفية المنشأة والمصادر (ص188)، وانظر الإبريز للدباغ (ص276).

(2) طبقا الشواني (175/2).

(3) الإبريز للدباغ (ص147).

(4) المصادر العامة للتلقي عند الصوفية (ص187).

يعتقدون أنه حيٌّ، وقد صنف الصوفية في إثبات حياته واستمرارها مصنفات وذكروا فيها حكايات وحكايات "وقد استمدوا عنه الأحاديث النبوية باعتباره صحابيًا وتلقوا عنه أحكامًا شرعية وعلومًا لدنيه"[1].

كما قد يكون هذا الكشف بالإلهام والهواتف!.

ب– الذوق: وذلك بالتجلي الإلهي على مختلف درجاته، نقل الشعراني عن إبراهيم الدسوقي قوله: "ومقصودي لجميع أولادي أن يكونوا ذائقين لا واصفين، وأن يأخذوا العلوم من معادنها الربانية لا من الصدور والطروس فإن القوم إنما تكلموا عما ذاقوا"[2].

ج– الوجد: وهو عندهم مصدر للتلقي، حيث يتهيأ القلب لتلقي المعارف عن الرب إذا عظم شوقه ووجده "ويستعان لتحقيق الوجد بأنواعه الثلاثة بوسائل صناعية كالآت اللهو والطرب من الأوتار المصوتات ويصاحب ذلك أصوات القوالين بالأشعار المطربة الملحنة، فيكون لذلك تأثير على النفس، بسكرها أشد مما يصيب العقل من شراب الخمر في الكؤوس؛ فتستغويهم الشياطين بإلقاء ما قد يظنونه مكاشفات رحمانية، وعلومًا عرفانية ربانية حصلت في قلوبهم، يزعمون أنها حديثة العهد بربها، لا كعلوم أهل الرسوم متوارثة جيلاً بعد جيل وميتًا عن ميت"[3].

د– مصادر ثانوية أخرى مثل التلقي عن الأشياخ المقبورين، مثل أن "ينـــزل الملك على الوالي بالأمر والنهي"[4].

وقد اخترعوا نظرية الاتصال، واستغنوا بها تمامًا عن الاتصال برسول الله صلى الله عليه وسلم عن طريق سنته وشريعته، والاتصال عندهم نوعان:

الاتصال الكوني العام: ويكون هذا بما يعتقدونه من وحدة الوجود والحلول والاتحاد.

والاتصال الإنساني الخاص: وهذا له وسائله وهي التوبة والمجاهدة والملازمة للشيخ، وله

---

(1) السابق (ص189).

(2) طبقات الشعراني (172/1).

(3) المصادر العامة للتلقي عند الصوقية (ص197).

(4) الإبريز للدباغ (ص143).

مقدماته وهي: الحب والشوق والخوف، وله حالات وهي: الأنس والسكر والفناء، وله نتائج وهي الكرامات والعلم اللدني وإسقاط التكاليف.

وبسبب هذا المنهج الفاسد في التلقي وقع الصوفية في أخطاء جسيمة في العقيدة والعبادة وطريقة الزهد "وخاضوا في أسرار عظيمة ما معهم على دعواهم فيها سوى ظن وخيال".

5- فساد الاعتقاد:

من مظاهر فساد الاعتقاد عن الصوفية أنهم يعتقدون بوجود أقطاب وأبدال يتحكمون في العالم، وهم من الأولياء، ويغلون فيهم إلى حد أن أحدهم يقول: "رأيت وليًا بلغ مقامًا عظيمًا وهو أنه يشاهد المخلوقات الناطقة والصامتة، والوحوش والحشرات، والسماوات ونجومها والأرض، وكرة العالم بأسرها تستمد منه، ويسمع أصواتها وكلامها في لحظة واحدة، ويمد كل واحد بما يحتاجه، ويعطيه ما يصلحه، من غير أن يشغله هذا عن ذاك"(1).

ونسب الشعراني إلى الدسوقي أنه قال: "أنا كل ولي في الأرض خلعته بيدي. وأنا في السماء شاهدت ربي، وعلى الكرسي خاطبته، أنا بيدي أبواب النار أغلقتها، وبيدي جنة الفردوس فتحتها، من زارني أسكنته جنة الفردوس"(2).

ونسب الصيادي إلى الرفاعي أنه قال عن نفسه:

من لاذ فينا اكتفى من غيرنا أبدًا ... وجاء في ركننا بالأمن من ندم

فالجأ باعتاب عزتي والتمس مددي ... وطف ببابي وقف مستمطرًا نعمي

ولازم الذل في شطحاء منزلنا ... تنجو بهمتنا من حالة العدم(3)

ومن أعظم مظاهر هذا الفساد قولهم بوحدة الوجود، وهي نظرية كفرية فاسدة يترتب على القول بها أنه ليس موجود إلا الله، وأن كل ما نشاهده في الكون هو الله وأن الخالق هو المخلوق والمخلوق هو الخالق والعبد هو الرب والرب هو العبد، يقول الحلاج: "والحقيقة خليقة، دع الخليقة

(1) الإبريز للدباغ (13/2).

(2) طبقات الشعراني (18/1).

(3) قلادة الجواهر (ص233-234)، انظر: الرفاعية لعبد الرحمن دمشقية (ص129).

لتكون أنت هو أو هو أنت من حيث الحقيقة"[1].

ويقول أيضًا في أبيات يخاطب بها الله سبحانه وتعالى:

يا سرَّ سرٍّ يدق حتى ... يخفى على وهم كل حيّ
وظاهرًا وباطنًا تجلى ... لكل شيء بكل شيِّ
إن اعتذاري إليك جهل ... وعُظم شك وفرط عيّ
يا جملة الكل لست غيري ... فما اعتذاري إذا إلى[2]

ويقول ابن عربي في فتوحاته:

الرب حق والعبد حق ... يا ليت شعري من المكلف
إن قلت عبد فذاك ميت ... أو قلت رب أني يكلف[3]

وترتب على القول بهذه النظرية الفاسدة استواء الخير والشر، والجنة والنار، وموسى وفرعون، والمسلم والكافر، تأمل ماذا يقول ابن عربي:

بعد أن كنت قبل اليوم أكره صاحبي ... إذا لم يكن ديني إلى دينه داني
فأصبح قلبي قابلاً كل صورة ... فمرعى لغزلان ودير لرهبانِ
وبيت لأوثان وكعبة طائف ... وألواح توراة ومصحف قرآنِ
أدين بدين الحب أنى توجهت ... ركائبه فالحب ديني وإيماني[4]

ويقول أيضًا:

(1) الطواسين الحلاج (ص18).
(2) البدء والتاريخ للمقدس (91/5)، انظر: ابن تيمية والتصوف (ص239).
(3) الفتوحات المكية (2/1).
(4) ترجمان الأذواق لابن عربي (ص43-44).

فلم يبق إلا صادق الوعد وحــده وما لوعيد الحق عــين تعــاين

وإن دخلوا دار الشــقاء فــإنهم على لذة فيهــا نعــيم مبــاين

نعيم جنان الخلد فــالأمر واحــد وبينهما عنــد التجلــي تبــاين

يسمى عذابا من عذوبــة طعمــه وذاك له كالقشر والقشر صائن[1]

صـــــــــــــــائن[1]

ويقول الحلاج: "وما كان في أهل السماء موحد مثل إبليس"[2] ويقول أيضًا: "فصاحبي وأستاذي إبليس وفرعون، إبليس هدد بالنار وما رجع عن دعواه. وإن قتلت أو صلبت أو قطعت يداي ورجلاي ما رجعت عن دعواي"[3].

6- ممارسة العبادة على طرق مبتدعة:

من ذلك الحلقات التي يسمونها حلقات الذكر، حيث يجتمعون على لون من الذكر ابتدعوه، وقد بدأ بقصائد ترتل على نحو معين بلحن معين، ثم "تطور إلى ذكر الله بالرقص والدف والغناء، وعندما تقام الحضرة تبدأ التراتيل بذكر اسم الله المفرد (الله) بصوت واحد، ولكن عندما يشتد الرقص ويلعب الشيطان برءوسهم يرفعون عقيرتهم أكثر، ويتحول اسم الله إلى (هو) ثم لا تسمع بعدها إلا همهمة، وقد يجتمع مع هذا الصراخ والقفز في الهواء، ويجتمع أخلاط الناس من النساء والأولاد لرؤية هذا التراث الشعبي!"[4].

وصدق فيهم قول القائل:

ألا قل لهم قــول عبــد نصــوح وحق النصــيحة أن تســتمع

مــتى علــم النــاس في ديننــا بــأن الغنــا ســنة تتبــع

وأن يأكل المــرء أكــل الحمــار ويرقص في الجمع حــتى يقــع

(1) فصوص الحكم (94/1)، انظر: هذه هي الصوفية (ص119).
(2) الطواسين للحلاج (ص42).
(3) السابق (ص51-52).
(4) الصوفية نشأتها وتطورها (ص89-90).

وقــالوا ســكرنا بحــب الإلــه   وما أسكر القوم إلا القصــع[1]

ألا إنَّ "فاعل هذا مخطئ ساقط المروءة، والدائم على هذا الفعل مردود الشهادة في الشرع غير مقبول القول، ومقتضى هذا أنه لا تقبل روايته لحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا أخباره الدينية"[2].

7- أن لهم طريقة في الزهد غير مستقيمة، فيها شبه من الرهبنة ومن البوذية، وليست منتسبة إلى طريقة النبي محمد صلى الله عليه وسلم الذي أنكر على الثلاثة الذين تَقَالُّوا عبادته وقال: "**أَمَا وَاللَّهِ إِنِّي لأَخْشَاكُمْ لِلَّهِ وَأَتْقَاكُمْ لَهُ لَكِنِّي أَصُومُ وَأُفْطِرُ، وَأُصَلِّي وَأَرْقُدُ، وَأَتَزَوَّجُ النِّسَاءَ، فَمَنْ رَغِبَ عَنْ سُنَّتِي فَلَيْسَ مِنِّي**"[3] وليت هذا الانحراف كان يقع من بعضهم بصورة فردية وإنما كان الأشياخ يدعون المريدين إليه ويحثونهم عليه ويحبذونه لهم.

نقل الشعراني عن رباح بن عمرو القيس قوله: "لا يبلغ الرجل إلى منازل الصديقين حتى يترك زوجته كأنها أرملة، وأولاده كأنهم أيتام، ويأوي إلى منازل الكلاب"[4].

ونسب إلى مطرف بن عبد الله الشخير أنه قال: "من ترك النساء والطعام فلابد له من ظهور كرامة"[5].

وحكى عن ياقوت العرش أنه تزوج ابنة شيخه أبي العباس المرسي فمكثت عنده ثماني عشرة سنة لا يقربها حياءً من والدها ومنها، وفارقها بالموت وهي بكر"[6].

---

(1) إغاثة اللهفان لابن القيم (231/1).

(2) ذم ما عليه مدعو التصوف لابن قدامة المقدسي (ص6).

(3) رواه رواه البخاري(4702)، ومسلم (2492)، والنسائي في الكبرى (5145)، وأحمد في المسند (13274)، وابن حبان في صحيحه (321)، وعبدالرزاق في المصنف (10126)، وأبوعوانة في مسنده (3172)، والبيهقى في الكبرى (12502)"صحيح".

(4) طبقات الشعراني (34/1).

(5) السابق (34/1).

(6) الأخلاق المقبولية للشعراني (179/3).

وينسب صاحب اللمع إلى إبراهيم ابن أدهم أنه قال: "إذا تزوج الفقير فمثله مثل رجل قد ركب السفينة، فإذا ولد له ولد فقد غرق"[1] وذكر أيضًا عن أبي عبد الله الصبيحي أنه: "لم يخرج ثلاثين سنة من بيت من تحت الأرض"[2].

وربما فقد بعضهم عقله بسبب الرياضات المبتدعة والممارسات المصادمة للفطرة؛ لذلك قال الذهبي رحمه الله معلقًا على فقد ابن عطاء الآدمي البغدادي عقله ثماني عشرة عامًا: "ثبت الله عقولنا، فمن تسبب في زوال عقله بجوع ورياضة صعبة فقد عصى وأثم"[3].

8- تبني الخرافات والأساطير والحكايات التي يرفضها العقل السليم والذوق القويم، وهذه أمثلة متفرقة: يقول الشعراني: "ومنهم على أبو خوذة. وكانت خوذة سيدي على من الحديد، وكان زنتها قنطارًا وثلثًا، لم يزل حاملها ليلاً ونهارًا. وكان رضي الله عنه إذا رأي امرأة أو أمردًا راوده عن نفسه وحسس على مقعدته، سواء كان ابن أمير أو ابن وزير، ولو كان بحضرته والده أو غيره، ولا يلتفت إلى الناس"[4].

ويقول: "ومنهم سيدي يوسف العجمي الكوراني. ولقد وقع بصره يومًا على كلب فانقادت له جميع الكلاب. ووقع له مرة أخرى أنه خرج من خلوة الأربعين، فوقع بصره على كلب فانقادت له جميع الكلاب، وصار الناس يهرعون إليه في قضاء حوائجهم، فلما مرض ذلك الكلب اجتمع حوله الكلاب يبكون ويظهرون الحزن عليه، فلما مات أظهروا البكاء والعويل، وألهم الله بعض الناس فدفنوه، فكانت الكلاب تزور قبره حتى ماتوا"[5].

وحكى النبهاني عن الحمصاني قال: "وقفت أصلى في جامع المرأة، فدخل على رجل من الجند ومعه أمرد، وقصد به جهة المراحيض، فتشوشت في نفسي وقلت: ضاقت عليه الدنيا، وما وجد إلا

---

(1) اللمع للطوسي (ص265).
(2) السابق (ص500).
(3) سير أعلام النبلاء (153/14).
(4) طبقات الشعراني (135/2).
(5) طبقات الشعراني (66/2).

الجامع ؟ و لم أنطق بذلك، فقال لي إبراهيم المذكور -إبراهيم النبتيني- ما فضولك؟ وما أدخلك؟ يا كذا وكذا، وسبني وشتمني وقال: لا تتعرض، ومالك وذاك."[1].

وحكى أيضًا عن صوفي أسمه عبيد يقول إنه أحد أصحاب الشيخ حسين أبي علي، قال: "كان له خوارق مدهشة. دخل مرة الجعفرية فتبعه نحو خمسين طفلاً يضحكون عليه فقال: يا عزرائيل إن لم تقبض أرواحهم لأعزلنك من ديوان الملائكة، فأصبحوا موتى أجمعين، وقال له أحد القضاة: أسكت، فقال له: أسكت أنت، فخرس وعمى وصم، وسافر في سفينة فوحلت و لم يمكن تعويمها، فقال: اربطوها بخيط في بيضتي، ففعلوا، فجرها حتى خلصها من الوحل"[2].

إلى غير ذلك من الأساطير والخرافات التي تنفر منها العقول وتمجها الأذواق.

9- موقفهم من الجهاد:

لا شك أن الغرق في هذه البدع وهذه الخرافات يعد من أكبر الصوارف عن الجهاد؛ لذلك فإن "الصوفية بطبيعتها بعيدة عن فكرة الجهاد والقتال؛ لأنها تعتبر الرياضات الروحية هي الأصل والأساس، وهذه الرياضات لا تنتهي إلا إذا وصل أحدهم لمرحلة الفناء، وإذا فني فكيف يجاهد"[3].

هذه هي الصوفية؛ لذلك وقفت الأمة منها موقف المتوجس، ووقف العلماء منها موقف الرفض والإنكار؛ ولذلك نحن نرفضها، ولا نرضاها دينًا ولا منهجًا، أما ما كان عليه الزهاد الأوائل أمثال الجنيد وإبراهيم بن أدهم ومعروف الكرخي عبد القادر الجيلاني فنحن نقبله، ونعتبر أنهم ليسوا من الصوفية، أو أن صوفيتهم شيء وصوفية هؤلاء المخرفين شيء آخر، ولا شك أن خير الهدى هدي محمد صلى الله عليه وسلم ، وأن كل خير في إتباع من سلف وأن كل شر في ابتداع من خلف.

(1) جامع النبهاني (414/1).
(2) السابق (286/2).
(3) الصوفية نشأتها وتطورها (ص95).

الفصل السابع

شيخ الإسلام في سطور

ما كنت أتصور أن الاختلاف مع أحد من العلماء يمكن أن يصل إلى حد تعمد الحطِّ من شأنه والتشويه لصورته حتى قرأت هذين المؤلفين للدكتور صبيح، والحقيقة أن خبرتي في التعامل مع هذا النوع من (التأليف!) قليلة؛ لذلك كانت صدمتي شديدة عندما قرأت لهذا الرجل هذين الكتابين السيئين.

ولقد بالغ هذا الرجل في النيل من علم من أعلام أمتنا الكبار، وبذل وسعه في تشويه صورته وتلويث سمعته، وحاول مرارا إيهام القارئ أن شيخ الإسلام كان على سبيل والأمة كلها في عصره على سبيل آخر؛ ليضعه بين خيارين: إما أن يختار الأمة وإما أن يختار ابن تيمية، وردد مرارا أن علماء عصره قاموا عليه وكفروه.

مما دعاني إلى مراجعة ترجمة شيخ الإسلام[1]، لا للبحث عن مدى صحة هذا الكلام؛ فإن القارئ لكلام شيخ الإسلام لا يمكن أن يخطر بباله أن الأمة المهدية ستقف منه موقفا معاديا، وإنما لاستخراج ما كنت أتوقعه من المواقف والأقوال الشاهدة على بطلان مزاعم صبيح وغيره ممن يسيئون إلى العلماء الربانيين وهم لا يعلمون أنهم بهذه الإساءة لا يهدمون إلا أنفسهم.

وما وقعت عليه من أقوال العلماء المعاصرين لابن تيمية -رحم الله الجميع- أثلج صدري وأبهج نفسي، ليس فقط لما فيها من حسن الثناء عليه من الموافق والمخالف، وإنما كذلك لما تدل عليه من روح الحب والإخاء التي ظللت علماء أمتنا في سالف الدهر والتي نود أن تسود في هذا العصر.

واللافت للنظر أن أغلب الذين أثنوا عليه كانوا من الشافعية، ومن المعلوم أن أكثر الذين اختلفوا معه كانوا من الشافعية، وهذا معناه أن العلماء لم ينسوا أن الاختلاف العلمي لا يترتب عليه تساقط النجوم كما

(1) راجع ترجمة شيخ الإسلام في: البداية والنهاية (14/7-140)، وتذكرة الحفاظ1496، وذيل طبقات الحنابلة (2/87) وتاريخ ابن الوردي (2/206) وما بعدها، وخطط المقريزي (2/377) والوافي بالوفيات والدرر الكانة وغيرها إضافة إلى الرد الوافر والشهادة الزكية وغيرها.

قد يتصور أصحاب الصدور الضيقة.

وكان من هؤلاء المنصفين الكبار:

(الإمام محمد بن أبي بكر بن ناصر الدين الدمشقي الشافعي).

وهو الذي ألف في الذب عن ابن تيمية كتاب: (**الرد الوافر**).

الذي ذكر فيه ثناء أكثر من ستين عالما ممن عاصروا ابن تيمية، منهم من الشافعية: البقاعي وابن جماعة وابن شيخ الحزامين والحافظ المزّي والزبيدي وابن بكار النابلسي وعمر ابن حبيب وغيرهم ومن الحنابلة: ابن برديس وابن قدامة وابن شكر وابن رجب وابن شيخ السلامية وغيرهم، ومن الأحناف:ابن الحريري وابن المهندس وغيرهما ومن المالكية ابن دقيق العيد وغيره ومن الظاهرية أبو حيان ومن الصوفية ابن الصيرفي وابن السراج.

وقد كتب الإمام ابن حجر تقريظا على (الرد الوافر).

وصورته: الحمد لله وسلام على عباده الذين اصطفى، وقفت على هذا التأليف النافع والمجموع الذي هو للمقاصد التي جمع لأجلها جامع، فتحققت سعة اطلاع الإمام الذي صنفه وتضلعه من العلوم النافعة، بما عظمه من العلماء وشرفه. وشهرة إمامة الشيخ تقي الدين ابن تيمية أشهر من الشمس، وتلقيبه بشيخ الإسلام في عصره باق إلى الآن على الألسنة الزكية، ويستمر غدا كما كان بالأمس، ولا ينكر ذلك إلا من جهل مقداره وتجنب الإنصاف، فما أعظم غلط من تعاطى ذلك وأكثر عثاره. ولو لم يكن من الدليل على إمامة هذا الرجل إلا ما نبه عليه الحافظ الشهير علم الدين البرزالي في تاريخه أنه لم يوجد في الإسلام من اجتمع في جنازته مما اجتمع في جنازة الشيخ تقي الدين..ولقد قام على الشيخ تقي الدين جماعة من العلماء مرارا بسبب أشياء أنكروها عليه من الأصول والفروع، وعقد له بسبب ذلك عدة مجالس بالقاهرة وبدمشق، ولا يحفظ عن أحد منهم أنه أفتى بزندقته ولا حكم بسفك دمه مع شدة المتعصبين عليه حينئذ من أهل الدولة، حتى حبس بالقاهرة ثم بالإسكندرية، ومع ذلك فكلهم معترف بسعة علمه وكثرة ورعه وزهده ووصفه بالسخاء والشجاعة وغير ذلك من قيامه في نصرة الإسلام والدعاء إلى الله في السر والعلانية. والمسائل التي أنكرت عليه ما كان يقولها بالتشهي، وهذه تصانيفه

طافحة بالرد على من يقول بالتجسم، والتبري منه، ومع ذلك فهو بشر يخطىء ويصيب، فالذي أصاب فيه وهو الأكثر يستفاد منه ويترحم عليه بسببه، والذي أخطأ فيه لا يقلد فيه، بل هو معذور؛ لأن أئمة عصره شهدوا له بأن أدوات الاجتهاد اجتمعت فيه حتى كان أشد المتعصبين عليه والقائمين في إيصال الشر إليه وهو الشيخ كمال الدين الزملكاني شهد له بذلك، وكذلك الشيخ صدر الدين ابن الوكيل الذي لم يثبت لمناظرته غيره. ومن أعجب العجب أن هذا الرجل كان أعظم الناس قياما على أهل البدع من الروافض والحلولية والاتحادية، وتصانيفه كثيرة شهيرة وفتاويه في ذلك لا تدخل تحت الحصر. فيا قرة أعينهم إذا سمعوا بكفره، ويا سرورهم إذا رأوا من يكفر من لا يكفره. فالواجب على من تلبس بالعلم وكان له عقل أن يتأمل كلام الرجل من تصانيفه المشهورة أو من ألسنة من يوثق به من أهل النقل؛ فيرد من ذلك ما ينكر فيحذر منه على قصد النصح. ولو لم يكن للشيخ تقي الدين إلا تلميذه الشيخ شمس الدين ابن القيم الجوزية صاحب التصانيف النافعة السائرة التي انتفع بها الموافق والمخالف لكان غاية في الدلالة على عظم منــــزلته، فكيف وقد شهد له بالتقدم في العلوم والتمييز في المنطوق والمفهوم أئمة عصره من الشافعية وغيرهم فضلا عن الحنابلة. فالذي يطلق عليه مع هذه الأشياء الكفر أو على من سماه شيخ الإسلام لا يلتفت إليه ولا يعول في هذا المقام عليه، بل يجب رده عن ذلك إلى أن يراجع الحق ويذعن للصواب، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل وحسبنا الله ونعم الوكيل قال ذلك وكتبه أحمد بن أحمد بن علي بن محمد بن حجر الشافعي وذلك في يوم الجمعة تاسع ربيع الأول سنة خمس وثلاثين وثمانمائة[1].

وكتب كذلك الشيخ العيني صاحب تحرير الكلام وإمام الحنفية في زمانه تقريظا آخر، هذه صورته:. وبعد فإن مؤلف كتاب الرد الوافر قد جد في هذا التصنيف البديع الزاهر، وجلا بمنطقه السحار الرد على من تفوه بالإكفار لعلماء الإسلام والأئمة الأساطين والأعلام الذين تبوأوا الدار في رياض النعيم واستنشقوا رياح الرحمة من رب كريم، فمن طعن في واحد منهم أو نقل غير صحيح عنهم فكأنما نفخ في الرماد واجتنى من خرط القتاد ومن الشائع المستفيض أن الشيخ الإمام العالم

(1) الشهادة الزكية للإمام مرعي بن يوسف الكرمي (ص72) وما بعدها.

العلامة تقي الدين ابن تيمية من شم عرانين الأفاضل، ومن جم براهين الأماثل، الذي كان له من الأدب مآدب تغذي الأرواح ومن نخب الكلام له سلافة تهز الأعطان المراح، ومن ثمار أفكار ذوي البراعة طبعه المغلق في الصناعة الخالية عن وصمة الشناعة. فمن قال إنه كافر فهو كافر حقيق، ومن نسبه إلى الزندقة فهو زنديق، وكيف ذاك وقد سارت تصانيفه في الآفاق وليس فيها شيء مما يدل على الزيغ والشقاق، ولم يكن بحثه فيما صدر عنه في مسألة الزيارة والطلاق إلا عن اجتهاد سائغ بالاتفاق، والمجتهد في الحالتين مأجور ومثاب وليس فيه شيء مما يلام ويعاب، لكن حملهم على ذلك حسدهم الظاهر وكيدهم الباهر، وكفى للحاسد ذما آخر سورة الفلق في احتراقه بالقلق.

وقد كتب على بعض مصنفاته قاضي القضاة ابن الزملكاني رحمه الله:

مـــاذا يقـــول الواصـــفون لـــه	وصفاته جلت عـــن الحصـــر
هـــــو حجـــــة لله قـــــاهرة	هو بيننا أعجوبـــة الـــدهـــــر

أفلا تكفي شهادة هذا الحبر لهذا الإمام؟. فإذا كان كذلك كيف لا يجوز إطلاق شيخ الإسلام عليه؟[1].

وهذه قطوف من أقوال العلماء المعاصرين لشيخ الإسلام وشهاداتهم:

أولا: قطوف من ثنائهم على علمه وفهمه وفقهه وتفوقه في شتى الفنون:

قال الحافظ فتح الدين أبو الفتح ابن سيد الناس اليعمري المصري: وهو الذي حداني إلى رؤية الشيخ الإمام شيخ الإسلام تقي الدين أبي العباس أحمد بن عبد الحليم بن عبدالسلام ابن تيمية فألفيته ممن أدرك من العلوم حظا، وكاد أن يستوعب السنن والآثار حفظا. إن تكلم في التفسير فهو حامل رايته، أو أفتى في الفقه فهو مدرك غايته، أو ذاكر في الحديث فهو صاحب علمه وذو روايته، أو حاضر بالملل والنحل لم ير أوسع من نحلته في ذلك ولا أرفع من درايته، برز في كل فن على أبناء جنسه، ولم تر عين من رآه مثله، ولا رأت عينه مثل نفسه. كان يتكلم في التفسير فيحضر مجلسه

(1) الشهادة الزكية (ص75) وما بعدها.

الجم الغفير، ويردون من بحره العذب النمير، ويرتعون من ربيع فضله في روضة وغدير[1].

وقال الإمام الذهبي: قرأ القرآن والفقه وناظر واستدل وهو دون البلوغ، برع في العلم والتفسير وأفتى ودرس وله نحو العشرين، وصنف التصانيف وصار من أكابر العلماء في حياة شيوخه. وله المصنفات الكبار التي سارت بها الركبان، ولعل تصانيفه في هذا الوقت تكون أربعة آلاف كراس وأكثر. وفسر كتاب الله سبحانه وتعالى مدة سنين من صدره في أيام الجمع. وكان يتوقد ذكاء، وسماعاته من الحديث كثيرة، وشيوخه أكثر من مائتي شيخ. ومعرفته بالتفسير إليها المنتهى، وحفظه للحديث ورجاله وصحته وسقمه فما يلحق فيه. وأما نقله للفقه ومذاهب الصحابة والتابعين فضلا عن المذاهب الأربعة فليس له فيه نظير، وأما معرفته بالملل والنحل والأصول والكلام فلا أعلم له فيه نظيرا، ويدري جملة صالحة من اللغة وعربيته قوية جدا، ومعرفته بالتاريخ والسير فعجب عجيب.. وقال: جمعت مصنفات شيخ الإسلام تقي الدين أبي العباس أحمد بن تيمية رضي الله عنه فوجدته ألف مصنف، ثم رأيت له أيضا مصنفات أخر[2].

وقال ابن الزملكاني: قاضي القضاة كمال الدين الانصاري الشافعي- وهو الذي تولى مناظرة شيخ الإسلام ابن تيمية غير ما مرة ومع ذلك كان يعترف بإمامته ولا ينكر فضله ولا بره- قال مرة عن الشيخ تقي الدين: كان إذا سئل عن فن من العلم ظن الرائي والسامع انه لا يعرف غير ذلك الفن، وحكم أن أحدا لا يعرف مثله. وكان الفقهاء من سائر الطوائف إذا جلسوا معه استفادوا في مذاهبهم منه ما لم يكونوا عرفوه قبل ذلك، ولا يعرف أنه ناظر أحدا فانقطع معه ولا تكلم في علم من العلوم سواء كان من علوم الشرع أو غيرها إلا فاق فيه أهله والمنسوبين إليه. وكانت له اليد الطولي في حسن التصنيف وجودة العبارة والترتيب والتقسيم. لم ير من خمسمائة سنة احفظ منه.. وقد روى واشتهر وذكر وانتشر ما كتبه الشيخ كمال الدين ابن الزملكاني على كتاب بيان الدليل على بطلان التحليل تأليف ابن تيمية وهو ما نصه: من مصنفات سيدنا وشيخنا وقدوتنا الشيخ الإمام

(1) الرد الوافر(ص26).
(2) الرد الوافر(ص33).

العالم العلامة الأوحد البارع الحافظ الزاهد الورع القدوة الكامل العارف تقي الدين شيخ الإسلام، سيد العلماء وقدوة الأئمة الفضلاء، ناصر السنة قامع البدعة، حجة الله على العباد راد أهل الزيغ والعناد، أوحد العلماء العاملين آخر المجتهدين، أبي العباس أحمد بن عبد الحليم بن عبدالسلام ابن عبدالله ابن أبي القاسم بن محمد ابن تيمية الحراني، حفظ الله على المسلمين طول حياته وأعاد عليهم من بركاته، ثم ذكر أبياتا منها:

هو حجة لله باهرة ... هو بيننا أعجوبة الدهر

هو آية في الخلق ظاهرة ... أنوارها أربت على الفجر(1)

وقال ابن دقيق العيد قاضي قضاة المسلمين تقي الدين المالكي الشافعي: ما كنت أظن أن الله سبحانه وتعالى بقي يخلق مثلك.. لما اجتمعت بابن تيمية رأيت رجلا العلوم كلها بين عينيه يأخذ منها ما يريد ويدع ما يريد(2).

وقال أبو حيان الأندلسي ثم الغرناطي ثم المصري الظاهري: ما رأت عيناي مثل ابن تيمية، ثم مدحه على البديهة في المجلس:

لما اتينا تقي الدين لاح لنا ... داع إلى الله فرد ماله وزر

على محياه من سيما الألى صحبوا ... خير البرية نور دونه القمر

حبر تسربل منه دهره حبرا ... بحر تقاذف من أمواجه الدرر

قام ابن تيمية في نصر شرعتنا ... مقام سيد تيم إذ عصت مضر

فاظهر الحق إذ آثاره درست ... وأخمد الشر إذ طارت له شرر

كنا نحدث عن حبر يجيء فها ... أنت الإمام لذي قد كان ينتظر(3)

ينتظر(3)

وقال ابن فضل الله العمري الشافعي: هو البحر من أي النواحي جئته، والبدر من أي

(1) الرد الوافر (ص57).
(2) الرد الوافر(ص59).
(3) لرد الوافر(ص64).

الضواحي رأيته. وقال: رضع ثدي العلم منذ فطم، وطلع فجر الصباح ليحاكيه فلطم، وقطع الليل والنهار دائبين واتخذ العلم والعمل صاحبين؛ إلى أن آس السلف بهداه ونأى الخلف عن بلوغ مداه.

وثقف الله أمـــرا بـــات يكلـــؤه ... يمضي حساماه فيه السيف والقلـــم

بهمة في الثريـــا إثـــر أخمصـــها ... وعزمة ليس من عاداتها الســـأم

كان أمة وحده، وفردا حتى نـــزل لحده، أخمل من القرناء كل عظيم، وأخمد من أهل البدع كل حديث وقديم، ولم يكن منهم إلا من يجفل عنه إجفال لظليم، ويتضاءل لديه تضاؤل الغريم. قد كان بعض الناس لكن الحصباء من بعضها الياقوتة الحمراء. جاء في عصر مأهول بالعلماء، مشحون بنجوم السماء، تموج في جوانبه بحور خضارم، وتطير بين خافقيه نسور قشاعم، وتشرق في أنديته بدور دجنة، وتبرق في ألويته صدور أسنة؛ إلا أن شمسه طمست تلك النجوم، وفي بحره غرق تلك العلوم. ترد إليه الفتاوى فلا يردها، وتفد عليه من كل وجه فيجيب عنها بأجوبة كأنه كان قاعدا لها يعدها.

أبدا على طرف اللســـان جوابـــه ... فكأنما هي دفعة مـــن صـــيب

يغـــدو مســـاجله بغـــرة طـــامع ... ويروح معترفا بذلة مـــذنب[1]

وكان من بحور العلم، ومن الأذكياء المعدودين، والزهاد الأفراد، والشجعان الكبار، والكرماء الأجواد. أثنى عليه الموافق والمخالف، وسارت بتصانيفه الركبان، لعلها ثلاث مائة مجلد[2].

وقال الإمام عمر بن علي بن موسى البزار: ولقد كان إذا قرئ في مجلسه آيات من القرآن العظيم يشرع في تفسيرها فينقضي المجلس بجملته والدرس برمته وهو في تفسير بعض آية منها- وكان مجلسه في وقت مقدر بقدر ربع النهار- يفعل ذلك بديهة من غير أن يكون له قارئ معين يقرأ له شيئا معينا يبيته ليستعد لتفسيره، بل كان من حضر يقرأ ما تيسر[3]. ومن أعجب الأشياء في ذلك أنه في محنته محنته الأولى بمصر لما أخذ وسجن وحيل بينه وبين كتبه صنف عدة كتب صغارا وكبارا، وذكر فيها ما

(1) الرد الوافر (ص82) وما بعدها.

(2) تذكرة الحفاظ(1496-1497).

(3) الأعلام العلية(ص20).

احتاج إلى ذكره من الأحاديث والآثار وأقوال العلماء وأسماء المحدثين والمؤلفين ومؤلفاتهم، وعزا كل شئ من ذلك إلى ناقليه وقائليه بأسمائهم، وذكر أسماء الكتب التي ذكر فيها وأي موضع هو منها، كل ذلك بديهة من حفظه؛ لأنه لم يكن عنده حينئذ كتاب يطالعه، ونقبت واختبرت واعتبرت فلم يوجد فيها بحمد الله خلل ولا تغير، ومن جملتها كتاب الصارم المسلول[1]. سأله يهودي عن مسأله في القدر قد نظمها شعرا في ثمانية أبيات، فلما وقف عليها فكر لحظة يسيرة وانشأ يكتب جوابها وجعل يكتب ونحن نظن انه يكتب نثرا فلما فرغ تأمله من حضر من أصحابه وإذا هو نظم في بحر أبيات السؤال وقافيتها تقرب من مائة وأربعة وثمانين بيتا وقد ابرز فيها من العلوم ما لو شرح بشرح لجاء شرحه مجلدين كبيرين هذا من جملة بواهره وكم من جواب فتوى لم يسبق إلى مثله[2].

ثانيا: قطوف من ثنائهم على صفاته وشمائله وعظمة أخلاقه:

قال الإمام الذهبي: وأما شجاعته وجهاده وإقدامه فأمر يتجاوز الوصف ويفوق النعت. وهو أحد الأجواد الأسخياء الذين يضرب بهم المثل. وفيه زهد وقناعة باليسير في المأكل والملبس. وقال: وأما شجاعته فبها تضرب الأمثال، وببعضها يتشبه أكابر الأبطال. وكان قبجق يتعجب من إقدامه وجراءته على المغول، وله حدة قوية تعتريه في البحث حتى كأنه ليث حرب، وهو أكبر من أن ينبه مثلي على نعوته؛ فلو حلفت بين الركن والمقام لحلفت: إني ما رأيت بعيني مثله، ولا والله ما رأى هو مثل نفسه في العلم[3].

وقال ابن القيم: سمعت شيخ الإسلام ابن تيمية يقول: إن في الدنيا جنة من لم يدخلها لم يدخل جنة الآخرة. قال: وكان إذا صلى الفجر يجلس مكانه يذكر الله سبحانه وتعالى حتى يتعالى النهار جدا، وكان إذا سئل عن ذلك يقول هذه غدوتي، لو لم اتغدّ هذه الغدوة سقطت قواي. وكان يقول بالصبر واليقين تنال الإمامة في الدين. وكان يقول لا بد للسالك إلى الله سبحانه وتعالى من همة تسيره وترقيه، وعلم

(1) الأعلام العلية(ص22).
(2) الأعلام العلية(ص27).
(3) الرد الوافر(ص35).

يبصره ويهديه. وقال العارف يسير إلى الله عز وجل بين مشاهدة المنة ومطالعة عيب النفس[1].

وقال صاحب أبجد العلوم: وكان معظما لحرمات الله دائم الابتهال كثير الاستعانة قوي التوكل ثابت الجأش له أوراد وأذكار يديمها وله من الطرف الآخر محبون من: العلماء والصلحاء والجند والأمراء والتجار والكبراء وسائر العامة تحبه بشجاعته تضرب الأمثال وببعضها يتشبه أكابر الأبطال[2].

وقال الإمام عمر بن علي بن موسى البزار: وكان لا يذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم قط إلا ويصلي ويسلم عليه ولا والله ما رأيت أحدا اشد تعظيما لرسول الله صلى الله عليه وسلم ولا احرص على أتباعه ونصر ما جاء به[3]. أما تعبده رضي الله عنه فإنه قل أن سمع بمثله؛ لأنه كان قد قطع جل وقته وزمانه فيه، حتى أنه لم يجعل لنفسه شاغلة تشغله عن الله سبحانه وتعالى مما يراد له لا من أهل ولا من مال. وكان في ليله متفردا عن الناس كلهم خاليا بربه عز وجل ضارعا مواظبا على تلاوة القرآن العظيم مكررا لأنواع التعبدات الليلية، وكان إذا أحرم بالصلاة تكاد تتخلع القلوب لهيبة إتيانه بتكبيرة الإحرام، فإذا دخل في الصلاة ترتعد أعضاؤه حتى تميله يمنة ويسرة[4]. وكان رضي الله عنه في الغاية التي ينتهي إليها في الورع. ولم يكن يقبل جراية ولا صلة لنفسه من سلطان ولا أمير ولا تاجر، ولا كان مدخرا دينارا ولا درهما ولا متاعا ولا طعاما، وإنما كانت بضاعته مدة حياته وميراثه بعد وفاته رضي الله عنه العلم[5]. ولقد اتفق كل من رآه خصوصا من أطال ملازمته أنه ما رأى مثله في الزهد في الدنيا؛ حتى لقد صار ذلك مشهورا بحيث قد استقر في قلب القريب والبعيد من كل من سمع بصفاته على وجهها، بل لو سئل عامي من أهل بلد بعيد: من كان أزهد أهل هذا العصر وأكملهم في رفض فضول الدنيا وأحرصهم على طلب الآخرة؟ لقال: ما سمعت بمثل ابن تيمية رحمة

(1) الرد الوافر(ص69).
(2) أبجد العلوم (132/3).
(3) الأعلام العلية (ص28).
(4) الأعلام العلية (ص36).
(5) الأعلام العلية (ص42).

الله عليه. وما اشتهر له ذلك إلا لمبالغته فيه مع تصحيح النية[1]. وحكى غير واحد ما اشتهر عنه من كثرة الإيثار وتفقد المحتاجين والغرباء ورقيقي الحال من الفقهاء والقراء واجتهاده في مصالحهم وصلاتهم ومساعدته لهم بل ولكل أحد من العامة والخاصة ممن يمكنه فعل الخير معه وإسداء المعروف إليه بقوله وفعله ووجهه وجاهه. وكان يتواضع للكبير والصغير والجليل والحقير والغني الصالح والفقير، وكان يدني الفقير الصالح ويكرمه ويؤنسه ويباسطه بحديثه المستحلى زيادة على مثله من الأغنياء، حتى أنه ربما خدمه بنفسه وأعانه بحمل حاجته؛ جبرا لقلبه، وتقربا بذلك إلى ربه[2]. ومن أظهر كراماته أنه ما سمع بأحد عاداه أو غض منه إلا وابتلي بعدة بلايا غالبها في دينه وهذا ظاهر مشهور لا يحتاج فيه إلى شرح صفته[3].

وكان يجاهد في سبيل الله بقلبه ولسانه ويده ولا يخاف في الله لومة لائم، وأخبر غير واحد أن الشيخ رضي الله عنه كان إذا حضر مع عسكر المسلمين في جهاد يكون بينهم، واقيتهم وقطب ثباتهم، إن رأى من بعضهم هلعا أو رقة أو جبانة شجعه وثبته وبشره ووعده بالنصر والظفر والغنيمة وبين له فضل الجهاد والمجاهدين وإنــزال الله عليهم السكينة، وكان إذا ركب الخيل يتحنك ويجول في العدو كأعظم الشجعان، ويقوم كأثبت الفرسان، ويكبر تكبيرا أنكى في العدو من كثير من الفتك بهم، ويخوض فيهم خوض رجل لا يخاف الموت. وحدثوا أنهم رأوا منه في فتح عكة أمورا من الشجاعة يعجز الواصف[4]. وحين وشي به إلى السلطان المعظم الملك الناصر محمد أحضره بين يديه، فكان من جملة كلامه: إنني أخبرت أنك قد أطاعك الناس وأن في نفسك أخذ الملك فلم يكترث به، بل قال له بنفس مطمئنة وقلب ثابت وصوت عال سمعه كثير ممن حضر: أنا أفعل ذلك؟ والله إن ملكك وملك المغل لا يساوي عندي فلسين؛ فتبسم السلطان لذلك وأجابه في مقابلته بما أوقع الله له

(1) الأعلام العلية (ص45-46).

(2) الأعلام العلية (ص50).

(3) الأعلام العلية (ص62).

(4) الأعلام العلية (ص67).

في قلبه من الهيبة العظيمة: إنك والله لصادق وإن الذي وشى بك إليّ لكاذب[1].

ثالثا: ذكرهم لوفاته وما كان في جنازته من شواهد على ولايته وقطوف من رثاء العلماء له:

قال ابن كثير: وفاة شيخ الإسلام أبي العباس أحمد بن تيمية قدس الله روحه. وقد اتفق موته في سحر ليلة الاثنين المذكورة يعني العشرين من ذي القعدة، فذكر ذلك مؤذن القلعة على المنارة، وتكلم بها الحراس على الأبرجة؛ فما أصبح الناس إلا وقد تسامعوا بهذا الخطب العظيم والأمر الجسيم؛ فبادر الناس على الفور إلى الاجتماع حول القلعة من كل مكان أمكنهم المجيء منه حتى من الغوطة والمرج، ولم يطبخ أهل الاسواق شيئا ولا فتحوا كثيرا من الدكاكين التي من شأنها أن تفتح أوائل النهار على العادة.. وفتح باب القلعة لمن يدخل من الخواص والأصحاب والأحباب، فاجتمع عند الشيخ في قاعته خلق من أخصاء أصحابه من الدولة وغيرهم من أهل البلد والصالحية، فجلسوا حوله يبكون ويثنون؛ على مثل ليلى يقتل المرء نفسه. وأخبر الحاضرين أخوه زين الدين عبد الرحمن انه قرأ هو والشيخ منذ دخلا القلعة ثمانين ختمة وشرعا في الحادية والثمانين فانتهيا فيها إلى آخر: "اقتربت الساعة" و "إن المتقين في جنات ونهر في مقعد صدق عند مليك مقتدر". وضج الناس بالبكاء والثناء والدعاء والترحم، ثم ساروا به إلى الجامع. ووضع الشيخ في موضع الجنائز مما يلي المقصورة وجلس الناس من كثرتهم وزحمتهم على غير صفوف بل مرصوصين رصا لا يتمكن أحد من السجود إلا بكلفة. وجاء الناس من كل مكان ونوى خلق الصيام لأنهم لا يتفرغون في هذا اليوم لأكل ولا شرب، وكثر الناس كثرة لا تحد ولا توصف.. والنساء فوق الاسطحة من هناك إلى المقبرة يبكين هذا العالم، وبالجملة كان يوما مشهودا لم يعهد مثله إلا أن يكون في زمن بني أمية حين كان الناس بها كثيرين. ولا يمكن لأحد حصر من حضر الجنازة. وعملت له ختمات كثيرة، ورؤيت له منامات صالحة عجيبة، ورثي بأشعار كثيرة وقصائد مطولة جدا، وقد أفردت له تراجم كبيرة وصنف في ذلك جماعة من الفضلاء[2].

---

(1) الأعلام العلية (ص72).

(2) الرد الوافر (ص92) وما بعدها.

رثاه الذهبي فقال:

يا موت خذ من أردت أو فدع	محـــوت رســـم العلـــوم والـــورع
أخذت شيخ الإسلام وانفصمت	عرى التقى واشتفى منه أولو البـــدع
غيبت بحـــرا مفســـرا جـــبلا	حـــبرا تقيـــا مجانـــب الشـــيع
فإن يحـــدث فمســـلم ثقـــة	وإن ينـــاظر فصـــاحب اللمـــع
وإن يخض نحو ســـيبويه يفـــه	بكـــل معـــنى مـــن الفـــن مخـــترع
وصار عالي الإسناد حافظـــة	كشـــعبة أوكســـعيد الضـــبعي
والفقه فيـــه فكـــان مجتهـــدا	وذا جهـــاد عـــار مـــن الجـــزع
وجـــوده الحـــاتمي مشـــتهر	وزهـــده القـــادري في الطمـــع
أســـكنه الله في الجنـــان ولا	زال عليـــا في أجمـــل الخلـــع
مع مالـــك الإمـــام وأحمـــد	والنعمـــان والشـــافعي والخلعـــي
مضى ابـــن تيميـــة وموعـــده	مع خصمه يـــوم نفخـــة الفـــزع(1)

ورثاه ابن الوردي فقال:

عثـــا في عرضـــه قـــوم ســـلاط	لهم من نثـــر جـــوهره التقـــاط
تقي الدين أحمـــد خـــير حـــبر	خروق المعضلات بـــه تخـــاط
تـــوفي وهـــو محبـــوس فريـــد	وليس له إلى الـــدنيا انبســـاط
ولو حضروه حين قضى لألفـــوا	ملائكة النعـــيم بـــه أحـــاطوا
قضى نحبـــا ولـــيس لـــه قـــرين	ولا لـــنظيره لـــف القمـــاط
فتى في علمـــه أضـــحى فريـــدا	وحل المشـــكلات بـــه ينـــاط
وكان إلى التقى يـــدعو البرايـــا	وينهي فرقة فســـقوا ولاطـــوا
وكان الجن تفرق مـــن ســـطاه	بوعظ للقلوب هـــو الســـياط

(1) الرد الوافر(ص36).

فيا لله ما قد ضم لحد ... ويا لله ما غطى البلاط
هم حسدوه لما لم ينالوا ... مناقبه فقد مكروا وشاطوا
وكانوا على طرائقه كسالى ... ولكن في أذاه لهم نشاط
وحبس الدر في الأصداف فخر ... وعند الشيخ بالسجن اغتباط
بآل الهاشمي له اقتداء ... فقد ذاقوا المنون ولم يواطوا
بنو تيمية كانوا فبانوا ... نجوم العلم أدركها الهباط
ولكن يا ندامة حابسيه ... فشك الشرك كان به يماط
ويا فرح اليهود بما فعلتم ... فإن الضد يعجبه الخباط
ألم يك فيكم رجل رشيد ... يرى سجن الإمام فيستشاط
إمام لا ولاية كان يرجو ... ولا وقف عليه ولا رباط
ولا جاراكم في كسب مال ... ولم يعهد له بكم اختلاط
ففيم سجنتموه وعظتموه ... أما لجزا أذيته اشتراط
وسجن الشيخ لا يرضاه مثلي ... ففيه لقدر مثلكم انحطاط
أما والله لولا كتم سري ... وخوف الشر لانحل الرباط
وكنت أقول ما عندي ولكن ... بأهل العلم ما حسن اشتطاط
فما أحد إلى الإنصاف يدعو ... وكل في هواه له انخراط
سيظهر قصدكم يا حابسيه ... وننبئكم إذا نصب الصراط
فما هو مات عنكم واسترحتم ... فعاطوا ما أردتم أن تعاطوا
وحلوا واعقدوا من غير رد ... عليكم وانطوى ذاك السباط[1]

ورثاه ابن فضل الله اليعمري:

(1) أبجد العلوم (135/3).

بر السوابق ممتد العبارة لا — يناله ملل فيها ولا ضجر

ولم يكن مثله بعد الصحابة في — علم عظيم وزهد ما له خطر

طريقة كان يمشي قبل مشيته — بها أبو بكر الصديق أو عمر

فرد المذاهب في أقوال أربعة — جاءوا على أثر السباق وابتدروا

لما بنوا قبله عليا مذاهبهم — بنى وعمر منها مثل ما عمروا

مثل الأئمة قد أحيا زمانهم — كأنه كان فيهم وهو منتظر

إن يرفعوهم جميعا رفع مبتدأ — فحقه الرفع أيضا إنه خبر

قالوا قبرناه قلنا إن ذا عجب — حقا الكوكب الدري قد قبروا

لم يبكه ندما من لا يصيب دما — يجري به ديما همي وتنهمر

لهفي عليك أبا العباس كم كرم — لما قضيت قضى من عمره العمر

سقى ثراك من الوسمي صيبه — وزار مفناك قطر كله قطر

يا وارثا من علوم الأنبياء نهى — أورثت قلبي نارا وقدها الفكر

يا واحدا لست أستثني به أحدا — من الأنام ولا أبقي ولا أذر

يا عالما بنقول الفقه أجمعها — أعنك تحفظ زلات كما ذكروا

كم من فتى جاهل غر أبنت له — رشد المقال زال الجهل والغرر

ما أنكروا منك إلا أنهم جهلوا — عظيم قدرك لكن ساعد القدر

قالوا بأنك قد أخطأت واحدة — وقد يكون فهلا منك تغتفر

ومن يكون على التحقيق مجتهدا — له الثواب على الحالين لا الوزر

ألم تكن بأحاديث النبي إذا — سئلت تعرف ما تأتي وما تذر

حاشاك من شبه فيها ومن شبه — كلاهما منك لا يبقى له أثر

عليك في البحث أن تبدي غوامضه. — وما عليك إذا لم تفهم البقر

قدمت لله ما قدمت من عمل — وما عليك بهم ذموك أو شكروا

هل كان مثلك من يخفى عليه هدى. ومن سمائك تبدو الأنجم الزهــر

وكيف تحذر من شيء تزل به أنــت التقــي فمــاذا الخــوف والحذر[1]

رابعا: كلام العلماء في أسباب محنته وقطوف من شهاداتهم على براءته وعلى دوافع الواقعين فيه:

قال ابن سيد الناس اليعمري: إلى أن دب إليه من أهل بلده داء الحسد، وأكب أهل النظر منهم على ما ينتقد عليه من أمور المعتقد، فحفظوا عنه في ذلك كلاما أوسعوه بسببه ملاما، وفوقوا لتبديعه سهاما، وزعموا أنه خالف طريقهم وفرق فريقهم؛ فنازعهم ونازعوه وقاطع بعضهم وقاطعوه، ثم نازع طائفة أخرى ينسبون من الفقر إلى طريقة، ويزعمون أنهم على أدق باطن منها وأجلى حقيقة، فكشف تلك الطرائق وذكر لها على ما زعم بوائق؛ فآضت إلى الطائفة الأولى من منازعيه، واستعانت بذوي الضغن عليه من مقاطعيه، فوصلوا بالأمراء أمره وأعمل كل منهم في كفره فكره، فرتبوا محاضر وألبوا الرويبضة للسعي بها بين الأكابر، وسعوا في نقله إلى حاضرة المملكة بالديار المصرية؛ فنقل وأودع السجن ساعة حضوره، واعتقل، وعقدوا لإراقة دمه مجالس وحشدوا لذلك قوما من عمار الزوايا وسكان المدارس، من مجامل في المنازعة مخاتل بالمخادعة، ومن مجاهر بالتكفير مبارز بالمقاطعة، يسومونه ريب المنون، وربك يعلم ما تكن صدورهم وما يعلنون، وليس المجاهر بكفره بأسوأ حالا من المخاتل. وقد دبت إليه عقارب مكره؛ فرد الله كيد كل في نحره، ونجاه على يد من اصطفاه، والله غالب على أمره. ثم لم يخل بعد ذلك من فتنة بعد فتنة، ولم ينقل طول عمره من محنة إلا إلى محنة، إلى أن فوض أمره إلى بعض القضاة؛ فتقلد ما تقلد من اعتقاله. ولم يزل بمحبسه ذلك إلى حين ذهابه إلى رحمة الله تعالى وانتقاله، وإلى الله سبحانه وتعالى ترجع الأمور وهو المطلع على خائنة الأعين وما تخفي الصدور[2].

وقال الإمام الذهبي: ولقد نصر السنة المحضة والطريقة السلفية، واحتج لها ببراهين ومقدمات

---

(1) الشهادة الزكية (ص67).

(2) الرد الوافر (ص27) وما بعدها.

وأمور لم يسبق إليها، وأطلق عبارات أحجم عنها الأولون والآخرون، وهابوا وجسر هو عليها؛ حتى قام عليه خلق من علماء مصر والشام قياما لا مزيد عليه، وبدّعوه وناظروه وكاتبوه وهو ثابت لا يداهن ولا يحابي، بل يقول الحق المر الذي أداه إليه اجتهاده وحدة ذهنه وسعة دائرته في السنن والأقوال مع ما اشتهر منه من الورع وكمال الفكر وسعة الإدراك والخوف من الله العظيم والتعظيم لحرمات الله؛ فجرى بينه وبينهم حملات حربية، ووقعات شامية ومصرية. وكم من نوبة قد رموه عن قوس واحدة فينجيه الله تعالى؛ فإنه دائم الابتهال كثير الاستغاثة قوي التوكل ثابت الجأش، له أوراد وأذكار يدبجها بكيفية وجمعية، وله من الطرف الآخر محبون من العلماء والصلحاء ومن الجند والأمراء ومن التجار والكبراء، وسائر العامة تحبه؛ لأنه منتصب لنفعهم ليلا ونهارا بلسانه[1].

وقال ابن سوار السبكي قاضي القضاة أبو البقاء محمد – عندما جاءه جماعة من طائفة القلندرية و طائفة أخرى من الحيدرية يسألونه – قال: رحم الله ابن تيمية كان يكره هؤلاء الطوائف على بدعهم. فلما قال ذلك ذكر له البعض كلام الناس في ابن تيمية، فقال: والله ما يبغض ابن تيمية إلا جاهل أو صاحب هوى؛ فالجاهل لا يدري ما يقول، وصاحب الهوى يصده هواه عن الحق بعد معرفته به[2].

وقال الشيخ زين الدين بن رجب في كتابه الطبقات: ومما وجد في كتاب كتبه العلامة قاضي القضاة أبو الحسن السبكي إلى الحافظ أبي عبد الله الذهبي في أمر الشيخ تقي الدين: أما قول سيدي في الشيخ فالمملوك يتحقق كبر قدره وزخارة بحره وتوسعه في العلوم الشرعية والعقلية وفرط ذكائه واجتهاده وبلوغه في كل من ذلك المبلغ الذي لا يتجاوز الوصف، والمملوك يقول ذلك دائما، وقدره في نفسي أعظم من ذلك وأجل، مع ما جمع الله له من الزهادة والورع والديانة ونصرة الحق والقيام فيه لا لغرض سواه، وجريه على سنن السلف وأخذه من ذلك بالمأخذ الأوفى، وغرابة مثله في هذا الزمان بل من أزمان[3].

(1) الرد الوافر (ص34) وما بعدها.
(2) الرد الوافر(ص51).
(3) الرد الوافر(ص52).

وقال ابن فضل الله العمري الشافعي: ثم عبيت له الكتائب؛ فحطم صفوفها، وخطم أنوفها، وابتلع غديره المطمئن جداولها، واقتلع طوده المرجحن جنادلها.

تقـــدم راكبـــا فـــيهم إمامـــا　　　ولـــولاه لمـــا ركبـــوا وراءه

وكان ابن تيمية في مدد ما يؤخذ عليه في مقاله وينبذ في حفرة اعتقاله لا تبرد له غلة بالجمع بينه وبين خصمائه في المناظرة والبحث حيث العيون ناظرة، بل يبدر حاكم فيحكم باعتقاله أو يمنعه من الفتوى أو شيء من أنواع هذه البلوى، لا بعد إقامة بينة ولا تقدم دعوى، ولا ظهور حجة بالدليل ولا وضوح محجة للتأميل، وكان يجد لهذا ما لا يزاح به ضرر شكوى ولا يطفي به ضرم عدوى، وكل امرئ حاز المكارم محسود:

كضرائر الحســـناء قلن لوجههـــا　　　حســـدا وبغضا إنـــه لـــدميم

كل هذا لبروزه في الفضل حيث قصرت النظراء، وتجليه كالمصباح أو نور الصباح حيث أظلمت الآراء، وقيامه في الله وفي نصر دينه، واقبال الخلق عليه وعلى أفانينه. هذا مع ما له من جهاد في الله لم تفزعه فيه ظلل الوشيج، ولم تجزعه فيه ارتفاع النشيج، مواقف حروب باشرها، وطرائف ضروب عاشرها، وبوارق صفاح كاشرها، ومضايق رماح حاشرها، وأصناف خصوم لد اقتحم معها الغمرات، وواكلها مختلف الثمرات، فقطع جدالها قوي لسانه، وجلادها سنا سنانه، قام بها وصابرها، وبلي بأصاغرها وقاسى أكابرها. لقد اجتمع عليه عصب الفقهاء والقضاة بمصر والشام، وحشدوا عليه بخيلهم ورجلهم فقطع الجميع وألزمهم بالحجج الواضحات أي إلزام، فلما أفلسوا أخذوه بالجاه والحكام، وقد مضى ومضوا إلى الملك العلام، ليجزي الله الذين أساءوا بما عملوا ويجزي الذين أحسنوا بالحسنى[1].

وقال ابن كثير:. وبالجملة كان رحمه الله من كبار العلماء وممن يخطئ ويصيب، ولكن خطأه بالنسبة إلى صوابه كنقطة في بحر لجي، وخطؤه أيضا مغفور له كما صح في البخاري: إذا اجتهد الحاكم فأصاب فله أجران وإذا اجتهد فأخطأ فله أجر. وقال الإمام مالك بن أنس: كل أحد يؤخذ

---

(1) الرد الوافر (ص82) وما بعدها.

من قوله ويترك إلا صاحب هذا القبر صلى الله عليه وسلم [1].

وقال صاحب أبجد العلوم: وفي آخر الأمر ظفروا له بمسألة السفر لزيارة قبور النبيين وأن السفر وشد الرحال لذلك منهي عنه لقوله صلى الله عليه وسلم :" **لاَ تُشَدُّ الرِّحَالُ إِلاَ إِلَى ثَلاَثَةِ مَسَاجِدَ** "[2].

مع اعترافه بأن الزيارة بلا شد رحل قربة فشنعوا عليه بها، وكتب فيها جماعة: بأنه يلزم من منعه شائبة تنقيص للنبوة فيكفر بذلك وأفتى عدة: بأنه مخطئ بذلك خطأ المجتهدين المغفور لهم ووافقه جماعة وكبرت القضية فأعيد إلى قاعة بالقلعة فبقي بضعة وعشرين شهرا و آل الأمر إلى أن منع من الكتابة والمطالعة وما تركوا عنده كراسا ولا دواة وبقي أشهرا على ذلك فأقبل على التلاوة والتهجد والعبادة حتى أتاه اليقين فلم يفجأ الناس إلا نعيه وما علموا بمرضه فازدحم الخلق عند باب القلعة وبالجامع زحمة صلاة الجمعة[3].

وقال الحافظ ابن عبد الهادي: وتم إحضار الشيخ بمجلس نائب السلطنة ومناقشته في العقيدة، ثم بعد هذه الواقعة بمدة كثيرة وذلك يوم الاثنين ثامن رجب من سنة خمس وسبعمائة طلب القضاة والفقهاء، وطلب الشيخ تقي الدين إلى القصر إلى مجلس نائب السلطنة، فاجتمعوا عنده وسأل الشيخ تقي الدين وحده عن عقيدته وقال له: هذا المجلس عقد لك وقد ورد مرسوم السلطان أن أسألك عن اعتقادك، فأحضر الشيخ عقيدته الواسطية وقال هذه كتبتها من نحو سبع سنين قبل مجيء التتار إلى الشام، فقرئت في المجلس وبحث فيها وبقي مواضع أخرت إلى مجلس آخر، ثم اجتمعوا يوم الجمعة بعد الصلاة ثاني عشر رجب المذكور وحضر المخالفون ومعهم الشيخ صفي الدين الهندي واتفقوا على أنه يتولى المناظرة مع الشيخ تقي الدين، فتكلم معه، ثم إنهم رجعوا عنه واتفقوا على الشيخ كمال الدين بن الزملكاني؛ فناظر الشيخ وبحث معه وطال الكلام وخرجوا من هناك والأمر قد انفصل. وقد أظهر الله من قيام الحجة ما أعز به أهل السنة. وانصرف الشيخ تقي الدين إلى منـــزله. واختلفت نقول

---

(1) الرد الوافر(ص95).

(2) سبق تخريجه.

(3) أبجد العلوم(134/3).

المخالفين للمجلس، وحرفوه ووضعوا مقالة الشيخ على غير موضعها، وشنع ابن الوكيل وأصحابه بأن الشيخ قد رجع عن عقيدته؛ فالله المستعان[1]. واجتمع خلق كثير من أهل الخوانق والزوايا واتفقوا على أن يشكو الشيخ إلى السلطان، فطلع منهم خلق إلى القلعة، وكان منهم خلق تحت القلعة؛ فكانت لهم ضجة شديدة، حتى قال السلطان: ما لهؤلاء؟ فقيل له: هؤلاء كلهم قد جاءوا من أجل الشيخ تقي الدين بن تيمية؛ يشكون منه ويقولون إنه يسب مشايخهم ويضع من قدرهم عند الناس. واستغاثوا منه وأجلبوا عليه، ودخلوا على الأمراء في أمره، ولم يبقوا ممكنا. وكان بعض الناس يأتون إلى الشيخ فيقولون له: إن الناس قد جمعوا لك جمعا كثيرا، فيقول: حسبنا الله ونعم الوكيل. وأمر من يعقد له مجلسا بدار العدل؛ فعقد مجلس يوم الثلاثاء في العشر الأول من شوال من سنة سبع وسبعمائة، وظهر في ذلك المجلس من علم الشيخ وشجاعته وقوة قلبه وصدق توكله وبيان حجته ما يتجاوز الوصف، وكان وقتا مشهودا ومجلسا عظيما.. فلما أكثروا الشكاية منه والملام وأوسعوا من أجله الكلام رسم بتسفيره إلى بلاد الشـــام[2].

وقال عمر بن علي بن موسى البزار: كان رضي الله عنه من أعظم أهل عصره قوة ومقاما وثبوتا على الحق وتقريرا لتحقيق توحيد الحق لا يصده عن ذلك لوم لائم ولا قول قائل ولا يرجع عنه لحجة محتج، بل كان إذا وضح له الحق يعض عليه بالنواجذ ولا يلتفت إلى مباين معاند، فاتفق غالب الناس على معاداته وجعل من عاداه قد تستروا باسم العلماء والزمرة الفاخرة وهم أبلغ الناس في الإقبال على الدنيا والإعراض عن الآخرة، وسبب عدواتهم له أن مقصودهم الأكبر طلب الجاه والرئاسة وإقبال الخلق، ورأوه قد رقاه الله إلى ذروة السنام من ذلك بما أوقع له في قلوب الخاصة والعامة من المواهب التي منحه بها وهم عنها بمعزل؛ فنصبوا عداوته وامتلأت قلوبهم بمحاسدته، وأرادوا ستر ذلك عن الناس حتى لا يفطن بهم، فعمدوا إلى اختلاق الباطل والبهتان عليه والوقوع فيه خصوصا عند الأمراء والحكام، وإظهارهم الإنكار عليه ما يفتي به من الحلال والحرام، فشققوا قلوب

---

(1) العقود الدرية(219/1).
(2) العقود الدرية(283/1-285).

الطغاه بما اجترحوه من زور الكلام[1].

إن هذه الأقوال المنيرة لعلماء الأمة المعاصرين لشيخ الإسلام تدفع كل المحاولات الفاشلة التي يبذلها أمثال صبيح بغرض الغض من شـــأن هذا المجدد العظيم، وإننا لنقف أمامها مبهورين بعظمة السابقين الذين شملهم الحب والإخاء، وعمهم العدل والإنصاف.

ولقد حاول السيد صبيح أن يوهم القراء أن الإمام العظيم ابن حجر كان ممن شنعوا على ابن تيمية، ومن تأمل كلام ابن حجر تبين له أنه رحمه الله لم يكن بصدد الحكم على شيخ الإسلام، وإنما كان ينقل الأقوال فقط، أما حكمه هو عليه فهو ظاهر في التقريظ الذي كتبه على الرد الوافر ونقله صاحب الشهادة الزكية.

أما غير ابن حجر ممن اشتهر عنهم العيب على شيخ الإسلام -وهم قلة- فلا يلتفت إلى ما قالوا؛ **لأسباب:**

السبب الأول: أن بعضهم ورد عنهم خلاف ما قالوا، وذلك مثل ما أورده ابن رجب عن الإمام تقي الدين الســـبكي رحمه الله وقد أوردناه آنفا، وهذا يعني أن خلاف السبكي لابن تيمية لم يستلزم ما نقل من العيب والتشنيع، ولو كان يستلزمه لما نقل عنه خلافه، وقد حسم الشيخ تاج الدين ابن الشيخ تقي الدين السبكي هذه المسأله بنهيه عن التعرض لما قاله أبوه في شيخ الإسلام[2].

السبب الثاني: أن بعض هذه النقول افتقد الدقة أحيانا وافتقد الأمانة أحيانا أخرى، فمن أمثلة ما افتقد الأمانة ادعاء البعض على شيخ الإسلام أنه رجع عن قوله واستعمل التقية؛ لذلك قال الحافظ ابن عبد الهادي:" واختلفت نقول المخالفين للمجلس، وحرفوه ووضعوا مقالة الشيخ على غير موضعها، وشنع ابن الوكيل وأصحابه بأن الشيخ قد رجع عن عقيدته؛ فالله المستعان"[3].

ومن أمثلة ما افتقد الدقة ما نقله ابن بطوطة من أنه حضر ابن تيمية في صلاة الجمعة وهو يخطب الجمعة على المنبر فسمعه يقول: إن الله ينـــزل إلى السماء الدنيا كنـــزولي هذا، ونـــزل

(1) الأعلام العلية(ص75- 76).
(2) طبقات الشافعية الكبرى(278/2).
(3) العقود الدرية (219/1).

درجتين. فهذا الكلام غير دقيق؛ لأن ابن بطوطة لم يسمع من ابن تيمية و لم يلتق به؛ فابن بطوطة دخل دمشق يوم الخميس التاسع عشر من شهر رمضان عام ست وعشرون وسبعمائة، وكان سجن ابن تيمية في أوائل شعبان من نفس العام ومكث بالسجن حتى مات[1].

ثم إن كتب شيخ الإسلام منشورة وفيها الرد على المشبهة كما أشار إلى ذلك الإمام ابن حجر في تقريظه.

السبب الثالث: أن كثيرا ممن انتقدوه اتهموا بالضغن عليه والحسد له؛ لذلك فلا يصح الاعتماد على ما قالوا، ومن راجع ما نقلناه من شهادات علماء عصره في أسباب محنته وجد في أغلب ما قالوه تصريحا بهذا، ولعل من الأسباب التي هيجت هذه الضغائن أن ابن تيمية تميزه بالشدة في النقد، فلقد " كان الرجل مهاجما عنيفا قويا وكانت حياته وكتبه مهاجمة عنيفة متواصلة الحلقات. وأي شيء كان في ذلك العصر لا يجب الهجوم عليه؟. ولأجل هذا كثر خصومه ومناوئوه ومعادوه وكثرت الوقيعة في دينه وعلمه وأخلاقه وقد زاد العداوات والخصومات به ضراوة واستشلاء ما كان عليه من المجاهرة بالحق"[2] ولقد تعددت الجهات التي تعرضت لانتقاد شيخ الإسلام وهجومه؛ لذلك "اجتمع عليه المتكلمون والصوفية بعض الفقهاء يكيدون له ويحسدونه"[3].

ومن تأمل المسائل التي من أجلها شنع على ابن تيمية وجدها بذاتها شاهدة على عظمة هذا الرجل، وعلى أنه كان أسبق من كل من خالفوه، فمن هذه المسائل مسألة الطلاق وفتوى شيخ الإسلام بأن طلاق الثلاث يقع واحدة؛ فإن الفقهاء بعد ابن تيمية عرفوا له فضله في هذا ورجع كثير منهم إلى رأيه وقد أخذ به القانون المصري للمحاكم الشرعية[4].

ومن تأمل حجم الانحرافات في ذلك العصر عند المتكلمين والصوفية والشيعة ومتعصبي الفقهاء وغيرهم لأعطي ابن تيمية الحق في ثورته تلك، ولأيقن أن "ما لاقاه من الصعاب هو من نفس النوع

---

(1) انظر: حياة شيخ الإسلام ابن تيمية للشيخ محمد بهجة البيطار ط المكتب الإسلامي(ص36).
(2) الصراع بين الوثنية والإسلام للقصيمي(ص653).
(3) فيلسوف العرب والمعلم الثاني للأستاذ مصطفى عبد الرازق (ص115) بتصرف بسيط.
(4) 25 المؤرخ في 10 مارس سنة 1929.

الذي يلاقيه المصلحون الثائرون على النظريات والأوضاع الخاطئة"[1].

وأخيرا أود أن أنوه إلى أن الذين يقعون في شيخ الإسلام في هذا الزمان كثر، ولكن يجمعهم شيء واحد وهو عدم المنهجية وقلة الإنصاف. ولقد وقعت على مؤلف عجيب سماه صاحبه: ابن تيمية بين نقيضين.! وحسبت أن هذا العنوان ينم عن قول وسط إلا أنني فوجئت أثناء قراءتي له بأن الميزان يطيش، ورأيت المؤلف يحشر في سياق الكتاب ترجمة لابن تيمية وابن القيم مع تراجم لأربعة وعشرين عالما آخرين، وقبل أن أسترسل مع التساؤلات التي فرضت نفسها عن سبب هذا الحشر المفتعل في السياق بوضوح بالغ وعن السر في اختيار هؤلاء العلماء بالتحديد وغير ذلك؛ داهمني خطب أشد وهو الطريقة (الفذة!) في الترجمة؛ فقد ترجم لجميع من ذكرهم ترجمة مفصلة بذكر المولد والمنشأ والشيوخ والتلاميذ والفضائل والمناقب وغير ذلك. بينما لم يتعرض في ترجمته لشيخ الإسلام إلا بذكر أقوال المخالفين له والواقعين فيه، فكان يقول: ابن تيمية عند تقي الدين السبكي. ابن تيمية عند الحصني. وهكذا![2].

وهذه أساليب تجعل القارئ لا يحسن الظن بأصحابها، ونحن بحاجة إلى إحياء منهج العدل والإنصاف ونبذ كل ما يذكي الشقاق والخلاف. والأمة الإسلامية في غنى عن خدمات أهل الفضول وأصحاب المآرب.

ولم يبق إلا أن أذكر بأن علماء الأمة لهم حرمة يجب أن تصان، وأن لحومهم مسمومة لا يجترئ علي نهشها إلا من كتب عليه الخذلان.

---

(1) ابن تيمية والتصوف (ص378).

(2) انظر (ص299: ص427) من كتاب: ابن تيمية بين نقيضين مشيخته للإسلام واتهامه بالكفر والزندقة.

الخاتمــة

وفي ختام هذا البحث أود أن أجمل النتائج التي تمخض عنها، وهي تتلخص في الآتي:

1- أن أهل السنة والجماعة يتولون آل بيت النبي صلى الله عليه وسلم ، ويترحمون عليهم ويتبرأون ممن يعاديهم من النواصب وغيرهم، ومع ذلك فهم لا يغلون فيهم غلو الروافض. ولقد ثبت بالدراسة أن هذه العقيدة هي التي قال بها شيخ الإسلام وقررها، وأن ما أورده النقاد ليس فيه أدنى تنقيص لآل البيت، وإنما اشتبه الأمر على بعضهم بسبب المسالك الدقيقة التي سلكها الإمام في الرد على ابن المطهر الرافضي، والبعض الآخر مغرض في صدره إحنة ومثل هذا لا يلتفت إلي قوله.

2- أن الحقيقة المحمدية عند الصوفية خرافة؛ لأنها ترسم لرسول الله صلى الله عليه وسلم صورة أسطورية على خلاف الصورة التي تبدت في الكتاب والسنة ونقلها التاريخ وشهد بها الواقع من أنه بشر كسائر البشر غير أنه تميز عنهم بالوحي والعصمة. ولقد أطال شيخ الإسلام في الرد على الصوفية في هذه المسألة؛ مما أدى إلى عداوتهم له هم وأتباعهم إلى اليوم، ولكنه على الحق، وليس انتصاره للحق تنقيصا لرسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ كيف ورسول الله صلى الله عليه وسلم هو الذي جاء بالحق المبين.

3- أن التوسل منه ما هو مشروع كالتوسل بأسماء الله وصفاته والتوسل بالأعمال الصالحة والتوسل بدعاء الأحياء من الصالحين، ومنه ما هو محظور ممنوع كالتوسل بجاه النبي صلى الله عليه وسلم أو بذاته أو بحقه أو بجاه وحق أحد من الصالحين أو ما شابه ذلك؛ لأنه -وإن لم يكن بذاته شركا- يفضي إلى الشرك بالله العظيم. وقد بين شيخ الإسلام هذا في كتبه؛ مما عرضه لسهام الصوفية، ولكنها تكسرت كلها على صخرة الحق الذي تجلى في كلامه وأدلته القوية.

4- أن الاستغاثة والاستعانة والدعاء وطلب المدد شيء مختلف تمام الاختلاف عن الوسيلة، وقد حاول الصوفية على مدار التاريخ الخلط بين هذه المصطلحات بغرض سحب أدلة التوسل المشروع على الكل. وقد ميز العلماء الربانيون مثل ابن تيمية بين الوسيلة وبين غيرها، وأكدوا

على أن الاستغاثة والاستعانة بغير الله شرك كدعاء غير الله.

5- أن زيارة قبر رسول الله صلى الله عليه وسلم مشروعة، لكن الممنوع هو شد الرحال بغرض زيارة القبر الشريف وحسب، والمنع هو مذهب شيخ الإسلام وبعض العلماء، ولم يقل شيخ الإسلام بتحريم الزيارة، وإنما شدد على ما يكتنف الزيارة من بدع قد تكون بذاتها شركا كالدعاء والاستغاثة بصاحب القبر، وقد تكون ذريعة إلى الشرك كالتوسل به أو طلب الدعاء منه وهو ميت، وقد تكون من نوع الغلو الذي نهي عنه المعصوم صلى الله عليه وسلم ؛ حماية لجناب التوحيد كشد الرحال.

6- أن الصوفية الأوائل كانوا عبادا زهادا على منهج السلف في الاعتقاد والتلقي والعمل، لكن مع شيء من الزيادة التي لم يفعلها الصحابة؛ مما أثار توجس بعض العلماء، ولكنها كانت هنات غارقة في بحر فضائلهم. أما المتأخرون من الصوفية فقد أدخلوا على التصوف ما لم ينــزل الله به من سلطان: من عقائد فاسدة وعبادات مبتدعة وأمور شركية، وخرافات وأساطير؛ مما يجعلنا نردد تحذير الأئمة الكبار منهم.

7- أن شيخ الإسلام علم كبير من أعلام هذه الأمة، شهد بذلك الموافق والمخالف من أهل العدل والإنصاف، وكتبه وأقواله وأعماله خير شاهد علي هذا، وقد شهد بهذا التاريخ الذي لا يكذب ولا يزيف، وهو مع ذلك بشر يخطئ ويصيب ولا معصوم إلا رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وفي الأخير أسأل الله تبارك وتعالى أن يبارك للأمة في علمائها وأن ينفعها بعلمهم وجهادهم. وصلى الله وسلم وبارك على عبده ورسوله نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

سبحان ربك رب العزة عما يصفون وسلام

على المرسلين والحمد لله رب العالمين

ثبت المراجع

- الضعفاء والمتروكين للنسائي ت محمود إبراهيم زايد دار الوعي حلب وريا 1369هـ.
- أبجد العلوم الوشي المرقوم في بيان أحوال العلوم صديق بن حسن القنوجي دار الكتب العلمية بيروت 1978م.
- الابريز: الإبريز الذي تلقاه احمد بن المبارك عن عبد العزيز الباغ المطبعة الأزهرة المصرية ط اولى 1306هـ.
- ابن تيمية بين نقيضين مشيخته للإسلام واتهامه بالكفر والزندقة.
- ابن تيمية بين نقيضين مشيخته للإسلام وإتهامه بالكفر والزندقة –السعيد بدير الماظ ط أولى 2005م.
- ابن تيميه والتصوف الدكتور مصطفى حلمي – دار الدعوة للطبع والنشر – الإسكندرية – مصر.
- الإحكام في أصول الأحكام للآمدي المكتب العربي بيروت 1404هـ.
- إحياء المقبور من أدلة جواز بناء المساجد على القبور– احمد عبد الله الصديق الغمارى ويليه إعلام الراكع الساجد إتخاذ القبور مساجد –عبد الله الصديق الغمارى –ط مكتبة القاهرة –الطبعة الثانية 1425هـ.
- إرواء الغليل في تخريج أحاديث منار السبيل محمد ناصر الدين الألباني المكتب الإسلامي بيروت 1405هـ.
- الاستقامة لابن تيمية جامعة الإمام محمد بن سعود ط أولى 1403هـ ت محمد رشاد سالم.
- الأسرار المرفوعة في الأخبار الموضوعة ط مؤسسة الرسالة.
- الإصابة في تمييز الصحابة لابن حجرالعسقلاني دار الجيل بيروت 1412هـ.
- الأعلام العلية في مناقب شيخ الإسلام ابن تيمية عمر بن على البزار المكتب الإسلامي بيروت 1400هـ.
- إغاثة اللهفان ن مصائد الشيطان لابن القيم دار الفكر بيروت 1395هـ.

- إقامة البراهين على حكم من استعان بغير الله أو صدق الكهنة والعرافين -الشيخ عبد العزيز بن عبد الله بن باز - نشر رئاسة إدارات البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد -السعودية.
- اقتضاء الصراط المستقيم مخالفة أصحاب الجحيم لابن تيمية مطبعة السنة 1369هـ ت محمد حامد الفقي.
- الألفاظ المختلفة في المعاني المؤتلفة محمد بن عبد الملك بن مالك الطائي دار الجيل بيروت 1411هـ.
- الإمامة لأبي نعيم مكتبة العلوم والحكم المدينة المنورة.
- الإنسان الكامل في معرفة الأواخر والأوائل لعبد الكريم الجيلى ط الحلبى - ط الرابعة.
- الانوار الأقدسية في بيان آداب العبودية لعبد الوهاب الشعرانى ط اولى د طه عبد الباقى سرور.
- بردة المديح للبوصيري مطبعة المشهد الحسيني.
- تاج العروس.
- تاريخ الإسلام للحافظ الذهبي.
- تاريخ دمشق لابن عساكر دار الفكر بيروت.
- التحرير والتنوير.
- تحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي محمد عبد الرحمن المابركفوري دار الكتب العلمية بيروت.
- تخريج أحاديث الإحياء.
- تذكرة الموضوعات محمد طاهر بن علي الصديقي.
- التصوف المنشأ والمصادر -إحسان إلهي ظهير -إدارة ترجمان السنة -لاهور -باكستان -ط الأولى 1406هجريه.
- التصوف والاتجاه السفلي في العصر الحديث - دكتور مصطفى حلمي - دارا لدعوه للطبع والنشر- الإسكندرية- مصر.
- تفسير البيضاوي للإمام البيضاوي.

- تفسير القرآن العظيم للإمام ابن كثير.
- تفسير النسفي للإمام النسفي.
- تقريب التهذيب للحافظ ابن حجر العسقلاني دار الرشد سوريا 1406هـ.
- تلخيص الحبير في أحاديث الرافعي الكبير للحافظ ابن حجر العسقلاني المدينة المنورة 1384هـ.
- التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد لابن عبد البر المالكي الناشر وزارة عموم الأوقاف والشؤون الإسلامية المغرب 1387هـ.
- تنوير الحوالك شرح موطأ مالك للسيوطي المكتبة التجارية الكبرى 1389هـ.
- تهذيب التهذيب للحافظ لابن حجر العسقلاني دار الفكر بيروت 1404هـ.
- تهذيب الكمال للحافظ المزي ط مؤسسة الرسالة بيروت ت د بشار عواد معروف 1400هـ.
- التوسل أنواعه وأحكامه للألباني ط المكتب الإسلامي بيروت لبنان.
- التوصل إلى حقيقة التوسل المشروع والممنوع لمحمد نسيب الرفاعي.
- التوقيف على مهمات التعاريف محمد عبد الرؤوف المناوي دار الفكر بيروت 1410هـ.
- جامع البيان عن تأويل آي القرآن (تفسير الطبري) محد بن جرير الطبري.
- جامع العلوم والحكم لابن رجب الحنبلي دار المعرفة بيروت 1408هـ.
- الجامع لأحكام القرآن للإمام القرطبي.
- الجرح والتعديل لابن أبي حاتم الرازي ط دار إحياء التراث العربي بيروت ط أولى 1371هـ.
- جمهرة الأولياء وأعلام أهل التصوف لمحمود أبو الفيض المنوفي الحسيني مطبعة المدني العباسية القاهرة ط أولى 1389هـ.
- الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح لابن تيمية دار العاصمة الرياض 1414هـ.
- الجواهر الحسان في تفسير القرآن للثعالبي مؤسسة الأعلمي للمطبوعات بيروت.
- حقوق آل البيت – ابن تيمية – ت عبد القادر عطا –دار البيان للنشر والتوزيع –مكة – السعودية – دار الكتب العلمية –بيروت.

- حقوق النبي صلى الله عليه وسلم بين الإجلال والإخلال المنتدى الإسلامي، الطبعة الثانية 1423هـ.
- حوار المالكى في منكراته وضلالاته عبد الله بن سليمان بن منيع ط 1404 هجرية.
- حياة شيخ الإسلام ابن تيمية للشيخ محمد بهجة البيطار ط المكتب الإسلامي.
- الدر المنثور للسيوطي دار الفكر بيروت 1399هـ.
- درء تعارض العقل والنقل لابن تيمية ط دار الكنوز الأدبية 1391هـ محمد رشاد سالم.
- دراسات في الفرق و المذاهب القديمه المعاصرة –عبد الله الأمين ارلى 1406 هجرية – دار الحقيقة بيروت لبنان.
- دراسات في الفرق والمذاهب القديمة والمعاصرة.
- الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة لابن حجر العسقلاني دار الكتب الحديثة.
- دعاوى المنايين لدعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب عرض ونقض، عبد العزيز بن محمد بن على آل عبد اللطيف دار طيبة الرياض السعودية ط 1409 هجرية.
- دقائق التفسير لابن تيمية مؤسسة علوم القرآن دمشق 1404هـ.
- دمعة على التوحيد إصدار المنتدى الاسلامى.
- ديوان الحلاج لأبي المغيث الحسين بن منصور بن محمد البيضاوى ط دار الآفاق العربية –بغداد.
- ديوان عبد الرحمن البرعى دار المكتبة الثقافية بيروت 1389هـ.
- ذم ما عليه مدعو التصوف –موفق الدين ابن قدامه تحقيق زهير الشاويش –المكتب الإسلامي ط 1404 هجرية.
- ذيل طبقات الحنابلة.
- الرد القوى على الرفاعى وابن العربى حمود بن عبد الله بن حمود التويجرى ط دار الوفاء – السعودية ط أولى 1403هجرية.
- الرد الوافر محمد بن أبي بكر بن ناصر الدين الدمشقى الشافعي المكتب الإسلامي بيروت 1393هـ.

- الرد على البكري لابن تيمية مكتبة الغرباء الأثرية ت محمد علي عجال 1417هـ.
- الرد على المنطقيين لابن تيمية دار المعرفة بيروت.
- الرد على شبهات المستعنين بغير الله 'احمد بن إبراهيم النجدي ط دار طيبة 1409هـ.
- الرفاعية –عبد الرحمن دمشقية ط 1410.
- روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني محود شكري الآلوسي دار إحياء التراث العربي بيروت.
- زاد المسير لابن الجوزي المكتب الإسلامي بيروت 1404هـ.
- السلسلة الضعيفة محمد ناصر الدين الألباني دار المعارف الرياض.
- السنة لأبي بكر الخلال دار الراية الرياض 1410هـ.
- السنن الكبرى للبيهقي ت محمد عبد القادر عطا دار الباز مكة المكرمة 1404هـ.
- سير أعلام النبلاء للحافظ الذهبي ط دار المكتب الإسلامي بيروت ط ثانية.
- شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة من الكتاب والسنة وإجماع الصحابة للالكائي دار طيبة الرياض.
- شرح الأخبار للزبيدي.
- شرح السيوطي لسنن النسائي مكتب المطبوعات الإسلامية حلب 1406هـ.
- الشهادة الزكية في ثناء الأئمة على ابن تيمية مرعي بن عمر الكرمي الحنبلي مؤة الرسالة بيروت 1404هـ.
- الصارم المسلول على شاتم الرسول ط دار ابن حزم بيروت 1417هـ.
- الصراع بين الوثنية والإسلام للقصيمي.
- الصلة بين التصوف والتشيع د كامل مصطفى الشيبى ط دار المعارف مصر ط الثانية.
- الصوفية نشأتها وتطورها –محمد العبيدة 'طارق عبد الحليم –دار الأرقم –الكويت ط أولى 1406هـ.

- طبقات الحنابلة.
- طبقات الشافعية الكبرى.
- الطبقات الكبرى لعبد الوهاب الشعراني ط شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي مصر ط اولى 1373هـ.
- الطبقات الكبرى محمد بن سعد منيع دار صادر بيروت.
- العقود الدرية من مناقب شيخ الإسلام ابن تيمية دار الكتاب العربي بيروت.
- عمدة القاري شرح صحيح البخاري للعلامة بدر الدين العيني.
- العواصم من القوا صم لأبي بكر العربي تحقيق وتعليق محب الدين الخطيب، ط المكتبة العلمية بيروت 1406 هجرية.
- العواصم من القواصم لأبي بكر بن العربي ت د محمد جميل غازي دار الجيل بيروت 1407هـ.
- عون المعبود شرح سنن أبي داود للعظيم آبادي دار الكتب العلمية بيروت 1415هـ.
- غريب الحديث لابن الجوزي دار الكتب العلمية بيروت 1985 م.
- الفتاوى الكبرى لابن تيمية دار المعرفة بيروت ت حسنين مخلوف.
- فتح الباري شرح صحيح البخاري للحافظ ابن حجر دار المعرفة بيروت 1379هـ.
- فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية في علم التفسير محمد بن علي الشوكاني.
- الفتوحات الإلهية شرح المباحث الأصلية لأبن عجينة ط دار المعرفة بيروت لبنان.
- الفتوحات المكية لإبن عربى ط المطبعة العربية القاهرة.
- الفصل في الملل والأهواء والنحل لابن حزم مكتبة الخناجي القاهرة.
- فصوص الحكم لإبن عربى ط ثانية ط دار الكتاب العربى بيروت.
- فض القدير شرح الجامع الصغير عبد الرؤوف المناوي المكتبة التجارية الكبرى مصر 1356هـ.
- الفكر الصوفي في ضوء الكتاب والسنه –عبد الرحمن عبد الخالق –مكتبة ابن تيميه –الكويت – ط الثانية.

– فيلسوف العرب والمعلم الثاني للأستاذ مصطفى عبد الرازق.
– قاعدة جليلة في التوسل والوسيلة لابن تيمية –مكتبة دار البيان دمشق ط أولى 1405هـ.
– القاموس المحيط محمد بن يعقوب الفيروزآبادي.
– الكامل في ضعفاء الرجال لابن عدي ت يحيى مختار غزاوي دار الفكر بيروت 1409هـ.
– كتاب العين للخليل بن أحمد الفراهيدي دار ومكتبة الهلال.
– الكشاف للزمخشري.
– الكنـــز المطلسم لمحمد أبي الهدى أفندي الرفاعي الصيادي المطبعة العلمية مصر 1313هـ.
– لسان العرب لابن منظور دار الحديث القاهرة مصر.
– اللمع للطوسي دار الكتب الحديثة مصر ط مطبعة السعادة مصر.
– مجانبة أهل الثبور المصلين في المساجد وعند القبور –عبد العزيز بن فيصل الراجحى دار الصميعى – الرياض –أولى 1425.
– مجموع الفتاوى –لشيخ الإسلام أبي العباس تقي الدين أحمد بن عبد الحليم بن تيمية الحراني الحنبلي.
– المحصول في أصول الفقه للقاضي أبي بكر ابن العربي المالكي دار البيارق الأردن 1420هـ.
– المحصول في علم الأصول محمد بن عمر بن حسين الرازي ط جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية الرياض 1400هـ.
– مختار الصحاح ط دار نهضة مصر الفجالة القاهرة.
– مختصر تاريخ دمشق.
– مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين لابن القيم ت محمد حامد الفقي دار الكتاب العربي بيروت 1393هـ.
– المستصفى في علم الأصول للإمام أبي حامد الغزالي ت محمد عبد السلام عبد الشافي دار الكتب العلمية بيروت 1413هـ.

- المصادر العامة للتلقى عند الصوفية عرضا ونقدا –صادق سليم صادق –مكتبة الرشد –الرياض ط أولى 1415هـ.
- المصباح المنير في غريب الشرح الكبير للرافعي، أحمد بن محمد بن علي الفيومي المكتبة العلمية بيروت.
- المصنف في الأحاديث والآثار لأبي بكر بن أبي شيبة مكتبة الرشد الرياض 1409هـ.
- مظاهر الانحرافات العقدية عند الصوفية وأثرها السيئ على الأمة الإسلامية ـــ إدريس محمود إدريس، مكتبة الرشد –الرياض، ط أولى 1419 هجرية.
- معالم التنـــزيل للبغوي.
- المعجم الكبير للطبراني مكتبة العلوم والحكم الموصل 1404هـ تحمدي بن عبد المجيد السلفي.
- المعجم الكبير للطبراني مكتبة العلوم والحكم الموصل 1404هـ تحمدي بن عبد المجيد السلفي.
- المعجم الأوسط للطبراني دار الحرمين القاهرة.
- المعجم الوسيط ط الثانية لمكتبة الشروق الدولية.
- المنخول في تعليقات الأصول لأبي حامد الغزالي دار الفكر بيروت 1400هـ.
- منهاج السنة النبوية لابن تيمية ط مؤسسة قرطبة 2006هـ ت محمد رشاد سالم.
- الموافقات في أصول الفقه للإمام الشاطبي ت عبد الله دراز دار الفكر بيروت.
- موقف أئمة الحركة السفلية من التصوف والصوفية –عبد الحفيظ بن مالك عبد المحسن المكي–دار السلام –مصر – ط أولى 1409هجريه.
- ميزان الاعتدال للحافظ الذهبي..
- النبذة الشريفة النفيسة في الرد على القبو رين حمد بن ناصر بن عثمان آل معمر –دار العاصمة – الرياض ط أولى 1409 هجريه.
- النبوات –شيخ الإسلام ابن تيمية –دار الفكر.
- النبوات لابن تيمية المطبعة السلفية القاهرة 1304هـ.

- نخبة الفكر في مصطلح أهل الأثر لابن حجر العسقلاني ط دار إحياء التراث العربي بيروت.
- نظرية الإتصال عند الصوفية في ضوء الإسلام ـــ سارة بن عبد المحسن آل سعود - دار المنارة جدة السعودية ط أولى 1411 هجرية.
- النهاية في غريب الأثر لابن الأثير المكتبة العلمية بيروت 1399هـ.
- نيل الأوطار من أحاديث سيد الأخيار شرح منتقى الأخبار للإمام الشوكاني إدارة الطباعة المنيرية.
- هذه هي الصوفية- عبد الرحمن الوكيل- دار اللواء- الرياض السعودية في الخامسة 1403 هجريه.

مراجع الحديث

اسم الكتاب	اسم المؤلف	دار النشر	رقم الطبعة	سنة الطبع
الآحاد والمثاني	ابن أبي عاصم	دار الراية	الأولى	1411
الأدب المفرد	محمد بن إسماعيل البخاري	دار البشائر الإسلامية بيروت	الثالثة	1409
الإصابة	لابن حجر العسقلاني	در الجبل بيروت	الأولى	1412
الجامع الصحيح	محمد بن إسماعيل البخاري	دار بن كثير بيروت	الثالثة	1407
الجامع الصحيح من سنن الترمذي	الإمام الترمذي	دار إحياء التراث العربي بيروت	—	—
الزهد	الإمام أحمد	دار الكتب العلمية	—	—
السنة	ابن أبي عاصم	إدارة القرآن والعلوم الإسلامية باكستان	—	—
السنن الصغرى	الإمام للبيهقي	الدار المدينة المنورة	الأولى	1412
السنن الكبرى	الإمام النسائي	دار الكتب العلمية	—	1411
الشريعة	الإمام الآجري	السنة المحمدية مصر	—	—
الطبقات الكبرى	ابن سعد	دار صادر بيروت	—	—
المستدرك	الحاكم النسابوري	دار الكتب العملية بيروت	—	—
المعجم الأوسط	الإمام الطبراني	دار الحرمين القاهرة	—	1411
المعجم الصغير	الإمام الطبراني	دار الكتب العلمية بيروت	—	—
المعجم الكبير	الإمام الطبراني	مكتبة العلوم والحكم "الموصل"	الثانية	1404
الموطأ رواية يحى الليثي	الإمام مالك بن أنس	دار صادر بيروت	—	—
شرح السنة	أبو محمد الحسين بن مسعود البغوي	المكتب الإسلامي	الأولى	1399
صحيح ابن حبان بترتيب ابن بلبان	محمد بن حبان	مؤسسة الرسالة بيروت	الثانية	1412
صحيح ابن خزيمة	محمد بن إسحاق بن خزيمة	المكتب الإسلامي بيروت	—	1390
صحيح مسلم	الإمام مسلم	دار إحياء التراث العربي بيروت	—	—

اسم الكتاب	اسم المؤلف	دار النشر	رقم الطبعة	سنة الطبع
مسند ابن أبي شيبة	ابن أبي شيبة	مؤسسة الرسالة بيروت	—	—
مسند أبي عوانة	يعقوب بن إسحاق أبو عوانة	دار المعرفة بيروت	—	—
مسند أبي يعلى	أحمد بن علي أبو يعلى الموصلي	دار المأمون للتراث دمشق	الأولى	1404
مسند إسحاق بن راهويه	إسحاق بن إبراهيم بن مخلد	مكتبة المدينة المنورة	الأولى	1995
مسند الحميدي	عبد الله بن الزبير الحميدي	دار عالم الكتب بيروت	—	—
مسند الشافعي	م الإمام محمد بن إدريس الشافعي	دار الكتب العلمية بيروت	—	—
مشكل الآثار	الإمام الطحاوي	مؤسسة الرسالة بيروت	—	—
مصنف عبد الرازاق	عبد الرازاق بن همام الصنعاني	المكتب الإسلامي بيروت	الثانية	1403
موطأ مالك برواية محمد بن الحسن الشيباني تذكرة الموضوعات للفتنى الأسرار المرفوعة في الأخبار الموضوعة الفوائد المجموعة تفسير ابن أبي حاتم الكامل في ضعفاء الرجال	الإمام مالك بن أنس محمد بن طاهر الفتنى الملا على القارئ محمد على الشوكاني ابن أبي حاتم الرازى أبو احمد بن عدى الجرجانى	دار إحياء التراث مصر	—	—

فهرس الموضوعات